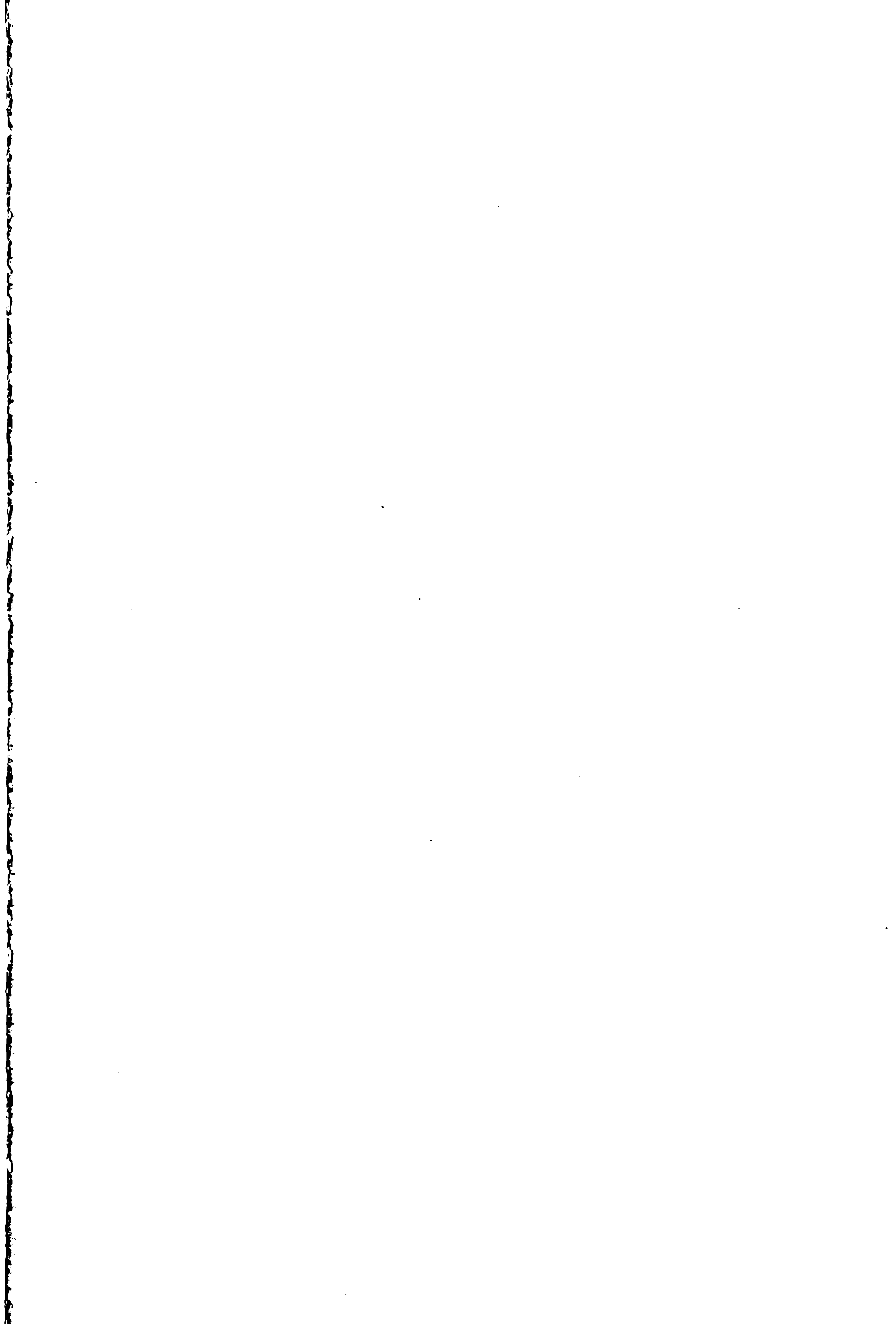
سامي معروف

الفنّ الأسود

رواية



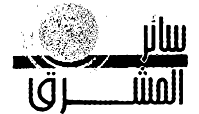
دار سائر المشرق



سامي معروف

الفنّ الأسود

رواية



الطبعة الأولى
٢٠١٧

جديدة المتن - سنتر بايلايان - الطابق السابع
رقم الهاتف والفاكس 01-900624
info@entire-east.com
www.entire-east.com

ISBN: 978-614-451-076-6

تنفيذ الكتاب: **creative couple**
www.creativecoupleart.com

العُرْيُ في السَّاحَةِ العامّةِ خِلاعة، وَفوْقَ خشَبَةِ المسرَحِ فنّ، وعلى الشّاطئِ رياضَة. ولكنّهُ العُرْيُ نفسُه دائماً أبداً.

(أبو غَبْرَه)



الصّورة

مَشَيناها خُطىً كُتِبَتْ علينا

ومَن كُتِبَتْ عليهِ خُطىً مَشاها.

إبن فارس

الهُويَّة خَلقٌ دائم.

والكائنُ البشَريُّ يَخلقُ هُويَّتَه حينَ يَخلقُ عَمَلَه،

لأنَّ الهُويَّة تشَكُّل مستقبليّ، وليسَتِ انبثاقاً من الماضي البتة.

أدونيس

اسمُ الوالدة لوسين غازاريان المولودَة في القامشلي، وأمّا الإخوة والأخوات فهم من الكبير إلى الصّغير: رويدا، ليلى، أفرام، هويدا، حارث، ميشال، وإبراهيم. والأكبرُ منه هم: رويدا، ليلى، وأفرام.. لا يعرفُهم! والشقيق الصّغير إبراهيم لا يذكرُه البتة، وحتى هذه السَّاعة لا يَعرفُ أحدٌ عن إبراهيم شيئاً، وتسيرُ الحياةُ كأنَّه لم يولَدْ قطّ.. إنّه مالئُ الدّنيا وشاغل

الناس.. حارث ملحم النَجّار الـمُلقّب بأبو غَبرُه، والمولود في شهر آب من عـام ١٩٦٤ في مدينةِ النبَّـك، سوريا.

أرخى الـمُحامي بدَنَه السّمين فوق الكنبة الوثيرة، في مساءٍ خريفيّ ماطر، يُقلّبُ بينَ يديه أوراقاً.. هي فصولٌ من مِلفٍّ دَسِمٍ لأحَدِ الموقوفين السُّجَناء. بجانبه قهوةُ زوجتِهِ الطيّبَة وعلبة السَّكائر وصحنُ البزورات، كمضخّةِ طاقاتٍ يشحن بها دينامو ذهنِه المتوقّد، قبل عمليَّةِ الإقلاع والابحار في الملفّاتِ الـمُعقّدة. وبعدَ أن هيّأت له زوجتُه "عدَّة الشّغل"، أنقذَتْ نفسَها من دوّاماتِ القانون وأوَتْ إلى مخدعها لترفعَ صلاةَ النّجاة والسّلامة. ولكنَّ عيني الميتر الذَّكيَّتين.. تبدوان من فوقِ نظّارتيه عصفورتين قلِقتين تائِهَتين.. تثبان بَينَ مشاهدِ فيلم الأكشِن الأميركيّ الذي يُشاهدُه.. وأخبارِ مُغامرات حارث أبو غَبْرَه المجنونة أمامَه. وإيقاعاتُ معزوفةِ نقراتِ المطر الـمُواكبة على زُجاجِ النّافذة، كأنّها الموسيقى التّصويريَّة لأحداث هذه الجموحاتِ الآثِمَة. ولكنَّ القصَّة الحقيقيَّة التي تشكِّلُ المصدرَ والخلفيَّة الدراميَّة لهذا الملفّ الضّخم، مازالت على قيد الحياة في فصولٍ قليلةٍ متناثرة أنقِذَت من حريقِ الانتفاضةِ الثانيَة. فدوّنَها حمداش الجابري صديقُ حارث ملحم النَجّار كما أملاها عليه حارث، كمسودَّةٍ أولى؛ على أن تُصبِحَ مشروعَ كتابٍ يحوي مذكّراتِه واعترافاتِه كلَّها.

في بدايةِ سبعينيّات القرنِ الماضي، وليس هناكَ تحديد دقيق للزَّمَن، توفيَ والدُ حارث أبو غَبْرَه بداءِ السَّرَطان! كانَ أبوهُ قاسياً شرساً وطيِّبَ القلب في آنٍ معاً.. هكذا كانت تُرَدِّد الوالدة. ولأنّه ارتكبَ جريمة قتل، فقد قضى الوالدُ ملحم النَجّار عُمرَه هارباً من الدَّوْلةِ ومُخبريها في دُنيا الله الواسعة. كانَ قدَرُ عشيرةِ آل النَجّار ومصيرُهم.. مجموعةً "خطيرةً" منَ القيَمِ والمبَادِئ القديمة، وطريقةً في التفكير يشوبُها العَنَتُ وروحُ التَحدِّي،

ورثوها عن الآباء والأسلاف. وهم يفتخرونَ بها تماماً كما يفتخرُ المسيحِيُّ بالصّليب والمسلم بالشَّهادة. وهذه عيّنة بسيطة عن تلكَ الموروثاتِ المريضة:

فذاتَ مساء.. أيّامَ كانَ ولداً في المدرسة.. عادَ والدُ أبو غبرَه ملحم النجّار إلى البَيت، ورأى أبوه أنَّ المعلّمَ قد ضربَه، وآثارُ الضَّرَبات بادية فوق جسدِه. فسأله أبوه، أيّ جَدُّ حارث أبو غَبْرَه، والغضبُ شرارتُ نارٍ في ناظريه:

"لماذا تبكي؟" فأجابه ملحم:

"لقد ضربني الأستاذ يا أبي"

فأخذَ الجَدُّ الخيزرانةَ الـمُذهَّبَة من صِوانِها، وضربَ ملحم ضرباً مبرّحاً، وقال له مهدِّداً:

"لا أحدَ في بيتي يرجعُ آكل قتلِة!"

وكانت قتلةً ثانية لملحِم.. من كعب الدّست.

وراحت هذه الحادثة مع الأيّام تتحوّل إلى عقدة، وتتورَّمُ في وجدانِ ملحم كالمرَض الخبيث، آخذةً نسغَها من دماءِ الذّاكرةِ الجريحة. وتابعَ الزَّمَنُ مَسيرتَهُ.. وصار ملحم رجلاً. وذات يوم، أثناء خدمتِه في الجنديَّة، أهدَتهُ صدفةٌ غريبة، في مقهى الثكنة العسكريَّة، أستاذَهُ القديم الذي ضرَبَه في المدرسة وكانَ عقابُه عليها قتلةً أخرى من أبيهِ في البَيت. فاقتربَ ملحم من الـمُعلِّم، حيَّاهُ ودَعاه إلى فنجان قهوة. وبعدَ دردشةٍ حذِرَة لدقائِق بينَ الرَّجُلين، قال ملحم للأستاذ في شبه سؤال:

"أنتَ ضربتَني في المدرسةِ ذات يوم، أتذكر أيّها الأستاذ؟"

وقبلَ أن يتذكَّرَ الرَّجلُ المسكينُ شيئاً، أو أن ينبسَ ببنتِ شفة، شهرَ ملحم المُسدَّس في وجهه، وأطلقَ النّارَ عليه وأرداه قتيلاً.

وهكذا بقيَ ملحم طريدَ العدالةِ، إلى أن وافتهُ المنيَّة بالدَّاءِ الخبيث في إحدى القرى النّائيَة. كانَ مرضُهُ فاتكاً سريعاً. وبعد وفاةِ ملحم والد حارث، أخذَتِ الوالدةُ لوسين أولادَها وجاءَت بهم إلى لبنان: ميشال وهويدا وإبراهيم وحارث الذي عُرِفَ فيما بعد باللَّقبِ الشَّهير (أبو غَبْرَه). وكانَ الأولادُ صغاراً.. سبعَ وثمانيَ سنوات. وأمّا الأُختان الكبيرتان رويدا وليلى، فكانتا قد تزَوَّجتا وبقيَتا في سوريا، والأخ الكبير أفرام مَسَختْهُ الأيّامُ شيطاناً خطيراً هو الآخر.. ولا أحَدَ يعرفُ أينَ هو! والنَّتيجةُ النِّهائيَّة المُشوَّشَة.. أنَّ أبو غَبْرَه هذا لا يعرفُ إخوتَه رويدا وليلى وأفرام، ولم يرَ لهم وجهاً في حياته.

في لبنان تزوَّجَتِ الوالدة لوسين من رجُلٍ يُدعى كيفورك كاراجيان. كان هذا "سِكرِيّاً قَمَرجيّاً"، وكان يضربُها أحياناً كثيرة وهو تحتَ تأثير الكحول. والغريبُ أنَّ الوالدة هي الأخرى كانت قاسيَةَ القلب! فحارث يذكرُ جيِّداً.. كيف أمسَكتْ أمُّه الشَّوكةَ من المقلاة وهي مبلَّلة بالزَّيتِ المغليّ ووشَمَت فخذَه، لأنّها رأته يمُدُّ يدَهُ إلى جزدانِها. وآثارُ أسنان الشّوكةِ لا زالت تعويذةً مُخيفةً مطبوعةً على فخذِه حتى الآن.

بدأتِ الحربُ الأهليَّة اللبنانيَّة. وأقامت هذه العائِلة أوّلاً في (برج حمّود) في القسم الشّرقيِّ من مدينةِ بيروت. وسرعانَ ما أعلنَ الوالدُ الجديدُ لهذه العائِلة اليتيمَة عن فكرةٍ عنَّتْ له، وهي أن يَتبنّى أحدُهم الأولادَ مقابلَ مبلغٍ منَ المال، وحُجَّتُه في طرحِهِ هذا أنّهُ لا يستطيعُ أن يكونَ والداً غيرَ شَرعيٍّ للأولاد. كانت أيّاماً مجنونة.. "خوف وقلَه وتعتير".. فقبلتِ الوالدة لوسينَ بالمشروعِ. ثمّ قامت فيما بعد (أخويّةُ الرّاعي الصّالح) بالوساطةِ بينَ

لوسين وإحدى العائلاتِ اللبنانيَّة الثريَّة في فرنسا. ولم يكن محظوظاً في قضيَّةِ التبنِّي هذه غيرُ الصّغير، فأخذوا إبراهيم فقط. وراحتِ الحربُ في شوارع بيروت تزداد ناراً ودماءً. ولن ينسى حارث النَجّار طالما هو حيّ.. كيف اقتحَمَ البيتَ مقاتلون من حزبِ الكتائِب وخطفوا والدتَهُ لوسين. ويذكرُ حارث اسمَ واحدِهم جيِّداً، سهيل الكفوني. كان الذّبحُ على الهويَّةِ منتشراً في تلك الأيّام القاسية من عام ١٩٧٦. والحقيقةُ الغريبَة أنَّ الخوفَ الطفوليَّ أثناءَها كان ثلجاً على نارِ الحقدِ على خاطفي الأمّ، وربَّما قاتليها أيضاً! كان الجيران قد خبّأوا الأولادَ الثلاثة حارث وميشال وهويدا عندهم في الملجأ، وأنقذوا حياتَهم في ذلك اليوم المشؤوم منَ المقتَلة. واختفتِ الأمُّ كسِحرِ ساحر! وبهذه تمَّ نصيبُ الأولادِ من الحياةِ معَ أبٍ وأمّ. وأمّا الوالدُ الثاني كيفورك فانشَقَّتِ الأرضُ وابتلعَتهُ هو الآخر. فاعتنَتْ بالأولاد الرّاهبة أولغا سارَه التي كانت صديقةً للوسين قبلَ اختِفائِها. وأدخلتِ الرّاهبةُ هويدا إلى دير (الرّاعي الصّالح) في بلّونة. وأمّا حارث وميشال فقد وَضَعتهُما في إصلاحيَّةِ الأحداث، وعاشَ حارث أبو غَبْرَه هناكَ سَنتَين منَ الزَّمان.

كانت حياةُ حارث في إصلاحيَّة الصِّبيان من أجمل أيّام حياته. بالحريّ هي شهرُ عسل عمره كلِّه. هي السَّماءُ السّابعَة التي هبَطَ منها معَ الملائكةِ السّاقطين إلى جَحيمِ منفاهُ الأسود. التّرفيهات والمخيّمات والنُّزهات والبَحر والثلج والأنهار والحدائِق، والرِّحلات إلى الأرز وبحبّوش وكسبا وبعلبك ودير عين ورقا ودير عنّايا وسدّ القرعون. ويذكرُ جيّداً الصّبيَّ طوني عشقوتي.. الذي كان معه في تِلك الإصلاحيَّة، هو الآخر، ويا لسخرية القدر! إنّه الآنَ موقوفٌ أيضاً معه في السِّجن. ويذكر حارث أيضاً الأستاذ بيار الدِّيك الذي أنقذه من الغرَق ذات يوم، في ملتقى النّهرين في الشّويفات. ومن الأشياءِ الجميلة في فردوسِ طفولته المفقود

والتي لن ينساها أبداً.. الشَّجرَةُ العملاقة في بجبّوش.. تلكَ الشّجرة كانت تستوعب داخل جذعِها الضَّخم خمسين ولداً! كانَ الأولادُ يمضونَ السّاعات داخل هذا الجذع الفسيح. وكانت هويدا تأتي من الدّير مرّةً كلَّ شهرين، لزيارةِ أخويها حارث وميشال في الإصلاحيّة. وكانتْ بطاقاتُ هُويَّةِ الثّلاثة السُّوريّة وأوراقُ المعموديَّة بحوزتِها في الدَّير.

في نهايةِ السَّنَتين.. هرَبَ حارث من إصلاحيَّةِ الصّبيان هو وجوهان حدّاد! ولجوهان هذا أهلٌ وعائلة طيّبة.. ولسبَبِ شقاوتِه الجامحَة وضعَه والداه في الإصلاحيّة. ومنذ هروب حارث وأبو غَبرَه العتيد من الإصلاحيّة، بدأت رحلةُ متاهاتِه في هذا العالم. كانَ يَبيتُ حيناً عند صديقِهِ جوهان، وأحياناً عند أصدقاءِ أمِّهِ في النَّبعَه، عند أمّ حَنَّا الفلسطينيَّة وأبو غازي الكرديّ وغيرهما. جوهان حدّاد كان سرّاقاً أوفرَ خبرةً ومهارةً من حارث، وهو أكبر منه بسَنتين. كانتِ الثّمانينات على وشك أن تبدأ، فراحَ الصَّديقانِ يقومانِ بعمليَّاتِ سرقةٍ بسيطةٍ على مستوى الـمُراهقة الزّاغبَة. عفريت سيّارة من هنا، بطّاريَّة من هناك، محفظة نقود أو جزدان سيّدة من هنالك، حلوى وخضار وكعك وجرائد من "الـمُبَسّطين" على أرصفةِ الشّوارع، عدَّة وزوّادة العمّال والـمُعلِّمين في ورَشِ البناء...إلخ. ثمَّ عادَ والتقى حارث أبو غبرَه بصديقِهِ جوهان هذا بعد ثلاثينَ عاماً في السِّجن!! واقتربَ جوهان من حارث وسألَه:

"ألستَ أنتَ حارث النَجّار؟!" فأنكرَ حارث بنبرَةٍ حادّة:

"لا أعرفُ حارث النَجّار يا هذا، ولم اسمَعْ بِهِ قطّ".

ومن مآثِرِ تِلكَ المواسِم منَ الـمُراهَقة، مغامرَةٌ طريفةٌ لا تمحوها السُّنون مِنْ

ذاكرَتِه، وهي ابتزازُ الفاتنَة دلال. وعمليّةُ الابتزاز هذِه كانت صدفةً، لأنَّ الدّافعَ الأساسيَّ وراءَها هو الغريزةُ الجنسيَّة وتطوَّرَت ارتجاليّاً لتصيرَ ابتزازاً. ودلال هذِه صبيَّةٌ جميلة تُدَرِّسُ في الصُّفوف الابتِدائيَّة، وكانت تواعِدُ شابّاً ثلاثينيّاً يَعملُ مُصوِّراً فوتوغرافيّاً. وأمّا النّاسُ والمُراقبون فانقسموا، في تِلكَ المحلَّة المُكتظَّة، إزاءَ هذه العلاقةِ المشبُوهَة! بعضٌ يقول يُحبُّها وسَيتزوَّجُها، والبَعضُ الآخرُ يقولُ أنَّه يَعبثُ بها. بيدَ أنَّ ذكورَةَ حارث كانت مُستنفرَةً بقوَّةٍ نحوَ سِحرِ جغرافيَّةِ قامةِ دلال، فراحَ الفتى الشَقيُّ يُراقبُها أنَّى ذَهبَت.. وخصوصاً مع الشَابّ المُصوِّر الفوتوغرافيّ، ليكتشِفَ، وفي مُدَّةٍ وَجيزَة، أنّهما يُمارسان "ثلاثةَ أرباعِ الجِنس" في غابةِ صُنوبَر بعيدَةٍ في الجَبَل. وكانَ يَلحَقُ بهما بسيَّارةِ الأجرَة، وحدث هذا غيرَ مَرَّة. وفي المرَّةِ الأخيرَة، وكانَ الوقتُ عصراً، لا يدري كيفَ اقترَبَ بحَذَرٍ من سيّارَةِ الفوتوغرافيّ الشَابّ، وكانا يُمارسان الجنسَ في البَرِيَّةِ بعيداً عن السيَّارة، فحاولَ فتحَ صندوقِها ولم يكن مقفلاً، وغايتُهُ ربَّما مُحاولةُ سَرقةِ مُحتوياتِ الصُّندوق.. فوجَدَ الكاميرا بينَ أغراضِ هذا المُصوِّر. ولكنَّه فجأةً عَنَّت له فكرَة! وهذِه رَبَّةُ الوَحيِ الشَّيطانِيّ في بدايةِ مسيرَتِها معَ هذا المُغامِر العنيد. فألفى نفسَه يُمسِكُ بالكاميرا ويَدنو ببُطءٍ منَ العاشِقين الدَّاهِمَين ويندَسُّ بينَ الأعشابِ ويُحاولُ تشغيل الكاميرا. ثمَّ راحَ يلتقِطُ لهما ما لا يقلُّ عن عشر صُوَر. ثمَّ أخرجَ الفيلمَ منَ الكاميرا وأعادَها إلى مكانِها في صندوقِ السيَّارة، ورَحَل. وبعدَ أيّامٍ حَيَّا دَلال عندَ مدخلِ البنايةِ وقالَ لها:

"عندي هديَّةٌ على ذوقِكِ يا حُلوَه يا أمُّورَه"، فسألَتْ بدَهشَة:

"وما هي هذِه الهَديَّة يا شَطُّور؟"، فأجابَ بزَهو:

"نلتقي إذاً في غابَةِ الصُّنوبَر غابَةِ الغرام والهُيام يومَ الأحَد عَصراً".

فأصيبَتِ الصَبيَّةُ بالذُّعر وراحت ترتجفُ كورقةِ الخريف، ولم تنبُسْ ببنتِ شَفَة.

وعندما التقَيَا في غابةِ الصَّنَوبَرِ وأراها الصوَّرَ الفاضِحَة، قال لها:

"إعمَلي لي مثلَ ما عَمِلتِ لهذا الـمُصَوِّر.. فأعطيَكِ الفيلم!"، وقبلَتِ المسكينةُ بعَرضِهِ. ولمْ يُعطِها الفيلم إلاّ بعدَ أن أخذَ أيضاً منها مِئتَي ليرَةٍ بضَهرِ البَيْعَة، وأيّامَ كانتِ اللّيرَةُ لها قيمَة. وإذا كانتِ الـمُراهقة هكذا!! فأيّ جِنٍّ مُخيفٍ قابعٍ في جثّةِ هذا البشَريِّ الذي يُدعى حارث مِلحِم النَجّار؟!

وذاتَ يوم، جمَعَ حارث ثلّةً من الـمُراهقينَ مُجايليه، من سائِقي الدَرّاجات الهوائيّة، وأقنعَهم برحلةٍ على الطريق السّاحلي إلى الشّمال حتى نهر إبراهيم. وهكذا كان، وانطلقوا إلى نهر إبراهيم مثلَ عصابةٍ من الدَرّاجين الأشقياء. وهناكَ سرعان ما اشتهى الـمُراهقون الماءَ، فركنوا دَرّاجاتِهم ونزلوا إلى النّهر. ولكنّ حارث.. وبمَهارةِ خبير تسلّلَ كأنّه شبَح! فشَكَلَ دواليبَ درّاجاتِهم بحبلٍ طويلٍ أحضرَه معه لهذه الغاية، وربطَ الحَبلَ بالشَّجَرة. ثمّ سرقَ مِحفظاتِهم جميعاً وهم يستحمّون في النّهر، ولاذَ بالفرار. كانت مُغامرَةً مثمرَة يومَها.. وخلاّقة! ويشرَحُ هنا أبو غَبْرَه أنّ دوافعَه كانت هي الصِّراع لأجلِ البقاء. يتيمٌ شُجاعٌ هاربٌ من الإصلاحيَّة، متدرِّبٌ على يدَي خبيرٍ حرفةَ السّرقة، التي لم يهوَ سواها لتأمينِ لقمة العيش. وكان يُدركُ تماماً في قلبِهِ أنّه يعملُ شيئاً رديئاً. وهذا الوشمُ على فخذِهِ كانَ ضميرَه الذي كانَ يُقلقُه من حينٍ لآخر.. حتى نسيَه بالكامل في نهايةِ المطاف. لقد استخدمَ "ذكاءَهُ المريضَ" هكذا.. لكي يبقى على قيدِ الحياة. ولسُخرية الأقدار أيضاً.. أنَّ منزلَ حارث الحاليّ يقعُ قريباً جدّاً من مكانِ عمليَّتِهِ الكبيرة هذه في بدايةِ حياتِه "المِهَنيَّة".

كانَ في الخامسَة عشرَةَ حين أوقفهُ عساكرُ الشّرطةِ في مدينة طرابلس.

وُضِعَ في سِجن ''القبّه'' في طرابلس لسنةٍ وثلاثةِ أشهر. وأمضى مَحكوميَّتَه هناكَ ولا يدري ما هي التُّهمَة بالتّحديد ومن هو المُدَّعي عليه حتى! كان السِّجنُ صغيراً في ''القبّه'' آنذاك، مُظلماً موحشاً، ونزلاؤه أيضاً كانوا قليلين. وكانَ حارث صبيّاً مُراهِقاً، لا يسكنُ ذاتَه أيُّ وَعيٍ بالدَّرَكةِ التي هو غائِصٌ فيها، ومشاعرُ الخوف كانت رفيقتَه كظلّه، ودليلَه الوحيد عندَ مفارق الحياة ومنعطفاتِها. كانَ خائِفاً منَ المجهول.. خائِفاً من ذاتِه، من جنونِه.. خائِفاً من الغد وغدَراتِه الخبيثة، خائفاً من الصّالحينَ والأشرار في آنٍ معاً. وسَجْنتُه الأولى هذه في ''القبّه'' إن هي إلاّ طيفٌ من كوابيس المُراهقة الشقيَّة. وما بقيَ من مشاهدِ هذه المُراهقةِ الأسيرة في ''القبّه''.. زيارَاتُ الرَّاهبة أولغا سارَه القليلة، ومعها أختُه في مَرَّتَين لا أكثر.. كما يذكر. لقد جاءَت إليه من الدَّير، ولم يسألها كيف عرفتْ مكانَه! وكأنَّ قلبَها أنبَأها بانحرافاتِ أخيها المُتفاقمَة. وربَّما فتَّشَتْ عنه في كلِّ سجونِ البلَد!! في المرَّةِ الأولى.. أخذت تبكي عندَما رأتِ البؤسَ مَلاءَةً وسِخةً تُغطِّي قامته النّحيلة، وهو يتحدّثُ إليها من وراءِ شبَكِ البابِ الحَديديّ بعنادٍ وقساوة. قالت له وهي تشرُقُ بدموعِها أنّها تصلِّي كثيراً لأجلِه. أختُه هويدا إنسانةٌ رقيقةٌ ذات جَمالٍ ملائِكيّ، وقَفتْ ضعيفةً عاجزة إزاءَ جَبَروتِ روحِ الشَّرِّ الذي تقمَّصَ جثَّتَه الثائِرَة المتنمِّرَة. سألها عن أخيهِ ميشال، وأكدَتْ له أنّه لا يزال في الإصلاحيَّة. وأخبَرَتْهُ أيضاً أنَّ أوراقهم الثبوتيَّةَ السُّوريَّةَ وبطاقاتُ الهويَّة وشهاداتُ المعموديَّة ضاعت كلُّها في الدَّير إثرَ عمليَّةِ سرقةٍ غامضة منذ أشهر! وهذه الأوراقُ هي حبلُ السُرَّةِ الذي يربطُ الأولادَ الثَّلاثة بالوجود.

وتعرَّفَ أبو غَبْرَه في سِجن ''القبّه'' على سجينٍ يُدعى سايد البَيسَري، أكبر منه بعشر سنوات. ولم يعرف سببَ دخول سايد السّجن يومَها. ولكنَّ سايد هذا أحَبَّ أبو غَبْرَه كثيراً، وكان رجُلاً قويّاً ذا بأسٍ وهَيبَة. كانَ أبو غَبْرَه يخافُه في السِّجن، ولكنّه الوحيد بينَ السُّجَناء الذي تقرَّبَ

منه وعطفَ عليه. لقد رتَّبَتِ الأقدارُ لِحارث أن يلتقيَ بالأقوياء الأشرار الذين أقاموا له اللاّفتات عندَ مفارقِ حَياتِه وخياراتِه، وحفَّزوا جنوحَه إلى مزيدٍ منَ الجنوح. وأمّا الخيِّرون الصَّالحون فرأى حارث فيهم ضعفاً خائباً عاجزاً عن مساعدتِهِ.. وفي كلِّ مكان! فاضطرمَ الوعيُ في ذاتِهِ بضرورَةِ امتلاكِ القوَّةِ في الحياة، وتنامى كنموِّ الجنين في الأحشاء. وفي سِجن "القبّه" ثابرَ أبو غَبْرَه على تعلُّمِ مبادِئِ القراءَةِ والكتابة من بعض المساجين الإسلاميّين. ومعَ كونه مسيحيّاً فقد أحبَّ اللُّغةَ العربيَّةَ كثيراً، وحفِظَ فصولاً من القرآن، وكانَ يقرأ في الإنجيل والتوراةِ أيضاً. وأحبَّ كذلكَ كتبَ التاريخ والجُغرافيا في مكتبة السِّجن، فعَشِقَ حِفظَ المادَّةِ الجُغرافيَّةِ كالخَرائِط وأعدادِ سكَّانِ البلدانِ والمساحات والعواصم والبُحيرات والأنهار وأرقامِها..إلخ. وذاتَ يوم أُخلِيَ سبيلُه.. هكذا فجأة! ولا يدري كيف ولماذا!! لا يَدري ما هو سببُ سَجنِهِ بالتَّحديد.. ولا سبَبَ حُريَّتِه. همسَ له ظَنُّه أنَّ ذوي رُفقائِهِ الدَرَّاجين الذين سلبَهم في نهر إبراهيم، هم الذين رفعوا الدَّعوى ضدّه.

وخرَجَ أبو غَبْرَه من السِّجنِ وليسَ له غيرُ بيتِ الرَّجُل سايد البَيسَري الذي يبعدُ عن سِجنِ "القبّه" مسافةَ مئتي متر. فجاءَ إليه، وكانَ يَبيتُ عندَه معَ زوجتِهِ وأولاده، وقبلَ أن يخرُجَ سايد من السِّجن بعدَ أشهرٍ قليلة. أحبَّته زَوجةُ سايد وداعبتْهُ. ربّما لأنَّ سايد رجُلٌ قاسٍ يُعنِّفُها كثيراً ويضربُ الأولاد، وأحياناً أمامَ حارث، فكان حارث "منطقةً آمنة" في البيت وواحة عزاء للزّوجة. ومدَّ سايد يدَ المُساعدة لحارث. بيدَ أنَّ نصيبَ حارث في الدُّنيا.. طريقٌ واحِدٌ ليس له أن يسلُكَ غيرَه. فعلى بُعدِ عشراتِ الأمتار من بيت سايد كان هناك وَكرٌ مُخيفٌ لعصابةِ الفرسان الحمر: عبد الكريم الصيَّادي، أبو عبدو ورجالُه.. إخوَةٌ وأولاد وأعمام وأخوال وأولادُ

الأعمام والأخوال.. عشراتٌ من الرِّجال ذوي بأس.. محمود الحنطور، شوقي خضر، أبو عربي، وكثيرون من مشاهير الزُّعَماء في "السُّوقِ السَّوداءِ" الذين يقودُ واحدُهم مِئتَي رَجُل. وقدَّمَ جميع هؤلاء لأبو غَبْرَه "المساعَدَة"، ورحَّبوا به في دُورِهم وصفوفِهِم. وكانَ هؤلاءِ مدرسَةَ أبو غَبْرَه الحقيقيَّة لما سيكونُه فيما بعد. فتعلّمَ على هذه العصابة استخدامَ السِّلاح للمَرَّةِ الأولى، وشاركَ أيضاً في القتالِ على جبهَاتِ القبّه التبَّانة جَبَل مُحسن أبي سمرا المِنكوبين البَدَّاوي[1].. التي كانت جَحِيمَ طرابلس في مطلع ثمانينات القرنِ الماضي. كانَ الفتى المُراهقُ يَحملُ سلاحاً أثقلَ منه، ويُحاربُ في الشَّوارع والأزقَّةِ عدوّاً واحداً.. هو غولُ جُهنَّم الذي يطاردُه ليخطفَه إلى ضَجيجِ عالمِه السُّفليّ الأثيم.

وكانتِ اللَّيالي طويلةً جدّاً ومُرعبة. كان الجرحى والقتلى يسقطون من حولِه كالذُّباب. كانَ يشربُ الرُّعبَ معَ شايِ الصّباحِ وقهوةِ المساء. وكانَ يُطلقُ النّارَ ويُقاتل لأنَّه خائِف.. وخائِف فقط! والحقيقة الخطيرَة أنَّ الخوفَ بقيَ، ودائماً أبداً، سلاحَه الوحيد في معركتِهِ الكبرى مع الحياة. وعندما تعرَّفَ على محاربين مسيحيّين فيما بعد، أدركَ كم هو المُحاربُ المُسلم شَرسٌ وذو إقدامٍ هَمَجيٍّ في القتال.. وأنَّ العقيدةَ القرآنيَّة مضخَّةُ شَجاعاتٍ وبأس في قلوب المُحاربين. ولكنَّ تناولَ الرُّوبينول أيضاً مُخدِّرٌ جيِّدٌ لجُبْنِ الإنسان في المعركة، وَكذلكَ شَمَّ رائِحَةِ التِنر الذي يُحوّل المَرْءَ إلى وَحشٍ ضارٍ لا عقلَ له. لقد تعرَّفَ على مقاتلين فلسطينيّين أيضاً، وتوَسَّعَت دائِرَة معارفِهِ بَينَ مَشاهير المُحَاربين، فعلّموه بدَورهِم تجارَةَ وتهريبَ السِّلاح، وراحَ يبيعُ مسدَّساً من هنا، وبندقيَّة من هناك، وذخيرةً وقنابل، وباتَ خبيراً في تجارَةِ السّلاح الرّائِجَة جدّاً في طرابلس آنذاك وشماليّ لبنان.

---

[1] - أحياء وشوارع في مدينة طرابلس.

وراحتِ الحربُ في طرابلس تزداد عنفاً وقساوة، فتركَ سايد البَيسَري بيتَه في "القبّه"، وكانَ في قلبِ المعارك، إلى بلدتِهِ مزيارَه. واستشعَرَ أبو غَبْرَه أيضاً الخَطرَ الدّاهِم على حَيَاتِهِ إن هو بقِيَ في دوّامةِ الحُرُوبِ العبَثيَّةِ في شوارعِ المدينة. ولكنَّه أصبَحَ مقاتلاً شرساً شُجاعاً مَشهوداً له! ولا يعرفُ تاريخَ ولادة اللّقب (أبو غَبْرَه) بالضّبط، ولكنَّه حتماً أبصَرَ النُّورَ في معاركِ شوارعِ تلكَ المدينة البائِسَة. ويعتقدُ حارث أنَّ مظهرَه المُرتَّب وكياستَه هما "عِلَّةُ" هذا اللَّقب، حيث أنَّ رُفقاءَه المقاتلين كانوا ذوي مَظهرٍ عَبَثِيٍّ متَّسِخ. ذاتَ ليلةٍ.. كانَ على سطح أحد المباني يُطلقُ قذيفةَ (ب سفن) من قطعةِ سلاحٍ جديدةٍ أخرَجَها من علبتِها، فطرطشَ شَحْمُ القِطعةِ بذَّتَه النَّظيفة، وظَنَّ في الظلمةِ الدّامسة أنّه أصيبَ إصابةً خطيرة، وخافَ كثيراً! فعزَمَ ساعتئذٍ أن يَخرُجَ من وَحلةِ المعركة إلى غير رجعة. وأقربُ نقطةٍ متاحَة له يُمكنُ اللُّجوءُ إليها، كانت بيتَ المَرَدة القريب من طرابلس لجهةِ "القبّه". ومن بيتِ المَرَدَه صعوداً إلى الجبال كانتِ السَّيطرةُ لحِزبِ المَرَدَة بالكامل، وهناكَ يكونُ بمنأىً عن دوّامةِ الجَحيم الطَرَابلسيّ.

ما كان يُحفّزُ أبو غَبْرَه دائماً لفعلِ الشُّرور آنذاك هو الهرُوبُ من شَرٍّ سابق! شيءٌ أقوى منه كانَ يُحاصرُه ويسوقُ حياته إلى حتميّاتٍ لا مفرَّ منها. كانت وساخاتُه فاكوناتِ قطارٍ تتدافعُ إلى الأمام بسرعةٍ مُخيفة، أو حجارةَ الدّومينو المنتصبة واحدةً بجانبِ الأخرى.. فما إن سَقطتِ الأولى حتى تهاوَت أخواتُها وراءَها. في معاركِ المدينة كانَ قد تعرَّفَ أبو غَبْرَه على بعضٍ من شبابِ المَرَدة كانوا يُقاتلون كحُلفاء. فسارَ بهِ واحِدُهُم ذاتَ يوم إلى قائِدِ الجَبْهَةِ وعرَّفه بغنطوس المصري. كانَت أيّامَ ميليشياتِ الحَرب، وكانت كلُّ الأطرافِ المتصارعة تبحثُ عن مقاتلٍ شُجاع قويٍّ ينضَمُّ إلى صفوفِها. ألفى أبو غَبْرَه نفسَه أقربَ إلى بيئَتِهِ المسيحيَّة في

المَرَدة منها إلى المقاتلين المُسلمين في جَبَل مُحسن والتبّانة. شبابُ المَرَدة مُرتَّبون ذوو مظهر لائِقٍ جميلِ الهندام، وبذّاتُهم القتاليَّة نظيفة ومكويَّة.. كأنَّهم لا يقاتلون على جبَهات! كان الزّمنُ يشبهُ عصرَ الفروسيَّةِ في القرونِ الوسطى في الشّارع اللُّبنانيّ، وزعرانُ الشّارع كانوا نجوماً، ومشاهيرَ الأحياءِ والسّاحات. وكانتِ البَذَّةُ الحِزبيَّة موضةً للاستعراض والمُفاخرَة. في البيئَةِ الإسلاميَّة، ومع تأقلمِهِ السَّهل معَ الشَّخصيَّةِ المُسلِمة، كانَ لا يزالُ يشعرُ بغربةٍ وتشرُّد. وكم ساءَلَ نفسَه كيفَ أنّه تقبَّلَ نَمَطَ الحياة هذا، وأنواعَ المآكل والملابس في المدينة. وفاتَه أنَّ الخوفَ الفضوليَّ الثَّقيل في الشَّوارع اللاّهبَة أفقدَه الانتِباهَ إلى الكثير منَ التفاصيل والشّكليّات. وفي البيئَةِ المسيحيَّة شعرَ بأنّه سبعينَ بالمئَة في مكانِهِ الصَّحيح، وأمّا الثلاثين بالمئَة الباقيَة فهي من حِصَّةِ هويَّتِهِ السُّوريَّةِ الضّائِعة.

في المرَدة كانَ أبو غَبْرَه ينمو وينضج، وكانَ في أوج مُراهقتِه الجامحة، ثمانيَ عشرَةَ سنة. وبدأ ضَبعُ الهُويَّة والجنسِيَّة الضّائِعة يُكشِّرُ عن أنيابه. فهو إلى الآن لا يملكُ أوراقاً ثبوتيَّة! السُّوريُّون كانوا على صداقةٍ معَ المَرَدَة آنذاك.. واحتمالُ اعتقالِه وتسليمِه لهم لأخذِه إلى الجُنديَّةِ في سوريا، واردٌ ووَشيك. كانت خدمتُهُ في معظم الأحيان على حاجزٍ في زغرتا، وكانَ قد أصبَحَ معروفاً كمُقاتلٍ قويٍّ شرسِ الطِّباع لا يُطيقُ مزاحاً.. وما حدا بي غبّر عا أبو غبْرَه! وكانوا يُعطونه في حزبِ المرَدة مئةَ ليرةٍ آنذاك كراتبٍ شَهريّ. وَذات يوم، "كان عم بي جَكِّل"[٢] على صبيَّةٍ حسناء في زغرتا تُدعى غادة، مُتباهياً أمامَها بمُسدَّسِه الذي غرزَه في زنّارِ خاصرتِه الأخضر السّميك، و"لطَّشَ"[٣] عليها فشتَمَتهُ..! فأطلقَ النّارَ باتِّجاهِها ولاذَ بالفرار. طاردوه وكمنوا له. وبعد ساعةٍ واحدَة من الحادثة ألقوا القبضَ عليه في

٢- يُبرزُ عنتريّاته.

٣- غازلها بتلميحاتٍ جنسيَّة.

أحدِ أزقَّةِ "القبّه"، وجاؤوا به ورَمَوه في سِجنِ المَرَدة في بلدةِ بْنِشعي. وبقيَ أبو غبْرَه في السِّجن زُهاءَ شَهرين. ولكنّه في نهايةِ المطاف صمَّمَ على الهُروب، من خوفِهِ أن يعرفَ به السُّوريّون، فيأتوا لأخذِه إلى الخدمةِ العسكريّة. فأوحَتْ إليه ربَّةُ المكر خُطّةً بسيطةً بشَكلِها وعظيمةً بدَهائِها! فجَرَحَ إبهامَه، وراحَ يمصُّ ويشربُ الدَّمَ من إصبعِه حتى امتلأَ فمُه بالدِّماء. ثمَّ شرعَ يضربُ البابَ بقبضَتيه الفولاذِيَّتين ويُخرجُ صراخاً مُرعباً، ففتحوا له البابَ أخيراً ورأوا الدَّمَ في فمِه وعلى وجهِه. فحملوه إلى مُستشفى سيِّدَة زغرتا، ليكتشفوا هناكَ الخديعة! فأعادوه بسيَّارةِ جيب رانج روفر التابع للمَرَدَة. وكانَ المطرُ غزيراً في أواخر أيّامِ الشِّتاء، وتوقّفتِ السيّارة عندَ حاجزٍ على طريقِ بْنِشعي. كان هناكَ رجلٌ عن يمينِه وآخر عن يساره داخلَ الرّانج، والرَّجُلُ الذي كان جالساً قبالةَ أبو غبْرَه فتحَ البابَ الخلفيَّ وقفزَ خارجَ السيَّارة، فوثبَ أبو غبْرَه وراءَه إرتجاليّاً قبلَ أن يُفكِّرَ بشَيء! وراحَ يَعدو في الجِلال والوهادِ تحتَ المطَر كالثَّورِ الهائِج.. كان هذا مفاجئاً للجميع! فأطلقوا النّارَ عليه فوقَ رأسه وعلى جانبَيه وحَواليه.. وحاولوا اللّحاقَ بهِ فشعروا بأنَّهُم يركضون وراءَ فلاش مان! ولو طارَدَتْهُ النُّمورُ في تلكَ السّاعةِ لما استطاعت أن تُدركَه. فتمكَّنَ بسُرعتِه الخارقة من النَّجَاةِ بريشِه. ثمَّ راحَ يمشي في البرّيَّةِ، سَهلاً وتلاًّ، جَبَلاً ووادياً، ليومين ماطرين بغزارَة.. وغاصت قدماهُ في الوحول وأخذتا تنزفان.. إلى أن انتهى به المطاف عند صديقِه سايد البَيسَري في بلدةِ مِزيارَه. فاستقبله الصَّديقُ القديم بحفاوةٍ وضمَّدَ له جروحَه. وبقيَ عنده شَهراً من الزَّمَان، وتودَّدَت إليهِ أيضاً هناك زَوجَةُ سايد، ولكنَّه أبى أن يُضاجعَها، مع أنَّ مَرّتَهُ الأولى في ممارسة الجنس معَ إحدى غانياتِ طرابلس المُثيرات، كانت على يد سايد هو الآخر! وعلمَ أبو غبْرَه فيما بعد أنَّ زوجةَ سايد هجرَته وهرَبَت إلى مكانٍ مجهول، والأولاد في كلِّ وادٍ عصا.

أقنعَه صديقُه سايد يومَها أن يَذهبَ إلى سليمان بك ويشرَحَ له الموضوع بصراحَة. وكان سليمان بك ابنَ طوني بك فرنجيّة في بدايةِ انطلاقتِه في ميادين السِّيَاسة. وهكذا صار. وضعَ أبو غبْرَه خطَّتَه وكمَنَ لموكبِ سليمان بك على طريق بْنِشعي. وكان الموكبُ مؤلّفاً من ثلاثِ سيّارات، اثنتَين سوداوين خلفيَّة وأماميَّة وأمّا الوسطى فرَمَاديَّة، تلكَ التي سرَقَها من سليمان بك فيما بعد. نزَعَ عنه قميصَه الأبيَض، ووَقفَ في الطريقِ قاطِعاً مسيرَةَ الموكب، ثمَّ رَفعَ قميصَه بيَدَيه الاثنتَين في الهَوَاء، فتوقّفَ الموكبُ عندئذٍ وخرجَ الرِّجالُ شاهرين أسلحتَهُم، وبحَذرٍ شديد، خوفاً من محاولةِ اغتيال.. أو ما شابه! وراحوا يَرشقونَ أبو غبْرَه بالسُّبابِ والشتائِم:

"مَن أنتَ يا ابنَ القحبَة.. ماذا تظنُّ نفسَكَ فاعلاً يا هذا .. إبتعِد عنِ الطّريق!!" وأمسكوه كأنَّه عبوة ناسفة تحتاج لعمليَّة تفكيك. ثمَّ خرَجَ سليمان بك من السيَّارَة الرَّمَاديّة بعد دقائِق، واقترَبَ منه وسأله:

"من أنت، وماذا تريد؟"

فراحَ أبو غبْرَه يَشرحُ له حكايتَه الكازانوفيَّة معَ حسنائِه غادَة باختصار. فضحِكَ سُليمان بك ملءَ فمِه، وربَّتَ على كتفِه وقال:

"أنتَ قبضاي وشُجاع.. وأنا أحتاجُ لرَجُل بَطلٍ مثلك"

ومن تِلكَ اللَّحظةِ أصبحَ حارث مِلحِم النَجَّار أبو غَبْرَه عضواً في القوَّةِ الضَّاربةِ التَّابعة لحِزبِ المَرَدَة المُسمَّاة ٣/٤٠٠.



إسقاط أوّل

كلُّ إنسان يَحتاجُ إلى القليل منَ الجُنون..

وإلا لن يَجرُؤَ أبداً على قطع الحَبل ليصيرَ حرّاً.

نيكوس كازانتزاكيس

إنَّ الظُّلمَ يَجعلُ من المظلوم بَطلاً..

وأمّا الجريمة، فلا بدَّ من أن يرتجفَ قلبُ صاحبها،

مهما حاولَ التَّظاهر بالكبرياء.

عمر المختار

فصلٌ آخرُ منَ الفصولِ التي دوَّنَها حمداش الجابري، صديق حارث ملحم النَجّار حامل اللّقب الشّهير ''أبو غَبْرَه''. فالاسم حمداش الجابري مذكورٌ مرَّة واحدَة في نهاية الاعترافاتِ الجريئة على هذه الصّورة: (مذكّراتي كما كتبَها لي صديقي وأخي الإنسان حمداش الجابري). ولقد أجرى المحامي عصفور الشِّيباني بحثاً مضنياً عن المدعو حمداش الجابري.. ولم تفضِ مجهوداتُه إلى شيء.. وشَعَرَ كأنَّه يبحث عن شبَح! وإذا كانَ أبو غَبْرَه نفسُه شبَحاً فكيف بأخيهِ وصديق روحِه؟ ولكثرة التقمُّصات والتَّجلّيات

لشخصيَّةِ حارث ملحم النَجّار، خامر المحامي عصفور شكٌّ في أن تكونِ شخصيَّة حمداش الجابري أيضاً تجسُّداً وروحاً أخرى لأبو غَبْرَه! وبذلكَ تُضافُ عطفةٌ أخرى إلى متاهةِ أبو غَبْرَه السندباديَّة. وبينَ الأوراق القانونيَّة والمذكّراتِ الجَريئَة والمنقوصة.. كانت حيرة المُحامي عصفور ترفعُ القبَّعَة لذكاءٍ نادرٍ تقاطعَتْ فيه، لسوءِ حظِّ أبو غَبْرَه، طفولة مشوَّهة مع بيئَةٍ مشوَّهة مع ظرفٍ وزمانٍ مشوَّهين.. فخرَجَتِ الشَّخصيَّة من تحت ريشَةِ التشوُّهات المُتقاطعة كاريكاتوريَّةً ممسوخة.

في أواخر الثَّمانينات وفي أوجِ شبابِه، كانَ لا يزال أبو غَبْرَه عُضواً في القوَّةِ الضّاربة التّابعة لحزبِ المَرَدَة، المسمّاة.٣/٤٠٠ ومرَّتِ السَّنوات وأصبَحَت غادَة، الفتاةُ الحَسناء الأولى التي أحبَّها في زغرتا، صبيَّةً ناضجةً برسم الزَّواج. وبعدَ تلكَ الحادثة التي أطلقَ فيها النّارَ صوبَها وحَسبتْهُ مجنوناً، تصالحا وصَفا الودُّ بينهما من جديد. بل وبدأت تميل إليه مرتاحةً لظرفِهِ وقوَّتِهِ وشَجاعتِه. وواقعُ الأمر أنَّ غادَة كانت مفتاحَه لدخولِ حزبِ المَرَدَة، وستكونُ بوَّابةَ الخروج منه أيضاً.. بل ومن شماليّ لبنان لفسحَةٍ كبيرَةٍ منَ الزَّمَن. كانا يتلاقيان كثيراً وأمام عيونِ الجميع، على آخر دروبِ زغرتا ويومَ الأحد بعدَ القدّاس، وفي أنديةِ وملاهي الشِّمال وطرابلس، وعلى شواطئ شكّا والقلمون في الصّيف، وفي الأرز صيفاً وشتاءً. هكذا كانت تضاريس جغرافيا هذا الغرام المريض والمُغامر. ولا يدري لماذا عنَّت له فكرة الزَّواج في ذلكَ الفصل الأخير من الحربِ الأهليَّة اللبنانيَّة، ربَّما لأنّه ظنَّ أنّ في نهاية الحربِ نهاية للمرحلة الشقيَّة من حياتِه أيضاً!! أبو غبرَه في دفتر شروط الزّواج لا زالَ ينقصُه الكثير. العنتريّاتُ والزَّعرنات "لا تُطعِمُ خبزاً"، لا وظيفة ولا مهنة ولا بَيت. ولكنَّ الحِزبَ لن يبخلَ في رَشِّ قمحِ البرَكة على زفافِ أحد أعضائِهِ الشُّجعان.. فكيفَ بالقوَّةِ الضَّاربَة؟! أمَّا في مقياسِ أبو غَبْرَه الشَّخصيّ فهو "قَدّا وقدود!" و"يأتي بها من

فمِ السَّبع''. لا يحتاجُ إلى شهادَةٍ ولا مهنة ولا حتى إلى مساعَدةِ الحِزب! ففيه يتجسَّدُ ثالوثٌ خطير: الذَّكاءُ والقوَّة والمُغامرَة. وفوقَ هذا كلِّهِ ''ما في فوق راسو إلاَّ ربّنا''. وصارحها بالفكرة ذاتَ يوم عصراً، على طريقِ الكنيسة:

''ما رأيُك أن نرتبطَ رسميّاً يا غادَة؟''

فذُعرتِ الفتاةُ من سؤال أبو غَبْرَه! وفي ظنِّها أنَّ شبابَ الميليشيات لا يفكِّرون في الزَّواج، ولا هم خليقين به أصلاً. فأجابت بسؤال:

''هل أنتَ جادّ يا حارث؟! هل حقّاً تريد الزّواج منّي؟''، وسألَها أيضاً:

''وهل هناكَ مُشكلة؟ ها نحنُ أصدقاء منذ سنوات.. يرتاحُ واحدُنا للآخر.. ونستمتع بوقتِنا جيّداً.. وحتَّى لو بَعَّدتنا الظُّرُوف والمشاكل.. نعودُ ونلتقي ثانيةً''

''هل تعرفُ ماذا تقول أمّي يا حارث؟''

''ماذا تقول؟'' سألَ أبو غبرَه وأجابت هي:

''شابٌّ سوريّ بلا أوراق ثبوتيّة، لا أصلَ له ولا فصل، لا ثقافة ولا مهنة ومُحازب، هذا ليسَ أهلاً للزّواج. وأنا أواجه ضغوطاً من أهلي لأنهيَ العلاقة بيننا''

فسألَ أبو غبرَه:

''أنت.. ألا تريدين أن تتزَوَّجي يا غادَة؟''

''بلى.. عندما يحضُرُ الرَّجُل المُناسب''

"ومن هو الرّجُل المناسبُ يا غاده؟"

فأجابتِ الفتاةُ مازجةً الجدَّ بالمزاح:

"الخاضع لمقاييس أمّي. هذه التي قلتُها لكَ الآن". ويبدو أنَّ كلمات غادة لمسَت رجولة أبو غبْرَه، فقالَ منفعلاً بعض الشّيء:

"إقبلي بي عريساً.. واطلبي لبَنَ العُصفور أحضِرْه لكِ.. لن يفهَمَكِ ولن يُسعِدَكِ سوى أبو غَبْرَه.. يلّي ما حدا بي غبِّر عا أبو غَبْرَه"

قالت غادَة بنبرةٍ جادَّة، فهي أرادَت من صداقتِها بحارث النَجّار سَكَرَاتٍ لملْءِ أقداحِ الضَّجَر، لا أكثر:

"هناكَ كثيراتٌ سواي يُردْنَ الزَّواج، فاخترْ لكَ واحدَة منهنَّ يا أخي"

"أنا أحبُّكِ أنتِ يا غادَة"

وهكذا مرّاتٍ عديدة، يُحاولُ معها حارث أبو غَبْرَه، وتجرحُه عميقاً مشاعرُ الخيبَة. وشخصيَّةٌ عُنفيَّة كأبو غبْرَة.. أيؤلمها ترَى صَدُّ الحبيب وهو الذي خبرَ الحياة بأبعادِها الأربعَة، ومراراتِها الأربعَة؟! وحكاية غرامه الخائِب هذا إن هي إلاّ لكَماتُ ولدٍ صغير في شوارع نيودلهي على بطنِ فيلٍ عابر. هذا إذا كانَ حقّاً أغرمَ بهذه الفتاة الحسناء. بيدَ أنَّ غادَة ذكيَّة كفاية لتفهمَ جيّداً أنَّ قارباً تسوقُهُ أمواجُ الحربِ الأهليَّة لا تُوافقه شخصيَّة ساعية إلى حبٍّ آمنٍ مستقرّ. هي لا تُنكِرُ انبهاراً أنثويّاً برجولةِ وطرافةِ أبو غبْرَه.. بيدَ أنّه سيبقى، دائماً، وبالنّسبةِ إليها، أداةَ استكشافٍ أو مرحلة تدريبيَّة، وربّما ترفيهيَّة، لأنوثةٍ جوّالةٍ لحين انبثاق العريس العتيد. وأبو غَبْرَه رَجُل عنيد لا يستسلمُ بسهولة، ولا يتراجع عندَ الأسوار والسّياجات، ولكنّه يمضي قدُماً إلى الدّاخل بشجاعَةٍ، حتى الرَّدهةِ وسطَ البلاط! لقدِ اشتمَّ بأنفِ

غريزتِه الحربيَّة رائِحَة عريسٍ من بعيد.. من خارج زغرتا.. ومن البترون بالتّحديد وذي خلفيَّةٍ حزبيَّةٍ قوّاتيَّة..! فاستَفزّتْهُ الخبَريَّة لخوضِ مُغامرَةٍ تشتريها شخصيتُّه العابثة المُغامرَة بأيّ ثمن، والتي ألِفَتِ الخوفَ حتى باتَ الخوفُ لعبتَها. وذاتَ مساءٍ صيفيّ كانَ أبو غبْرَه يشرب القهوة معَ غادة لوحدهما تحتَ عريشة بيتِها في زغرتا. صوتُ حشراتِ اللّيلِ اللّطيف يوقظُ إحساساً غريباً، وأشعَّة البَدر الفضِّيَّة تشبه النَّفناف فوقَ الأوراقِ والغصون، وعطرُ الزّهور في الأحواض حول البيت يَسحرُ الأنوف.. كلّ هذه تشكّلُ إطاراً رومنسيّاً لهذه اللّوحة الغراميَّة القلِقة، من لوحاتٍ كثيرةٍ غيرِها، بينَ غادةٍ حسناءَ ومُحاربٍ مجنون. سألها بعدَ حديث طويل في العموميّات، والذي في عينيه أفصحُ من كلماتِه بكثير:

"هذا الشابّ البترونيّ الظريف.. ما هو موضوعُه بالتَّحديد؟"

"أيّ شابّ؟ مَن تقصد؟" أجابتْ غادَة وهي تحاول إخفاءَ الحقيقة. فقال لها:

"أنا حارث النَجّار أبو غَبْرَه.. همَساتُ النُّسور وغراميَّاتُ أسماكِ البحر أسمعُها! أنا أعرف كلَّ شيء يا غادَة"

"إذا كنتَ تعني جهاد العَبس فهو ابنُ صديق لوالدي في البترون.. ويأتي لعند والدي فقط"

"يأتي لعندِكِ يا غادَة. أنا وأنتِ نتواعدُ منذ ثلاث سنوات.. لن أقبلَ بما يحدث.. سأوقفُه!"، وقالها بحزم.

"ستوقفُ ماذا؟! لا شيءَ ماشياً حتى توقفَه يا حارث. جهاد يأتي لعندِ أبي لأنَّ والدي صديق والده"، قالت غادَة بنبرَةٍ حادَّة، وهي تحاول كبحَ جَماح أبو غَبْرَه وامتِصَاصَ إلحَاحاتِه.

"سوف نرى يا غادَة.. سأسكتُ الآن". قالها وَنقرَ سيكارتَهُ في المِنفضة، ثمَّ وقفَ وهو ينظرُ في عينيها الذكيَّتين، وتابعَ بكلامٍ ذي حدَّين، إرهابيٍّ في وضوحِ غايته:

"ولو كنتما أمامَ الكاهن الذي يكلِّلُكما، سأطلقُ النّارَ عليكما في وسط الكنيسة! أنا أبو غبْرَه يا غادَه". وغمسَ سيكارتَه في قلبِ المنفضَة ورَحل.

وتعرفُ غادة جيِّداً أنَّ تهديدات حارث النَجّار فعَّالة. وهذا اللِّقاءُ بينهما كان الفسحةَ الفاصلة بين سِفرَين متناقضَين، فراحَت تعِدُّ خطّةَ الانفلات من شباكِهِ إلى غير رجعة. كلماتُه جديَّة وحازمة، والرَّجل له تاريخ ومآثر، ولذا فالخروج من عباءَتِه يحتاج لأنامل سحريَّة، دقيقة وحكيمة. واحتمالاتُ ردودِ الأفعال سهامٌ طائشَة في كلِّ اتّجاه. خصوصاً أنَّ العلاقات ليست في شهر عَسَلِها بينَ حِزبَي المَرَدَة والقوّاتِ اللّبنانيَّة! لن يكونَ فخراً لِزغرتا زواجُ صبيَّتِها الحسناء من شابٍّ قوّاتيّ من البترون. ووجود أبو غبْرَه في القضيَّة.. يجعل نشوبَ المعركة بين الحزبَين على قاب قوسين أو أدنى. غادَة تفكِّرُ بحيلةٍ للخلاص، ولكنَّ التفكيرَ عندَ أبو غَبْرَه كان أكثر عقلانيَّة وواقعيَّة مع كون الشّكل إرهابيّاً. من جهتِهِ هو راحَ يسعى لوسيطٍ من الوُجَهاءِ في بْنِشعِي وزغرتا، أو لأحدِ القادَة الحزبيّين في المرَدة. فظنَّ أنَّ وجيهاً في المنطقة، بكلام دبلوماسيّ مهذّب قادرٌ أن يُليّنَ عقليتَّها غير المرنة. وهو لن يستخدم ورقة القوَّة إلاّ بعد سقوط أوراق العقل والحكمة. والحقيقة أنَّ أبو غبْرَه كانَ عاقلاً فقط في علاقته مع غادَة.. وأمّا مع سوى غادَة فكانَ سريعَ البَطش لا يخشى كبيراً أو صغيراً. والجميع يعرف جيِّداً أنَّ غادَةَ زغرتا استطاعت بحذاقةِ الأنثى أن تروِّضَ هذا الثّور الهائِج. فقامَ ذاتَ مساء وجاءَ إلى منزل قائِدِ منطقة زغرتا العسكريَّة في تلك الأيّام زاهي يمِّين، وقال له:

"أحتاجُ لمساعدتِك ريّس زاهي، أريدُك أن ترطّبَ يبَاسَ جُمجُمةِ هذه الصَبيَّة العنيدَة، يبدو أنَّ هناكَ شابّاً من البترون على الخطّ، وتعرفُ أنتَ أنّنا على علاقةٍ منذ سنوات. ولن أقبل بهذا التَّحدّي أبداً". وأبدَى الريّس زاهي ترحيباً بهذه الخدمة البسيطة، يقدِّمُها لشابٍّ شُجاعٍ ينتمي للقوَّة الضّاربة ٤٠٠/٣.

وفي الجِهَةِ المقابلة، كانت غادَة تحثُّ حبيبَها السِرِّيَّ على الاستعجال في تعيين يوم زفافِهما، على أن يكونَ الزِّفاف "خَطيفة" وبسريَّة كاملة.. بعيداً عن العينِ واللسان. فقالت لجهاد العبس ذاتَ مَساء:

"أنت قوّات يا جهاد وأبو غَبْرَه مَرَدَة.. الوضع حسَّاس جدّاً. صحيح أنّكَ لست مُقاتلاً يحمل السّلاح ويلازمُ الثُّكنة.. ولكنّك معروف أنّك في القوّات من خلال أقربائِك وميلك السِّياسِيّ".

"وما هو الحلّ برأيك؟" سألَها جهاد وهو يمسحُ جبينَه المبلَّلَ من العرَق بإصبعِه:

"الخطيفة تجنِّبُنا المشاكل في الضَّيعَة" أجابت غادَة.

"وربَّما الخَطيفة تُشعل الضَّيعَة! أليسَ كذلك يا غادَة؟" أجابَ جهاد بتحفّظ.

وكان الشَابّ البترونيّ يُبدي قلقاً، وأمّا غادَةُ زغرتا فكانت واثقة من نجاح الخُطَّة. وَعارضَ والِداها فكرةَ الخطيفة بشدَّة، لأنّها مغامرة وتهوُّر.

كانت جيئاتُ جهاد لعند غادة سريَّة.. وكلَّ أسبوعين تقريباً.. وفي وقتٍ متأخِّر من اللَّيل.. وفي أحايين كثيرَة كان يجيءُ بالتّاكسي تجنّباً للشّبُهات. وكانَ جِهاد يجهلُ تماماً أنَّ عينَيَ الذِّئب أبو غَبْرَه وحاسّة الشَمِّ عنده،

جَعلتْها ''الزَّعرناتُ'' أكثر حدّة ممّا للنّسورِ والكلابِ البوليسيَّة.

وفي هذه الأثناء عُرِضَت على أبو غَبْرَه أوْلى عمليَّاتِ ''الابتزاز الأسوَد'' في تاريخِهِ ''المِهَنِيّ''، وكانَ ضحيَّتَها أحدُ رجال الأعمال في مدينة طرابلس. والابتزازُ يعني خطفَ رَجُلٍ ما وطلبَ الفدية أو شيءٍ آخر مقابلَ حياةِ المخطوف. لقد بعثَ إليه ذاتَ ليلةٍ.. أحدُ زُعَماءِ العِصاباتِ الطّرابلسيّين، واسم الزَّعيم ''المِهَنيّ'' عبد الرَّشيد جمّو، برسولِهِ ليدعوَه إلى عشاءِ عمَل في منزلِه في ''القبّه''. فلبَّى أبو غَبْرَه الدَّعوةَ من فورِهِ، وخرجَ هو والرّسول حاملِ الدَّعوَة واللّيلُ في أوَّلِه، بسيّارةِ الرَّجل المرسيدس ٢٣٠،٤ فوصلا إلى القبِّه حوالي العاشرة ليلاً. دخلَ أبو غَبْرَه وكانَ الزَّعيم جمّو في انتظاره، في جُحرٍ من جُحور القبّه السِرّيّ.

''أهلاً وسهلاً بالنِّمر أبو غَبْرَه.. أنتَ لا تعرفني.. وأمّا أنا فأسمع عنكَ من زمان'' قالَ جمّو وهو يصافح أبو غبْرَه بحرارة. وجلسَ أبو غَبْرَة وهو يقول:

''لا لم يحصل لي الشَّرَف البتَّة! مَن أنت؟'' فقال جمّو وهو رجُلٌ لم يتجاوز الأربعين، وهو يَمدُّ يَدَه ليقدِّمَ لضيفِهِ سيكارَة:

''أنا من جيل الثّمانينات في المِهنة.. وأمَّا أنت فمن جيل السّبعينات. سمعتُ عنكَ حتى بعد سنواتٍ من اختفائِكَ. كنتَ محارباً شجاعاً قويّاً! وحاذقاً جدّاً''

''شكراً لحُسْنِ ظنّكَ بي، ولكن ما سِرُّ هذه الدَّعوة يا صديقي؟ أدخلني إلى صلبِ الموضوع من فضلك'' قالَ أبو غَبْرَه وهو يُشعل سيكارتَه، وراحَ جمّو يتكلّم:

''إنّها عمليَّة ابتزاز.. باختصار''

"إبتزاز!!" قالَ أبو غَبرُه مندهشاً، فتابعَ جمّو:

"لا أدري إذا كنتَ جرَّبتَ هذه من قبل! ولكنَّها رَبّيحة.. والحلويني حرزانة.. ولن نختلفَ صدّقني. والعمليَّة اللَّيلة بعدَ منتصف اللّيل في القلمون. أحدُ الرّؤوس الكبار يُريد أن يوصلَ "رسالةً عمليَّةً" إلى أحَد الرّؤوس الكبار الذي هو موضوع الابتزاز. وهذا الأخير "مقبور عا قلبو" مع عشيقتِه في شقَّتِهِ السِرّيَة الفخمة في الـمُجَمَّعِ السَّكَنيّ في القلمون"

"والليلة أيضاً!!" قالَ أبو غبْرَه وهو ينفثُ دخان سيكارته في الهواء، وأضاف:

"ألن نطبخَ الطبخَة في رأسِنا على نارٍ خفيفة أوّلاً؟" فقال جمّو:

"النّارُ الخفيفة كالنار القويّة كلاهما تُفسدان الطبخَة. نصف شبابي في السُّجون، والنّصف الآخر خارج البلد. لا أدري كيف حَضَرتَ في فكري! هناك أمرٌ حاسم من الرَّأسِ الكبير بتنفيذِ هذه العمليَّة.. اللّيلة". فقال أبو غَبْرَه من فوره:

"موافق. أعطِني التفاصيل"

وزوَّدَه جمّو بكامل التفاصيل خلال نصف ساعة.

وبينما كانت غادَةُ زغرتا الجريئَة تضعُ خطَّتَها للهروب "خطيفه" مع الشَابّ البترونيّ جهاد العَبس، مَضَى أبو غبرَه في جُنوناتٍ وعمليّاتٍ واحتيالاتٍ وسرقات.. لا يُثنيه شَيء. كأنَّه جُندُبٌ آدَمِيٌّ يَقفزُ في مروجِ مُغامَرَاتِه، ويُسجّلُ مآثرَ جديدةً في أزقَّةِ الجُموح والجريمة. والحربُ لم تنتهِ بعد، والجميع غارقون في دوّامةِ سوادِها وعَبثيَّتِها. كان الحافزُ في عقلِه يُشبهُ مرضَ الوسواس القهريّ يُجبرُه على فعل المحظورات كلّها، أو هي اللَّعنة

الشّيطانيَّة المطبوعَة على فخذِه، عندما وشَمَتْهُ والدتُه بالشّوكةِ المغموسة بالزّيت المغليّ في طفولتِه. وفاتَه هذه المرَّة أنَّ غادَة ماضية بسُرعةٍ في مشروعِها. قالت غادَة لجهاد وهما يتمشّيان ليلاً في الجنينة بين الشَجَريّات وراءَ منزلِها:

"إسمع.. نتزوَّجُ في البترون إذا أردتَ، في حفل زفاف مُختصَر، معَ معازيمِك وأقربائِك أنت. أنا لا يهمّني العرس. الهامّ أن نتزوَّج وكفى". فقال جهاد:

"أنا تحت أمرك يا مولاتي". فأضافت:

"نستأجر بيتاً في البترون، لا أريدُ أن يعرفَ النّاس بنا إلاّ بعدَ شهور".

وهكذا مضى الخطيبان سرّاً في التّحضير ليوم الزّفاف، وبسرعة، مَخافة أن يدري أبو غَبْرَه بالموضوع. فحَدَّدا يومَ الإكليل، وجاءَا إلى الكنيسة في البترون وتحادثا مع الخوري، ورتّبا الأمور كلَّها من ثياب الإكليل فالزّهور والزّينة وتعيين الشّبين والشّبينة والبرنامج والتّصوير والضِّيافات... إلخ. وراحَ العريس يجهّزُ البيتَ الذي استأجره في البترون، فطلاهُ وأحضرَ إليه القليل منَ الأثاث والعفش. جهاد موظّف بنك في البترون منذ سبع سنوات ويتقاضى راتباً مُحترماً، وفوق ذلكَ فإنَّ ضماناتِ المصرف كفيلة بالطّبابة وقسوطات الدِّراسة للأولاد في المستقبل، وهناكَ ضمانات أخرى. وَجاءَ القائد العسكريّ في المنطقة زاهي يمّين ليزورَ أهل غادة في بيتِهم في زغرتا لبحث موضوع الفتاة مع أبو غَبْرَه. وعندما ذكرَ القائِدُ اسمَ أبو غَبْرَه ارتبكَ الوالدُ وابنتُه، ولم يعرفا ماذا يقولان. كان كلام زاهي يمّين مفاجئاً لهما! فارتجلَ الوالدُ مخرجاً وقال:

"أنا لا أغضِبُ ابنتي على شيء.. وها هي أمامَك.. إنَّها لا تفكِّرُ في الزَّواج حاليّاً".

وعندما وجّهَ زاهي يمّين السّؤالَ إلى غادَة:

"وأبو غبرُه وسنواتُ الصُّحبَةِ والصداقة؟!" أجابتِ الفتاة:

"أنا وأبو غَبْرَه مجرَّد أصدقاء.. لا أكثر. وهو يعي هذا تماماً". وسألَ يمّين أيضاً:

"والشابّ القوّاتي في البترون؟"، فأجابت غادَة بشجاعة:

"والدُ جهاد صديقُ والدي لا أكثر.. وهو بعيد كليّاً عن عالم السّياسَة". وحاولَ زاهي يمّين جاهداً مع الفتاة.. وكانَ صدُّها عنيْداً، وهكذا لم تُفضِ دبلوماسيَّة القائِد إلى نتيجة.

ولكن هناكَ في أزقَّةِ المدينة.. كانَ أبو غَبْرَه منطلقاً من عند الزَّعيم جَمّو السّاعة ١٢ ليلاً، لتنفيذِ مهمَّةٍ نوعيَّة بالنِّسبة لتاريخِهِ المِهَنيّ، فهي فتحة الابتزازات الكبيرة. وكان معه فريق مؤلّف من أربعة شباب شجعان لا تتجاوز أعمارُهم العشرين. بقيَ واحد من الأربعة في السيّارة عند أوّل القلمون لجهة طرابلس، وسار الباقون كلاًّ في زقاق، واختبأوا كلّ واحد في زاوية. والذي سيقوم في تنفيذ الخطف هو رئيس العمليَّة حارث ملحِم النَّجّار صاحب اللّقب الشَّهير (أبو غبْرَه). وكانت العمليَّة بمنتهى السّهولة! إنَّ النَّجاحَ السَّهلَ، دائِماً أبداً، لأوّلِ خروجٍ على القانون فخٌّ خطيرٌ لكلِّ وافدٍ إلى ملكوتِ الجريمة، بل هو الإعلانُ المُشوّقُ الجذّاب لكلِّ انحراف. وأمّا رَجلُ الأعمال الطّرابلسيّ هذا فكانَ آتياً بمفردِهِ إلى شقّةِ ملذّاتِه في بلدةِ القلمون السّاحليَّة، حيث يمضي الأوقاتِ الطيّبَة معَ عَشيقةٍ فاتنة توافيه إليها باكراً قبلَ وصولِه. وليسَ من مصلحتِهِ إثارة أيّ رائِحَة لهذا الغرام الخَبيء.. حتى لا تشمّهُ أنوفُ الإعلام! ولهذا السّبب سيكونُ سلِساً جدّاً مع أبو غَبْرَه. كانتِ الظّلمة دامسة.. وأدخلَ الرَّجُلُ

سيّارته تحتَ البناية في طبقة الأعمدة، وركنَها في الزّاوية معَ الجدار الذي يفصلها عن الشّارع وسائرِ الحَيّ، فلا ينتبه أحدٌ لهذه السيّارة الفخمة. ثمَّ خرجَ الرَّجلُ من سيّارتِه واتَّجه إلى المصعد.. فوثبَ أبو غَبْرَه من مكمَنِه نصفَ مقنَّع، ودفعَ الرَّجُلَ إلى حائِط المصعَد، ووضع المسدّس في رقبته من خلف، وهمس في أذنِه:

''كلمة واحدَة وأبعثكَ إلى جهنّم الحمراء.. إقطع نفسَك وإلاّ افتُضِحَ أمرُك''. فتمتمَ الرّجُل مذعوراً:

''من أنت وماذا تريد؟ ربَّما أخطأتَ في الرّجل المطلوب'' فأجابه أبو غَبرُه:

''أنتَ الرّجُل المَطلوب.. وهلْ يَخفى القمَر؟.. إبقَ هادئاً وسأخبرُكَ حالاً ماذا أريد''.

ووثبَ الشابّان أيضاً من مخبئِهما، وساقوا الرَّجُلَ إلى سيَّارتِه التي قادَها أبو غبْرَه، بحسَبِ الخُطَّة الموضوعَة، فقيَّدوا معصَمَيه وراءَ ظهرِه، وعصبوا عَينيه. ثمَّ أجلسوا الرَّجلُ في المقعدِ الخلفيّ بجانبِه شابٌ وبجانبِ أبو غبرَه شابٌ آخر. وانطلق الجميع إلى خارج البلدة حيث انضمَّ اليهم المساعدُ الثالث والرّابع الذي كان ينتظرهم بسيّارته تحت الشَّجَرة، فسارَ وراءَهم إلى البدّاوي شماليّ مدينة طرابلس. وفي البدّاوي ابتعدوا عن الشّارع العامّ إلى زقاقٍ فرعيّ طويل، ثمّ زقاقين آخرين ضيِّقَين قصيرين. وأخيراً توقّفتِ السّيارتان في نصفِ الشّارع، وخرجَ الشابّان وفتحا بابَ الكاراج الحديديّ الكبير، فدخل أبو غَبْرَه بالسيّارة، وساقَ الرَّجُلَ وسلّمَه إلى جمّو الذي نزلَ بهِ أيضاً إلى طبقةٍ سفليَّة تحت الكاراج. قالَ جمّو للشابّين:

''أوصِلا القبضاي، ويقصد أبو غَبْرَه، إلى سيَّارتِه في ملعب كرة القدم''، فاعترضَ أبو غَبْرَه قائِلاً:

"لا.. لديَّ سِنسِر فائِق الدقَّة نحو الخبثنات.. أريدُ أجرَتي هنا يا سيِّد جمّو"

"ما هذا؟ لا تبدأ شَكوكاً معي، وإلاّ لن أستعينَ بكَ في عمليَّاتٍ أخرى. أنا كلمتي كلمة!"، فأذعَنَ أبو غَبْرَه قائِلاً:

"لا بأس.. وإذا ختَلتني يا سيِّد جمّو.. فلكلِّ حادثٍ حديث.. أنا أبو غبرَه".

ثمَّ أوصلَ الشابّان أبو غَبْرَه إلى سيّارته.. وهناكَ قبَضَ حصَّتَه من هذه العمليَّة السَّهلة كاش خمسينَ ألف دولار، وكانَ جمّو صادقاً معه. وهذه القبضة الحرزانة ليسَت من كرَمِ جمّو الخاصّ، ولكنَّها هديَّة لأبو غَبْرَه من الرَّئيسِ الكبير، وربَّما رَعبوناً بشكلٍ ما لعمليَّاتٍ شبيهة محتملة.. بل أكيدة.. في المستقبل.

بعد ثلاثة أيّام جاءَ أبو غَبْرَه لعند غادَتِهِ في زغرتا، يُحاول مرَّةً أخرى أن يظفرَ بزوجَة مُحترمَة علَّها تكون واجهةً نظيفةً لحضورِه الاجتماعيّ، وقد علمَ بفشلِ وساطةِ الرَّئيس يمّين. فقالَ لها كلاماً حازماً:

"تَعِبَ قلبي مَعَكِ يا غادَة.. أنتِ تذلِّينَني كثيراً". وأمّا الفتاة فراحت تأخذُه بالحيلة وتلاطفه، لكي تعبُرَ بخطَّتِها إلى بَرِّ الأمان. فقالت له:

"إسمع يا أبو غَبْرَه.. أنت تعرف أنّه قرار هامّ بالنّسبة للفتاة، وأنا غير مهيَّأة نفسيّاً في الوقت الحاضر للزّواج. دعنا نختبرْ واحدنا الآخر بعد ونبْقَ أصدقاء!"، فقال لها أبو غَبْرَه:

"هناكَ شابّ سواي يا غادَة.. أتتذاكينَ على أبو غَبْرَه؟"

"لا أحد يتذاكى عليكَ يا حارث.. ليسَ هناكَ عريس.. وجهاد صديق الوالد لا أكثر"

"ليتني أستطيع أن أصدِّقَكِ.. أنتِ تغيَّرتِ كثيراً"، قالها بنغمةٍ شبهِ رومنسيَّة.

"أنتَ كثيرُ الشّكوك في هذه الأيّام.. ونمط حياتِكَ لا يدعُكَ تثقُ بأحَد"

"حسناً يا غادَة.. ستخبرُني العصفورة على كلِّ حال عن قصَّةِ جهاد هذا.. حتماً"

"أرجوكَ يا أبو غَبْرَه.. لا تراقبْني.. لا تتجسَّسْ عليّ.. الزَّواج قسمة ونصيب.. دعنا في مرحلةِ الاختبار الآن"

"أنا لا أتجسَّسُ عليكِ.. بل ربَّما أحمي حبّي لكِ".

وما إن عادَ حارث إلى بيتِه حتى اتَّصلَ بصديقِه رامز وقالَ له:

"أريدُ مراقبَةً دقيقة لغادَة وخصوصاً في اللّيل.. أريدُ أن أعرف كلَّ روحاتِها وجيئاتِها.. لنعرفَ هويَّةَ فارس الأحلام جهاد هذا". فقال له رامز:

"دعكَ منها يا أبو غَبْرَه.. إنّها تتعبُكَ وتتعبُنا معك.. ما أكثرَ بناتِ الزَّواج يا صديقي!".

ولكن في نهاية المطاف أذعنَ رامز لطلب صديقه أبو غبْرَه، وشرَعَ في تنفيذ المهمَّة. وخلال أيّام عرفَ رامز أنّ غادة وجهاد العَبس يُحضِّران للزّواج في البترون، وفي شقّةٍ استأجراها ويُجهِّزانِها هناك، والانهماكُ سرّيّ حثيث، والعريس قوّاتيٌّ من البترون! ولا أحدَ من أقرباءِ غادَة في زغرتا يدري بهذه الطّبخة. ولكنّ رامز لم يقدر أن يعرف سببَ سريَّةِ هذا التّحضير للزّواج، لقد شمَّ الرّائحَة ولم يعرف بعد أنَّ الطبخة هي "الخطيفه". فعادَ إلى

أبو غَبْرَه ليؤكِّدَ له أنَّ هناكَ تحضيراً للزَّوَاج، ولكن لا أحدَ يعلم بالأمر!!
فصَمَّم أبو غَبْرَه عندئذٍ أن يستخدمَ قليلاً من العنف، وأن يُرهِبَ هذا الغريم القوّاتيّ الجريء. وراحَ يتحيَّنُ الفرصَة، ويدورُ هو بنفسِهِ حولَ منزل غادَة كالثعلب حولَ خُمِّ الدّجاج. وانتظرَ حوالي أسبوع. كانَ يأتي كلَّ ليلةٍ في السّاعة الثامنة موعد نشرة الأخبار، وأهلُ البيت يُشاهدون برنامجَ نشرةِ الأخبار، فيركن سيّارته تحت الشَّجرَة قربَ الكنيسة، ويتابع سيراً بين الكرومِ والبساتين.. ويتوارى بين الشَّجَريّات قبالة منزل غادَة وبيدِه منظارٌ عسكريّ ليلِيّ.. تماماً كأنّه يراقب العدوَّ في المعركة. وهل الزّواج سوى معركة؟! إنّه معركة بامتياز! معركة مع النّفس، ومعركة مع العروس، ومعركة مع الأهل والأقارب، ومعركة مع الأصدقاء، وأحياناً كثيرة معركة مع المجتمع بكاملِهِ! جبَهاتٌ حامية تحاصر العريس وعليه أن يرفعَ راياتِهِ فوقَها جميعاً، لكي يستطيع الدّخول وراءَ أسوار "فردوس" الزّواج مُظفّراً ميموناً.
وأبو غَبْرَه مغامر يشتري الخوفَ والتَّحدِّي بحياتِه! وقصَّة غرامِه هذه لا تساوي وزنَ ذبابة فوق ظهر فيل مآثره وزَعرَناتِه. ذاتَ ليلةٍ جلبَ معه أقراصاً مضادَّة للبرغش وأشعلها قربَه لسبب لسَعاتِ برغشاتٍ كبيرات في اللّيلة السَّابقة، وتيرموس القهوة السّاخنة أيضاً، وجلس يحسو القهوة، ويشعل اللّفافة تلوَ اللّفافة. وكانت تلكَ اللّيلة مثيرةً بالنّسبة له! فصديقاتٌ لغادَة يعرفهُنّ جيِّداً جئنَ الواحدة تلو الأخرى للزِّيارة:

"هه.. هذه فاديا كرم"، وبعد نصف ساعة:

"هه.. وهذه دارين عبّود"، وبعدَ نصف ساعة:

"هه.. وهذه سناء الدّويهي!! ما هذا؟! أهي حفلة توديع العزوبيَّة لغادة.. أم ماذا؟!"، كانَ أبو غبْرَه يُسائِل نفسَه، وهو قابع بين الشَّجَريّات ينتظرُ حضورَ الغريم جهاد ليتحرَّرَ بالكامل من كلِّ تساؤُلاتِه، ويحاصرُهما "كشّ ملِك". وبعد ساعةٍ من الزَّمَن خرجت الصَّبايا الثلاث ومعهنّ غادَة يثرثرن

نصفَ ساعة أيضاً تحتَ العريشة قدّامَ البيت. فالنّساءُ يتكلّمن عندَ الباب أكثر ممَّا يتكلّمن وهنَّ جالساتٍ على فنجان القهوة.

وفي اللّيلة التالية بالضّبط، كانَ أبو غَبْرَه قابعاً في مكانِه أيضاً ينتظر ويراقبُ من خلال منظاره العسكريّ.. فإذا بسيَّارَة ب إم جردونيّة اللّون تركن على الطّريق قربَ العريشة، ونزل منها الرَّجُل، وعرفه أبو غَبْرَه بسهولة من حرارةِ اللّقاءِ بين الحبيبَين. وكانت غادَة قد خرجت ووقفت عندَ بابِ مدخل البيت، وصافحَت جهاد وعانَقتْه أيضاً "وضحكتُها رَطل".. والعناقُ الحارّ بَيَانٌ لا يحتاج إلى تأويل أو تفسير. ودخل العريسُ إلى البيت مرَحَّباً به، وبقيَ زهاءَ ساعتين في الدّاخل، ثمّ خرَجا لوحدِهما، كأنّهما تسكنُ لوحدِها في هذا البيت! ووقفا بجانبِ سيّارةِ ال ب إم نصف ساعة أخرى، وكلّما حاولت غادَة الرّجوع إلى داخل البيت كانَ جهاد يشدُّها بيَدِها إليه ثانية، ويتابعان الكلام.. ولا ينتهي الحديثُ بينهما.. وليلُ العاشقين طويل. بدتِ الصّورَة واضحة لأبو غَبْرَة، والفتاة حقّاً قد طارت من يدِه، وبعد سنواتٍ من الودِّ والصَّداقةِ بينهما. وما إن أدارَ الشابّ جهاد سيَّارته حتى قفزَ أبو غَبْرَه من مخبئِه إلى سيّارتِه وانطلقَ بها إلى المنعطف الذي يؤدِّي إلى بيت غادَة ليقطع الطريق على جهاد. أوقفَ السيّارة وأدارَها قليلاً بعرض الطّريق، ووقف هو في نصف الطّريق ووراءَ ظهرِه مُسدَّسُه مشكوكاً في زنّاره. وكانتِ السّاعة حوالي الواحدة ليلاً، رأى جهاد أبو غبرَه، فتوقّف وفتحَ الباب ونزلَ من سيّارتِهِ وبقيَ واقفاً وراءَ الباب، ونادى من مكانِه:

"من أنتَ يا هذا؟ وماذا تريد؟"

وتمشّى أبو غَبْرَه إليه بهدوء، ونظرَ إليه من أسفل إلى فوق، وهو لا زال يخفي مسدَّسَه وراءَ ظهره تحت الزنّار. وقال:

"أنت إذاً العريس السَّعيد الحَظّ!". وارتعدَتْ فرائِص جهاد من نظرات أبو غَبْرَة الناريَّةَ، وها هو يكتشفُ الآن واحداً يعرفُ بطبخةِ "الخَطيفة" السِرِّيَة وهو غيرُ راضٍ عن الموضوع كليّاً، وتعرَّفَ الآنَ أيضاً على حاملِ اللّقب الشّهير الذي حدَّثتْهُ غادَة عنه، في الشَّكل والفِعل. قالَ جهاد مُحاولاً التَّحايل:

"أنا لا أفهمُ ما تقول.. مَن أنت؟" فأجابَ أبو غَبرُه:

"ماذا كنتَ تفعل عند خطيبتي غادَة في هذه السّاعة من اللّيل؟! هل أنتَ صديقٌ أم حَبيب؟ تكلّم!". وكانت كلمات أبو غبْرَه تقدح شرراً وذات نبْرَة شرسَة، تماماً كمُخاطبتِه عدوّاً وقعَ بيدِه في المعركة. وجَبُنَ الشَابّ جهاد ولم يَحرِ كلاماً يقوله، كأنّه علقَ في الجُرم المشهود! وهو يعرفُ يقيناً أنَّ الشّماليّين عموماً والزّغرتاويّين خصوصاً، لا يعدُّون للعشَرَة. وسحبَ أبو غبرَه المسدَّس من وراءِ ظهره وغرزَه تحتَ أذُنِ جهاد بعد أن دفعه بعنف إلى السيّارة وهو يمسك قميصه على الصَّدر. وقالَ:

"كلّ النّاس بيعرفوني بأنَّ الذي أهدِّده ولا يُذعنُ لي.. أكونُ أنا الكابوسَ الأخير الذي يراه في حياتِه".

فسألَ جهاد، وهو يرتجفُ كما لو كانت الحرارة صفر:

"أنا بأمرَك.. ماذا تريد؟" فأجابَه أبو غَبرُه:

"إبتعِد عن غادَة.. أو"

"أو ماذا؟!" تمتمَ مذعوراً.

"ولو كنتما قدّام الخوري في الكنيسَة.. لن تثنيَني حُرمةُ الكنيسةِ ولا حضورُ النَّاس عن إطلاقِ النّار عليكما.. فاهم شو عم قلّك يا أخو هيك

وهيك؟'' وكانت هذه الكلمات صَرخة مُرعبَة. فقالَ جهاد وهو يكاد يُغمى عليه من الخوف:

''بأمرك.. ما بيصير إلاّ عا خاطرك''. وتابعَ أبو غَبرُه تهديدَه:

''وليسَ فقط إبتعِدْ عن غادَة.. أيضاً لا أريدُ أن أراكَ ثانيةً في زَغرتا.. مفهوم؟''

''مفهوم.. مفهوم''.

وأطلق أبو غبرُه عيارين ناريَّين في الفضاء، وصرخَ في وجه جهاد:

''أدخل إلى سيّارتِك ولا تُريني صورة وجهِكَ في الضَّيعَةِ بعد الآن.. يلاّ وليه''.

وأدارَ جهاد سيّارته، وانطلقَ بها بسرعةِ البرق، وهو يشكرُ ربَّه أنَّ نهايةَ هذا الكابوس ليست مأساويَّة، فراحَ يضربُ وجهَه بكفِّه علَّهُ يستفيقُ من نومَتِه الثّقيلة! بيدَ أنَّ هذه الإهانة لن تمُرَّ هكذا.. وابنُ البترون لا يُذلُّه ابنُ زغرتا ويبقى ساكتاً كالأنثى، ولا القوّاتيُّ ينسى المذلَّة هكذا ببساطة. فما إن وصلَ جهاد إلى بيتِه حتى اتّصلَ بغادَة.. فاستفاقت من نومِها، وأخبرَها بما جرى معه عندما تركَها تحت العريشة، وسألها:

''مَن هذا الرَّجُل الذي أذلّني هذه المذلَّة، ومنعني من المجيء إلى زغرتا ثانية مهدّداً بسلاحِه؟ أهو الشّهير أبو غبرَه الّذي حدَّثتِني عنه؟!''،

فأجابتْه وقد اصفرَّت وجنتاها، ومضَت أيضاً في عنادِها:

''هذا هو بعينِه.. يجبُ أن نسرعَ في موضوعِنا يا جهاد.. وانسَ ما حدَثَ اللَّيلة''. فسألها:

''نحدِّد يومَ الزّفاف إذاً!''

"آخر سبت في هذا الشّهر.. حتى ولو لم تنتَهِ تحضيراتُنا بعد"، فقالَ لها:

"وهو كذلك".

وعندما كرّرَ سؤالَه عن أبو غَبْرِه، قالت له:

"عاشق قديم.. لا تخفْ.. لديه حَنين مرَضِيّ وينتهي".

وفاتَ غادَة أنَّ أبو غَبْرِه لم يعد يثقُ بها البتّة، وهو يفهمُ جيّداً شخصيَّتَها، واستمرارَها العنيد في طبختِها السِريَّةِ هذه. ولكنّ قوّةً غريبة سيطرت عليه.. تماماً كما يسيطر عليه ذلكَ الإلحاحُ المؤرق إلى عمليَّةِ سطوٍ مسلّح أو سلبٍ وابتزاز أو إرهاب. لم يكن يفهم حارث ملحم النَجّار آنذاك أبعادَ شخصيَّتِه الخطيرة، أو يعي حقيقة هذا المَيل الوراثيّ، أو المَرَضِيّ ربّما، أو انّه اكتسبَه بالعادَة، أو انَّ طفولتَه اليتيمَة إلى جانبِ شجاعةٍ ودَهاءٍ وخبرةٍ عملانيَّةٍ في أحياءِ طرابلس البائِسة، والدَّوْلة غائبَة عن الوَعي آنذاك، قد ألَّفوا هذه الخَلطة الكيميائيَّة التي شكّلتْ شخصيتَّه المُغامرَة لدرجةِ الجنون، في خروجِها عن المألوف والانغماس في الممنوع. إنّها شخصيَّةٌ تتحدّى المحظورات والمستحيلات، وتقفزُ فوق حَواجزِ العقل، وتطلقُ ذئابَ الغريزةِ في كلِّ الحَظائِر، وترَى في ضعفِ الآخرين أدواتِ سطوتِها وهيبَتِها، وتؤمنُ بالقوَّةِ لدرجةِ التّأليه. ليسَ هامّاً البتّة ما هي أدواتُ القوَّة.. فالهامّ فقط ما هي ثمراتُ امتلاك القوَّة. وما من شكّ في أنَّ الخوف الذي قاساه في الطّفولة كانَ توابلَ مُطيِّبَة فوقَ خليطِ تركيبتِهِ النفسِيَّةِ العجيب. وصمَّم أبو غبْرَه عميقاً في قرارة نفسِه، أن يكونَ هو عريسَ هذا الزّواج، ويُنهيَ حُلمَ من تجرّأَ وحاولَ أن يضعَ نهايةً مأساويَّة لحُلمِه الجميل. ولا بُدَّ هنا من تكثيف المراقبات والتجسُّسات للحصول على قدر كافٍ من المعلومات الدّقيقة. فكان كلَّ ليلةٍ يأتي هو وصديقه رامز ليسهرا بين الأعشاب تحتَ

شَجَراتِ التّين الصَّغيرةِ المقابلة لمنزل غادَة، ويراقبان الوافدين والخارجينَ من عندِها. ولكنَّ جهاد لم يعد يظهَر البتَّة في المشهَد بعدَ المذلَّة. والطّبخة صارت تُحَضَّر على الهاتف. وشعرَ أبو غبرُه بحدسِهِ الذي لا يُخطئ أنَ المياه تجري من تحت قدَمَيه، والوقتُ زئبقٌ يفِرّ من بين أنامِل الوَعي. وعنّت له فكرة فجأةً! فقال لرامز الذي كانَ ينفِخُ السيكارةَ تلوَ السّيكارة، منزعجاً من مواويل أبو غَبرُة وخيباتِ غراميَّاتِه:

''مراقبة غادَة هنا غير مُجدية. لن نعرف شيئاً من هنا، نحن هكذا قيَّدنا تحرّكاتِها بالكامل، وهي خائفة منّي الآن''، فبادر رامز بالكلام كأنّه فهم على أبو غَبْرَة بالإشارَة:

''في حين أنَّ العريس المنحوس يتحرَّكُ بحريّة''

''إذاً مراقبة جهاد توصلنا إلى حقيقةِ ما يُحاك.. وواضح أنّها ستذهب معه خطيفة''، قالَ أبو غَبْرَه وهو يحكُّ ذقنَه مضطرباً.

وهكذا كانَ. فبقيَ رامز يراقب غادَة في زغرتا، وانطلق أبو غَبْرَة إلى البترون يراقبُ جهاد ويحوّمُ حولَ منزله في الحَيّ حيث يسكن، ويسأل الجيران عنه وذويه، ويكثِرُ من أسئلتِهِ في الحَيّ مدّعياً أنّه سوف يشتري عقاراً أو شقّة في المحلّة. واكتشفَ تفاصيلَ الحقيقة المُرَّة.. وهي الزّواج خلال أيّام!! لقد علمَ منَ الجيران أنَّ زواجَ جهاد العبس سيكون ''خطيفة'' لأنّ لا معازيم ولا عرس، فقط حفلة للشّباب في منزل آل العبس الفسيح شرقيَّ بلدة البترون. وفي اليوم التالي سوف يأتون إلى منزل أبونا ميشال مع الشّبين والشّبينة لإتمام وثيقة الزّواج دينيّاً، ثمّ ينطلقان إلى فندق في برمّانا لقضاءِ أيّامِ شهر العَسل. وقالَ أبو غَبْرَه في قلبِه: ''سوفَ أجعله شهرَ بَصَل ومرارة لبيت العَبس جَميعاً''. وفي اللّيلةِ التالية كانَ أبو غَبْرَه ساهراً يرسمُ خطّتَه الهجوميَّة على طبخة غادَة وجهاد الفاشلة. وصمّمَ أن يخطفَ هو

غادَة من عريسِها في يومِ الزّفاف، ويختفي بها ويتزوّجا في مكانٍ لا تصلُ إليه العفاريت. وكانتِ الخطّة التي تمخّضت بها قريحة أبو غبْرَه المُبدِعة أن يراقبَها في اليومين الأخيرَين.. وما أن تغادر بيتَها لتلاقيَ عريسَها الذي سيكونُ بانتظارِها عندَ مفرق أميون على الطريق السّاحلي في يوم الزّفاف، سيقفزُ من مَكمنِهِ عند منعطفٍ بعيدٍ خارج بلدة زغرتا، ويطير بها إلى مدينة طرابلس لعندِ أحدِ الكهنة يعرفُه هناك منذ أيّامِ "القبْه"، ثمّ يذهبان إلى بلدةِ القبيّات ويقضيا شهرَ العسَل هناك، لحين رسم خارطةِ طريق المرحلة المقبلة. ويتولّى صديقه رامز أن يبلِّغَ الأهلَ أنَّ أبو غَبْرَه خطفَ غادَة ورحلا إلى سوريا وهو لا يعرف عنهما شيئاً أكثر من هذا. تلكَ هي خطّة أبو غَبْرَه. ولكنَّ غادَة كانت أكثر ذكاءً منه هذه المرّة، وهي تعرف يقيناً أنّه يحوّمُ حولَها كالوحش حول طريدةٍ دسِمة، وسيحاولُ تفشيلَ طبختِها بأيِّ ثمن، ولا زالت على عنادِها الطّفوليّ، كأنَّ الزّواج عندَها مغامرة من مغامراتِ المُراهقة. فعمدَت إلى تهريبِ نفسِها بالتّقسيط على دُفعاتٍ من زغرتا، وقد اتّفقت مع جهاد على هذا. أوّلاً أرسلت أغراضَها وجهازَ عرسِها إلى بيتِ خالتِها في أميون بسيّارة أحد الجيران قبل خمسة أيّام. وقبلَ ثلاثةِ أيّام جاءَت لتنامَ عند خالتِها في أميون. ولكنّها خرَجَت في الصّباح الباكر، حوالي السّاعة الرّابعة، في صندوق سيّارةِ أحدِ جيران خالتِها إلى بيتِ خالتِها الثانية في شكّا. وهكذا خرجَت غادَة من دائِرَة رادار مراقبةِ حارث في اليَومين الأخيرين، أينَ هي إذاً في وعيِ أبو غبرَه؟ إمّا في بيتِها في زغرتا، أو هي عندَ خالتِها في أميون. ولكنَّ يومَ الزّفاف في البترون معروفٌ عندَه، يوم السَّبت، وجهَّزَ نفسَه لخطفِ غادَة ساعة خروجِها من بيتِ خالتِها في أميون، مُعتقداً أنّه لا يُمكنُ أن تكونَ قد غادَرَت بيْتَ خالتِها هناك. وقبَعَ من صبَاحِ الجُمعة كامناً عندَ المنعطفِ خارجَ البلدة، وأمّا رامز فبقيَ تحتَ التّينةِ عند البيت في زغرتا، ويتواصلان بالجهاز اللاّسِلكيّ. ومرَّ نهارُ الجُمعة وليلُ الجمُعة والمنزلان، في زغرتا وأميون، لا يخرجُ منهما أحد

ولا يدخلُهما أحد كأنّهما بيتا أشباح! وبقيَ الصّديقان صاحيَين طوالَ اللّيل على أعصابِهما. وطلعَ صباحُ السّبت لا حسّ ولا حرَكة في بيت غادَة، وبيت الخالة في أميون طبيعيٌّ جدّاً. وشعرَ أبو غَبْرَه بالحَدْس أنّه ربّما قد خُدِعَ، فاتّصلَ برامز في زغرتا وقالَ له بغضبٍ وصياح:

"إجمَعِ الشّباب يا رامز مع سِلاحِهم والحَقوا بي إلى البترون"

"إعقل يا أبو غَبْرَه.. مش وقت معارك هلّق.. أنت عارف مشاكلنا مع القوّات".

ولكنّ رامز أذعنَ لأبو غَبْرَة في نهايةِ المطاف، وجمَعَ في ثلاث سيّارات ثمانيَة شباب مع أسلحتِهم، ثمّ زحفوا إلى البترون، ليُصادفوا موكبَ العريس جهاد، فجأةً! على الأوتوستراد في أوّل البترون. وكانَ الموكبُ قد صارَ قريباً من حاجز المدفون! ولكنّ رجالَ أبو غَبْرَه خاطفون مَهَرَة.. فأوقفوا الموكبَ بهيبةِ مظهرِهم وأسلِحتِهم، وأخرجوا غادَة من سيّارتِها مع أغراضِها وأدخلوها في سيّارَةٍ منَ الثلاث، حيث قالَ لها أبو غَبْرَه:

"لن تتزوَّجي غيري يا ذكيَّة طالما أنا حيّ".

وفرَّ رجالُ رامز كلاًّ في اتّجاه.. وانطلقَ أبو غَبْرَة إلى طرابلس ثمَّ إلى القبيّات، بحسَبِ الخطَّة المرسومة. ولكنَّ هذه الحادثة أشعلت معاركَ عنيفةً جديدة بينَ المرَدَة والقوّات في البترون وصْغار وأميون وزغرتا، ولم يَنتهِ العنفُ بينَ الطّرَفين بسوى إرجاع غادَة إلى بيتِ أبيها في زغرتا في نهايةِ المطاف. ولم تتزوَّجْ جهاد. واختفى حارث ملحم النَجّار أبو غَبْرَه لسَنَتين، وباتَ مطلوباً من السُّوريّين أيضاً، ولا يدري أحدٌ بمكانِ وجودِه. وعندَ ظهورِهِ ثانيةً كان يتكلَّمُ بطلاقةِ اللّغةَ الإنكليزيَّة ليس البَريطانيَّة ولا الأميركيَّة، فظُنَّ أنّه كانَ إمَّا في كندا أو أستراليا. وهكذا كان ختامُ الإسقاطِ لصورَةِ أبو غَبْرَة الـمُتنمِّرَة، والـمُتهوِّرَة فوقَ حفافي الرِّهاناتِ الصَّعبَة، والتي لا تملكُ خياراتٍ أخرى غيرَ ما يؤلّف حتميّاتِ جوهر طبيعتِها الصّاخبَة.

إسقاط ثانٍ

جاءَ رجُلٌ ثريٌ إلى الخليفةِ عمر بن الخطّاب، وقال له:

"خادمي سَرَقني..إقطعوا يَدَه". فسألَ عمرُ الخادمَ:

"هل سرقتَ؟" فأجابَ الخادمُ: "نعم سَرَقت".

فسألَه عمرُ: "لماذا فعَلتَ؟" قالَ الخادمُ: "لأنّه لا يُطعِمُني ولا يُعطيني أجري".

فالتفتَ الخليفة إلى الرَّجُل الثريّ، وقالَ له: "لو سَرَقَ هذا الخادمُ مَرَّة أخرى.. لقطعْتُ يدَكَ أنت".

عبد الله الجفري، جريدة الحياة في ١٩٩٥/١١/١٢

وهنا فصلٌ آخرُ منَ الفصولِ المُثيرَةِ في ملفِّ أبو غبْرَه، الذي كانَ الميتر عُصفور غارقاً في قراءَتِهِ بنهَمٍ شبهِ مَرَضِيّ! فالميتر يشعرُ بهيبةٍ وتقدير ملتبس إزاءَ "الشّجاعَة غير السَويَّة" عندَ من يتجاسَرُ ويُعلنُ حياتَهُ ثورَةً، وعِصياناً مفتوحاً في وَجهِ القانونِ وحُماتِهِ المزعومين.

لِسَنتين من الزّمَان.. انقطعَتْ أخبارُ "مالِئ الدُّنيا وشاغل النّاس" حارث مِلحِم النَجّار الملقّب بأبو غبْرَه.. بالكامِل. وهذا اللّقبُ الذي

جعله منَ "المشاهير!"، باتَ سيفاً مسلّطاً وحَبلاً يشدُّ على رقبتِهِ.. ولا نجاةَ إلاَّ بالتخلُّصِ من شخصيَّةِ حارث مِلحِم النَجّار أوّلاً. والشُّهرةُ أرضٌ مَشاع! يرى النّاسُ فيها مواهبَ المَرْءِ ومساوئَه في آنٍ معاً. كانَ ذلكَ اليوم ماطراً جدّاً. وبعدَ اتِّصالاتٍ ووساطاتٍ مع قائِدِ حاجز البَربارة[٤] في تلكَ الأثناء ميلاد مكارم، ظهرَ تجسّدٌ شَبيهٌ.. وتَجَلٍّ جديدٌ لأبو غَبْرَه.. بجواز سفَرٍ مُزَوَّر يحملُ اسمَ سايد مخلوف! والهُويَّة السّوريَّة الضّائِعَة في ظروفِ الحَرب جَعلتْ صاحبَ اللَّقبِ الشَّهير ساحراً فنّاناً يتقمَّصُ الأجسادَ وهندامَ الأقاليمِ حيثما حَلَّ، بحسَبِ ما يقتضيه الحال، وشبَحاً آدميّاً عابراً للجُدرانِ والشَّبابيكِ والأقبيَة. كانَ نُسخَةُ أبو غَبْرَه هذا حليقَ الرَّأسِ معَ سكسوكةٍ سوداءَ كثيفة، كالتي يتزيَّنُ بها رجالُ عصاباتِ الدَّرَاجاتِ النّاريَّة في الرّيفِ الأميركيّ. وَصلَ سايد مَخلوف حاليّاً وأبو غَبْرَه سابقاً، إلى الحاجز بسيّارتِه، وكان الجميعُ بانتظاره.. كأنَّه قائِدٌ عسكريّ وليسَ مُحارباً عاديّاً! ولكنَّ شخصيّتَه الحَقيقيَّة.. أي التي تحتَ الماء! لم تتخَطَّ ارتجاجاتُها بعدُ جغرافيا الشّمال. إنَّ القسمَ الهامّ من السَّفينةِ هو مُحرِّكاتُها المُختفيَة تحت الماء، ولو كانَ الجزْءُ الظّاهريُّ فوقَ الماءِ هو الأجمَل، وكذلكَ الجذورُ البشِعَة الغائِصَة في التربةِ هي جَوهرُ وحياةُ الأغصانِ الزّاهيَة. وتطبيقاً للمُشابَهَة السّابقة فإنَّ الذي يُرَى منَ اللَّقبِ الشَّهير في الظّاهِر ليسَ الجانبَ الهامّ في شَخصيَّتِه البتّة.. لقد كانَ حقّاً بارعاً في فبرَكَةِ العارضَة الاجتماعيَّة الإعلانيَّة وتجميلِها. ركَنَ السيَّارة إلى جانب الطريق، وترَجَّلَ منها.. ومن بعيد.. رآهُ العساكرُ القوّاتيُّون الجاهزون لأيِّ أمر طارئٍ، ببزَّتِهِ العسكريَّة التابعة للمرَدَة. مسدَّسُه على خصره والكلشينكوف بيَسارِهِ والكمَرَان مرفوعانِ على ساعدَيه، وفوقَ أنفِهِ نظّارتا الرّايبن السّوداوان. وبدا كأنَّ عناصرَ الحاجز يستقبلون (رامبو) العائِدَ من بطولاتِهِ مُظفّراً

٤- حاجز عسكري، ومعبرٌ أمنيّ هامّ أثناءَ الحرب الأهليّة في لبنان، يربط محافظة جبل لبنان بمحافظة الشّمال.

ميموناً، وهم بعدُ غيرُ شاهرين بنادِقَهم نحوه. وصاحَ قائدُ المجموعةِ المسلَّحَة الذي سيَستلِمُ سايدَ مخلوف أحدَ مُقاتِلي المَرَدَة، وهو يسلِّمُ نفسَه للقوّاتِ اللُّبنانيَّة، طالباً الانضمامَ إلى صفوفِها:

"سلاحَكَ على الأرض ويداكَ ممدودتان في الهواء".

ووضعَ سايد سلاحَه ببطء على الأرض، وعادَ ورَفعَ يديه في الهَواء. ونادى القائِدُ ثانية:

"والمسدَّس الذي على خصرك ضَعْهُ على الأرض أيضاً يا أخو هيك وهيك.. ألم تسمعْني". وسحَبَ سايد مسدَّسَه من تحت زنّاره ووَضعَه بجانب البندقيَّة. وعادَ ورفعَ يدَيه عالياً.

"إقتربْ على مهلِك"، قال القائِد.

وراحَ يمشي سايد بهدوء.. ثمَّ اقترَبَ منه الشَّبَاب ببُطءٍ شاهرين السِّلاح. وما إن وضعوا أيديَهم عليه، قيَّدوا مِعصَمَيه وراءَ ظهره، وأدخلوه لعندِ قائِد مركز الحاجز. وهكذا أصبَحَ "مالئُ الدّنيا وشاغل النّاس" عنصراً منتمياً إلى القوّاتِ اللّبنانيَّة في أواخر ثمانينات القرنِ الماضي.

وكانَ أبو غَبْرَه قد أخرَجَ أخاه ميشال من الإصلاحيَّة، وأدخلَه أيضاً في حِزْبِ المَرَدَة منذ زَمَن، وهكذا أمَّنَ راتباً شهريّاً معقولاً لأخيه الصَّغير ميشال. ولكنَّ ميشال هذا كانَ أقوى وأشرَس طبعاً من سايد!! فسُرعانَ ما تعلَّمَ استخدامَ السِّلاح بحَذاقةٍ وفنّ، وأصبحَ في أشهر قليلة، مُحارباً شجاعاً على كلِّ جبَهاتِ الشّمال، خصوصاً الحرب مع القوميّين في الكورة، والمعارك مع القوّات في صْغار والبَترون. وهذا يُعزّزُ فكرةَ انتِقالِ فايرس الجَريمةِ والطَّبيعَة العُنفيَّة من الجَدِّ إلى الأبِ فالحَفيد.. والقضيَّةُ وراثيَّة

إذاً! ولكنَّ ميشال هذا قُتِلَ في حادثةٍ عبثيَّةٍ أثناءَ مباراةِ كرة القدم في زغرتا.. وكان قد تزوَّجَ من شهرين، عريسٌ جديد هو! آل فرنجيّة وآل الدّويهي عائلتان كبيرتان مُتنافستان في الشّمال.. رَكِب° المَشكَل وحدَثَ التلاسُنُ والتَّدافع، وسُحِبَ السّلاحُ على أدراجِ الملعب، وأُطلقتِ العياراتُ النَّاريَّة.. أصيبَ ميشال وسقطَ أرضاً. ولكنَّه.. قبلَ أن يلفظَ أنفاسَه أطلقَ النَّارَ من مسدَّسِهِ على مُهاجِميه وقتلَ ثلاثة منهم. وكانت حصيلةُ هذِهِ الحادثة البشِعَة تسعةَ قتلى وجريحَين.

وكانَ السُّوريّون يُسيطرون في كلِّ نواحي الشّمال في تلكَ الآونة، وكانوا أصدقاءَ للمَرَدَة. وبعدَ موت ميشال أخي سايد مخلوف، سعى السُّوريّون في طلبِ هذا الأخير، وكان لا زالَ يرفلُ في عباءَةِ حارث مِلحِم النَجّار أبو غَبْرَه. المَرَدَة لا يرفضون طلباً للسُّوريّين، والمُحاربون الغرباء الذين انضَمّوا إلى صفوفِهم "كنسَلوهم" بسُهولة، وأبقوا فقط على الوَطنيّين.. معَ أنَّ الغرَباءَ، وهذا للتَّاريخ، كانوا أقوى في القتالِ وأشجَع منَ اللُّبنانيّين! وسلَّمَ سايد مخلوف نفسَه للقوَّاتِ اللُّبنانيَّة عام ١٩٨٨ على حاجز البَربارة، وكانَ المسؤول آنذاك عن الحاجز الضَّابط ميلاد مكارم. وكانتِ الاتِّصالاتُ ناشطةً بوسيطٍ عسكريٍّ مع القوَّات لأسبوعَين سابقين. وجاءَ سايد بسيَّارتِه وبذَّتِهِ العسكريَّة والبندقيَّة وراءَ كتفِه. نزلَ من سيَّارتِه، والشَّباب جميعاً ساقوه إلى قسم عمشيت، وهناك التحَقَ كجنديٍّ مُحاربٍ بالقوَّاتِ اللُّبنانيَّة. ولم يستطِع اجتيازَ حاجز السّوريّين على جسر المدفون بهذه الطّريقة.. لولا تدخُّل كبير ووساطة من شخصيَّة قياديَّةٍ مدنيّة في الشّمال.

٥- أي وقعَتِ الحادثة فجأة.

ومرَّتِ السَّنوات. وذاتَ يوم.. خَرَجَ المدعو سايد مخلوف من سَجْنَةٍ لمدَّةِ خمسةِ أشهر، وجاءَ لعندِ صديقِهِ في الصَّفرا، نديم البواري أبو طوني، وكانتِ اللاَّفتة التي حمَلَها بعدَ خروجِهِ منَ السِّجن لا تزال (سايد مخلوف). وهناكَ في ذلكَ المقهى المشرف على الشاطئِ الرّومنسيِّ الجميل، وهو يحسو القهوَة، تعرَّفَ سايد على صديقةٍ جديدة.. حسناءَ عراقيَّة الجنسيَّة مُطلَّقة اسمها لُبْنَى. وأحبَّتْ لُبْنَى سايد كثيراً فصارت عشيقتَه وعاشت معه. وكانت تطبُخُ له من الطَّعام العراقيِّ الدَّسِم الشَّهيّ. ثمَّ تحرَّكَ مُلهمُه القهَّارُ العنيد مرَّةً أخرى، وكأنَّ الشّيطانَ قبَعَ واقفاً عندَ مدخلِ السِّجن حتى خرَجَ منه أبو غَبْرَه.. فوثبَ إلى بدنِهِ القويِّ وتقمَّصَه ثانية. قامَ ذاتَ يوم على سيَّارةٍ مرسيدس كُحليَّة اللّون خارقة، فسرَقَها وباعَها، ثمَّ أنفقَ المالَ على لُبْنَى وفردَوسٍ لذَّاتِ لُبْنَى. وأمَّا طريقةُ سرقةِ تلكَ السيَّارة فكانت طريفةً حقاً.. وبسيطة للغاية. فقد كانَ يُراقبُ تلكَ الطَّالبةَ الحَسناء إيمان، وهي تأتي يوميّاً بسيّارتها الكُحليَّة الخارقة إلى الجامعة في الكسليك. فقبَعَ يُراقبُ خارطةَ تحرُّكاتِها بعدَ الخروج من الجامعة في عودتِها إلى البيت في المساء حيث تركنُ السَّيَّارَة تحتَ البنايةِ داخلَ البوَّابةِ الحديديَّة العملاقة. وقد أعيَتِ الحيلةُ أفكارَه الخَلاّقة في حينِها، مع خِبْرَةٍ لا بأسَ بها في هذه "المهنة" أيضاً. ونفدَ صبرُه. فصمَّمَ بعدَ انتظار شهرٍ من الزَّمانِ على إنهاءِ القضيَّة، فيُسكِتَ هذا الإلحاحَ الآسرَ الذي يسوقُ قامتَه رُغماً عنه إلى تلكَ "المِهنةِ الشَّريفة" سَوقَ الغريزةِ للجسَد، ليشعرَ بهذه النَّشوةِ الغامضة المريضة عندَ انتهاءِ العمليَّةِ كما خطَّطَ لها. صحِبَ سايد معه صديقَه لكي يقودَ السيَّارة عصرَ ذلِكَ اليوم، وسارا وراءَ مرسيدس الفاتنة إيمان، وتحيَّنا الفرصَة. وما إن نزلتِ الطّالبةُ إيمان لكي تشتريَ أغراضَها من السُّوبرماركت، حتى تحلَّلَ سايد وصارَ غازاً.. وسبَحَ بينَ السيَّارات الرّاكنة، فربطَ علبةَ تنَكٍ حديديَّة بالإطارِ الخلفيِّ للسيَّارَة.. ولا شَيْءَ غيرَ هذا البتَّة! وأدخلَ التنَّكةَ وراءَ الدُّولابِ لكي لا يراها أحد. وانتظرَ

السّارقان دقائِقَ في سيَّارتهما ريثما خرَجَت إيمان ووضعت أغراضَها على المِقعدِ الخلفيّ، وأدارتِ السَيَّارة وانطلقت. وقادَت فقط خمسين متراً.. ثمَّ نزلت لكي ترى ما هذه القرقعَة تحت السيَّارةِ التي أحدَثتْها التّكّة.. وتركت محرّكَ السيّارَة دائِراً وبابَها مفتوحاً. فوثبَ سايد إلى المِقود وأقلعَ بالسَيَّارَة كأنّها طائِرَة! ولحِقَ بهِ صديقُه بسيَّارةِ سايد، وبقيَتِ الصبيَّةُ إيمان واقفةً مكانَها مذهولةً جامدةً كالصَّنَم. ثمَّ باعا السيَّارة بعدَ يومين لا أكثر، فكانت حصّةُ سايد ثلثي الأرباح وصديقه الثّلث. ثمَّ عادَ بعدَ ذلكَ و"خبَطَ" سيّارَةً أخرى واقتناها ووضَعَ لها لوحةً مزوَّرَة، وجاءَ بالعشيقةِ الحسناء لُبْنَى العراقيَّة إلى عمشيت، حيث استأجَرَ شقةً فاخرة الأثاث، كان يملكها الفنّان نور الملاّح في بنايةٍ قربَ كنيسة السيِّدَة في الطّبقةِ الرّابعة، ولثلاثةِ أشهر. ودفعَ سايد المالَ كلَّه سلفاً عن الأشهر الثلاثة، وفي نيَّتِهِ أن "يُنظِّفَها" من أثاثِها الفاخر الثّمين الذي كان يساوي خمسين ألف دولارٍ آنذاك. ثمَّ أمضى سايد خمسةَ أيَّام هادئةً في عمشيت، منتظراً ليلةً مناسبة ليسرقَ محتوياتِ الشُقَّةِ ونفائِسَها. كانَ يتمشَّى كلَّ يوم عصراً هو والعراقيَّة الحسناء لُبْنَى على طريقِ كنيسة السيِّدَة وصولاً إلى المطرانيَّة، ثمّ يعودان. وفي عصر يوم من الأيَّام خرَجَ سايد إلى الشُّرفة، وهذه هي "العناية الإلهيَّة" بلا شكّ! كما يحاول سايد أن يُقنِعَ نفسَه والآخرين دائِماً، ويقرأ بينَ السُّطور. فرأى شرطيَّ البلديَّةِ يتمشَّى ويدورُ حول سيَّارتِه المسروقة المركونة قربَ البناية، مرتاباً في أمرها. كانَ مُسدَّس سايد في جَيبِ باب السيَّارة تحت. فهرعَ بسرعةِ البرق إلى الشُّرطيّ وسأله:

"هل هناكَ شيء يا وَطَن؟ هذه السيَّارة لي" فأجابَ الشُّرطيّ:

"هذه السيَّارَة مسروقة!"، فأنكرَ سايد قائلاً:

"كيف!! لا يُمكن يا وَطَن!! لقد اشتريتُها منذ ثلاثة أشهر وسَجَّلتُها، والأوراق معي تثبتُ ذلِك".

فطلبَ الشُّرطِيُّ عندئذٍ من سايد أوراقَ السَيَّارَة.

ففتحَ سايد بابَ السيَّارة، وأخرَجَ مُسدَّسَه برشاقةٍ، وغرَزَهُ في بطنِ الشُّرطيّ وهو يُمسكُ سترتَه بقبضتِه القويَّة، وأمطرَه وابلاً من السُّباب والشّتائم والتّهديدات. فصارَ الشُّرطيُّ المسكين يرتجفُ كورقةِ الخريف. فدفعَه سايد عنه كريشة، وسقطَ على جانبِ الطريق تحتَ الحافّة على علوّ متر تقريباً. وأدارَ السيَّارَة بسرعة وانطلقَ بها، فتَصدَّى له شرطيٌّ آخرُ عندَ المنعطف يتجه نحوه مُسرعاً، "فركَلَهُ" برفرافِ السيّارة غيرَ آبهٍ أما زالَ حيّاً هو أم مات. وعندما أصبَحَ سايد عندَ صديقِه في نهر إبراهيم هاتفَته عشيقتُه لُبْنَى وقالت له:

"لقد نزلتُ وراءَك بسرعة، وهَرَبتُ أنا أيضاً بسيَّارة أجرة"، فقالَ لها:

"لقد قلتُ لكِ أنَّ صُحبَتِي لا تناسبُكِ البتَّة يا لُبْنَى".

وأيُّ إنسانٍ طبيعيّ يستطيع أن يتكيَّفَ معَ مَن تسوقهُ الأرواحُ، لا يستطيع إزاءَها أدنى مقاومة؟! إنَّ المسألة الجوهريَّة المطروحة الآنَ بلجاجة هي: هل ورثَ أبو غَبْرَة نزَعاتِهِ المُنحرفة عن أبيه؟ أم انَّ اليُتمَ المُبكِّر والحرمانَ من الدِّفءِ العائِلِيِّ شوَّهَ طفولتَه ومسخَ ميولَه إلى مزاجٍ عنيفٍ شرس؟ أم انَّ الجغرافيا التي شبَّ عليها وفُتِنَ بتضاريسِها، في مناخات الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة وَزَعرَنات "رجالاتِها"، هي المُكبِّرَة أو العدَسَة التي نظرَ منها إلى الدُّنيا، فرأى السَّوادَ والتَّشوُّهات في واقعٍ مشوَّهٍ مريض، فظنَّ الحياة هكذا.. متوحّشَة..! لا يباريها إلاّ من كانَ وَحشاً وَنَدّاً لها.. لا يجبُنُ أمامَ صَولاتِها وجولاتِها. تماماً كالمُتسلِّقِ الذي لا تُريعُه الصُّخورُ والشّواهق، والبدَويّ الذي لا يَخشى مواجهَةَ جبَرُوتِ الصَّحاري الواسِعة الموحِشَة.

وتطوَّرَ الفكرُ الإجراميّ عندَ سايد مَخلوف، وصنَّعَ بواسطةِ فأسِ الخلفيَّةِ العسكريَّة قارباً وأبحَرَ بشجاعةٍ مُغامِرَة في أوقيانوسات السَّطو والسَّرقة الخلاَّقة. وديناميَّة السَّطو المُسلَّح ديناميَّةٌ حَربيَّة بامتياز! واستراتيجيَّاتٌ عملانيَّة في تنفيذِ الاقتحامات والمُداهمات والهجومات. السَّرقةُ فنٌّ وَمَهارَة! إنَّها فَنُّ الأخذِ بذكاءٍ الشَّيْءَ الذي لم يقدرْ أن يُحافظَ عليه الآخرون، كما تقولُ فلسفة أيو غَبْرَه نفسِه. وَتحَوَّلتِ السَّرقةُ عندَه إلى لوحَةٍ مُدهشَةٍ تتجَمَّعُ خُطوطُ وألوانُ ديناميَّاتِها البارعَة لتُحفِّزَ العقلَ المُتأمِّلَ وتؤَثِّرَ فيه. هناكَ سرقَةٌ عاديَّة.. وهناكَ سرقَةٌ بفنٍّ وابتِكار! والجَمَالُ يكمُنُ في الابتِكار. لقد أبدَعَتْ مُخيِّلةُ سايد مَخلوف طرُقاً وحِيَلاً، قادرة على الاستِغناءِ عن التقنيَّاتِ الحديثة، وفي الوقتِ عينِه تتَحدَّى بجرأةٍ، تكنولوجيَّاتِ الأمنِ والحماية والصِّيانة والتَّصوير والتعقُّبِ والمُطاردة بجميعِ نُسخاتِها وتعيُّناتِها. فباتَ لسايد منهجيَّة، أو على حَدِّ فلسَفتِهِ (تكنولوجيَّة الثِّقة) التي أساسُها وجوهرُها بكلِّ بساطة.. ثِقةُ الضَحيَّةِ بالسّارقِ المُهاجِم كمرحلةٍ تمهيديَّةٍ قبلَ عمليَّة الاصطياد. ولم يَرتَحْ سايد كثيراً لتوظيفِ "عبقريةٍ شرِّيرةٍ مُبدعَة" كخادمٍ مُطيعٍ لتلكَ الوسائِل الحديثةِ في الكسر والخلع والفتح والحفرِ والثَّقبِ وتشغيلِ المُحرِّكات والأجهزة أو تعطيلِها، فهو ينتمي لجيلٍ رَجعِيٍّ بعض الشَّيء.. جيلِ ما قبل "الحداثة". تماماً كما لا يزال الكثير من المهندسين يفضِّلون رَسْمَ خرائِطهم الهندسيَّة باليَد لا بواسطةِ الكمبيوتر، وأحياناً كثيرة تتفوَّقُ خرائِطُهم على تلكَ التي على الكمبيوتر جودةً وإتقاناً! وكانَ سايد يكره كثيراً تنفيذَ عمليَّةِ سرقةٍ في الظّلام، أللَّهُمَّ إذا أجبرَته وضعيَّةُ الضَحيَّةِ الصَّعبَة على ذلك. فكانَ يفضِّلُ تنفيذَ مخطَّطاتِه في أوقاتِ القيلولةِ بُعَيد الظَّهيرة، أو قريباً من مراكز الشُّرطةِ والأجهزة الأمنيَّة، أو أثناء وجبةِ الفطور الصَّباحيَّة، أو أثناءَ المُناسباتِ والتَّجمُّعات الجَمَاهيريَّة. وحيثُ هناكَ ضجيجٌ وجمهورٌ كبير لا يشعرُ أحَد، حتى ولا رجالُ الأمن أنفسُهم! بأرواحِ الأبالسةِ تخترقُ هذه الأجسادَ وتسلبُ ما

تملكُه من النُّقود والحلِيّ والشّيكات، وغيرها ممَّا خَفَّ حملُه وغلا ثمُنه. ولا ينتبهُ مخلوقٌ للُّعبَةِ السِّحريَّةِ التي تُديرُ فيها أناملُ خفيَّةٌ محرِّكاتِ السيَّاراتِ الرَّاكنة على ضفافِ الجماهير.

وفي فصلٍ من فصول (تكنولوجيَّةِ الثّقة)، أنَّ سايد التقى ذاتَ يوم صدفة، برَجُلٍ متقدِّم في السِّنّ، فاصطحبه معه لشِراءِ سيارةٍ في أحَدِ معارض السَيّارات. طبعاً سيكونُ لهذا الرَّجُل الـمُسِنّ كومسيون وحِصَّة في هذِه العمليَّة، وقد دفَعَها سايد مُسبقاً واشترى الرَّجُلَ العجوز. ثمَّ شرحَ له سايد مهمَّتَه جيّداً، وهي بسيطة جدّاً لا تحتاجُ "لرأس مال" البتَّة، ثمَّ دخلَ وقدَّمَه للبائع صاحبِ المعرض على أنَّه أبوه، للوقوفِ عندَ رأيهِ في عمليَّةِ الشِّراءِ هذه لأنّه سوفَ يقودُ السيّارَةَ الجَديدَة هو أيضاً. فوثِقَ البائعُ بفذلكاتِ سايد مَخلوف ولبَاقةِ كلماتِهِ المسرَحيَّة البارعَة، وهنا عمِلَتْ (تكنولوجيَّة الثّقة) بنَجاح! فأعطاهُ البائعُ مفاتيحَ السيَّارةِ ليجرِّبَها بمفردِه، وكانتِ الفرصَة الذَّهبيَّة بحسَبِ خطَّةِ سايد. فتمكَّنَ بعد أن كسبَ ثقةَ البائع بواسطةِ وجودِ الرَّجُلِ العجوز، من سرقةِ سيَّارةٍ جديدةٍ رائِعَة. وبقيَ الرَّجُلُ الـمُسِنّ جالساً أمامَ البائع مطمئِنَّ البال إلى نجاحِ الخطَّةِ والحصول على نصيبِه منها. وما إن مَضَى البائعُ لدقائِقَ لترتيبِ شؤونِهِ في المعرض.. حتى وَثبَ الرَّجُلُ الـمُسِنُّ إلى الخارج، ولاذَ بالفرار كما لقَّنَهُ سايد.

بيدَ أنَّه معَ الخبرَةِ، اتَّسعَت مُخيّلة سايد في ابتكار الحيلة الأكثر تعقيداً من الحِيَل البسيطة البدائيَّة. وهي حقّاً أفكارٌ مُلهِمَة! فقد استطاعَ مرَّةً السَّطوَ على سيَّارةٍ فخمة باهظة الثَّمَن، دونَ اللُّجُوءِ إلى الكسر أو تقنيَّةِ إعادةِ برمَجَةِ مفتاح السيَّارَة البتَّة، ولكنَّها تطويرٌ خلاّق (لتكنولوجيَّة الثِّقَة). فقدِ استطاعَ كسبَ ثِقةَ البائع، وبدَّدَ كلَّ ما من شأنِهِ إثارة الشّكوك، وتمكَّنَ

من أخذِ السيَّارَةِ ليُجَرّبَها بمُفرَدِه، وسرقَها. ولكنَّ أداة إدخال الثِّقَةِ في قلبِ البائِع.. هي سيَّارةٌ مسروقة أيضاً! ولكنَّها أقلّ قيمَةً بكثير من السيَّارة التي تُسرَقُ في الوقتِ الرّاهن. وصلَ إلى المعرضِ بسيَّارتِهِ المسروقة، وركَنَها في الباركينغ، ورآهُ البائِعُ يركنُ السيَّارَة وينزلُ منها. ثمَّ دارتِ النِّقاشاتُ والتفاوضاتُ حول شراءِ السَيَّارَةِ الجديدة، فلم يَبقَ عندئِذٍ إلا أن يُسلِّمَ البائِعُ مفاتيحَ السيَّارَةِ الجديدة لسايد، على أساس أنّ سيَّارتَه مركونة في الباركينغ أمامَ عينيه. وقادَ سايد السَيَّارة الجديدة ليُجرّبَها.. ويطيرَ بها! ولكن بعد طول انتظار.. ستعصفُ بالبائِع الشُّكوك بالجملة، وسوفَ يضيعُ بينَ احتمالاتٍ شَتّى أيضاً، حتى يدركَ في نهايةِ المطاف أنَّه تعرَّضَ لعمليَّةِ سرقةٍ على يدِ مُحترفٍ خبير.

ومن كازانوفيَّاتِ حاملِ اللَّقَبِ الشَّهير في السَّطو والسَّرقة أيضاً، وفي المرحلةِ القوَّاتيَّةِ من حياتِه، أنَّه فُتِنَ بامرأةٍ حَسناءَ، صدفةً، على شاطئِ بحر عمشيت عصرَ أحدٍ من آحادِ أيلول. بدَت له المرأةُ تعيشُ فراغاً موحشاً، يُفصِحُ عنه هدوءُ حركاتِها وكآبةُ ملامحِها. وصارَ يأتي إلى ذلكَ الشَّاطئِ وينتظرُ المَواقيتَ التي تحملُها إليه، ويُصوِّرُها بعَينيه كأنَّهما عدَستا كاميرا متحرِّكة، وهي تركنُ سَيَّارتَها على الطَّريقِ وتنزلُ إلى الشَّاطئِ لتمضيَ وقتَها بينَ السِّباحةِ وحمّامِ الشّمس. رآها مرَّةً من على الطّريقِ التّرابيّ المُحيط بذلكَ الشّاطئ الهادئ، وكانَ شبهَ خالٍ في ذلكَ اليوم. مشى حتى وصلَ على بُعد أمتار منها وهي مستلقية تتشَمَّس. خلعَ ملابسَه وجلسَ ينفِّخُ السّكايرَ في الهواء. كانَ ينظرُ إليها بينَ الفينةِ والفينة، وكانت تبادلُه النَّظرات هيَ الأخرى. ثمَّ قامت وهمَّت بالنُّزولِ إلى الماء، ونظرَت إليه نظرةً.. قرَأَ فيها دعوةً منها له ليلحَقَ بها إلى البَحر. فانتظرَها تسبَحُ وتبتعدُ قليلاً عن الشَّاطئِ، وقامَ وسبَحَ وراءَها. بقيَتْ هي في مكانِها في الماء، واقترَبَ منها بهدوء، عيناه في عينيها كعَينَي ذِئبٍ يؤدِّي دورَ حملٍ وديع:

"محسوبِك أبو غَبرُه". نظرَت إليه نظرة صامتة، وقالت:

"تشرَّفنا"

"ويجبُ أن تعرفي أيضاً.. لا أحَد يُغبّرُ على أبو غَبرُه"

"حقّاً..؟! هل هذا تهديد؟" قالتها بنَغمةٍ فيها دلَع ليُتابعَ في غَزَلِه.

"ما عَدَا أميراتِ الجَمال.. فأنا أريدُ غَبْرَةَ رضَاهُنّ".

"لا يا رجُل..! لا تقلْ لي أنَّكَ أغرمْتَ بي من أوَّلِ نظرة؟!" قالت بتهكُّم ودَلع أيضاً.

"لا أبداً.. كلُّ نظراتي.. الأولى والأخيرة.. وَقعَت فريسةً لجَمالٍ لا يُقاوَم". وبقيَت صامتةً، وأضافَ هو:

"أنتِ إرهابيَّة"

"أنا؟!" سألت بتعَجُّبٍ، فأجاب:

"لقد فجَّرْتِ بصاعقِ عينيكِ الذَّبحَتَين تاريخي بكامِله. أنتِ قاتلةٌ لا ترحم"

"بتعرف.. دَمَّك خفيف!" قالت له وهي تبتسم.

وما إن قالت له "دَمَّك خفيف" حتى ارتاحَتْ أحشاؤه وتنفَّسَ الصُّعداء. لأنَّ قلعتَهُ الجديدة هذه بدأت تفتحُ أبوابَها لدخولِ فاتحٍ جديدٍ مُظفَّر. وقالت له:

"أنا متزوِّجَة" فأجابَها:

''ولكنّي أنا مُطلّق''، وكانَ يكذب. فسألته:

''ماذا تقصد؟'' فأجاب:

''يعني أنا حرٌّ.. وحاضر دائِماً تحتَ الطّلب. واسمي ساير وليسَ أبو غَبْرَه! أبو غبرُه مفتاحُ الحديثِ معك لا أكثر''، وكانَ كاذباً في كلِّ شيءٍ معها.

وكانَ ساير مخلوف قدِ استعلمَ من خلال تحرّياتِه، عن مَوقعِ منزل هذِهِ المرأة في بلدةِ المنصف القريبة من عمشيت، ومن هو زَوجُها، وأينَ هو مركزُ ونوعُ عَمله. وعلِمَ أنَّ هناكَ ولداً عمرُهُ ثلاث سنوات أيضاً. وسرعانَ ما اشتعلت بعد ذلكَ العلاقةُ الخائنة بين هذه المرأةِ الكئيبَةِ وساير مخلوف، الذي يرمي ضَميرَهُ ووجدانَه في مستوعَباتِ القُمامة عندَ خروجِه من بيتِهِ كلَّ صباح. لم يَنتبهِ البَشَرُ بعدُ، إلى أنَّ الحيوان أكثرُ أخلاقاً وتهذيباً منهم في أمور الجنس. فليسَ في الحيوانات شذوذٌ جنسيّ! ليسَ في الحيواناتِ جنسٌ جماعيّ! ولا مِثليَّة أو مُساحقة! ليسَ في الحيواناتِ ساديَّة وعنفٌ جنسيّ! الحيوان يأخذ الكفاية الآنيَّة المؤقَّتة، وأمّا الانسان فيريدُ دائِماً الفيض. والكلام عن المُتعَة الكبرى.. والنَّشَواتِ المُتعدِّدَة والمتكرِّرَة.. إن هو إلاَّ مُخيِّلة فيَّاضَة جامحة لا تريدُ أن تُرخيَ الدُّنيا من أنيابِها وأظافرِها حتى رَمقِها الأخير. وكانت هذه المرأة سُمَيَّة تلتقي بعشيقِها ساير أسبوعيّاً، ومساءً في بدايَةِ السَّهريَّة عندَما يذهبُ زوجُها ليلعَبَ الورق في جبيل. فكانت تُرقِدُ صغيرَها ثمَّ تتَّصلُ بساير ليأتي. وكانَ يركنُ سيَّارتَه خارجَ المحلَّةِ بعيداً ويتسلَّلُ إلى منزلِها بينَ الشُّجَيراتِ إلى شُرفةِ غُرَفِ النَّوم، وهي مُرتاحة الفكر أنَّ زوجَها لن يَعرفَ شيئاً. وبقيَتِ العلاقة مضطرمة لشهور. وسُرعانَ ما وصلَت رائِحَةُ الخِيَانةِ في هذا البيت إلى أنوفِ الجِيرَة.. ولكن، وكمَا دائِماً، الزَّوجُ آخرُ من يعلم! وذاتَ مساءٍ.. تركَ زوجُها البيتَ وقالَ لها أنَّه ذاهبٌ ليلعبَ الورق. واتَّصَلت من فورِها بساير، وحضرَ هو كماردِ جنسٍ خرجَ من قمقمِهِ ليقول لهذه المرأةِ الكئيبةِ: ''شُبّيكِ لبّيكِ عبدُكِ بينَ

يديكِ". ثمَّ جلس هو وهي في أرض الغرفةِ والمازة متناثرة حولَهما. ولكنَّ زوجَها في تلكَ اللَّيلة، عادَ باكراً جدّاً! والشّبابُ غيَّروا مشروعَهم لسببِ غيابِ نصفِهم عن لعبِ الورق. وفتحَ الزَّوْجُ المخدوعُ البابَ بهدوءٍ.. وسَمِعَ جلبَةً في الدَّاخل، وصوتَ خطواتٍ حافيةٍ قويّة على الأرض. فتحَ من فوره الغرفةَ الأولى ولم يكن فيها أحد، والغرفةَ الثانية أيضاً وكانت خالية، فتحَ غرفة الولد وكان نائِماً وبقيَت الغرفة الأخيرة، ففتحَ بابَها ورأى المازةَ على الأرض وآثارَ جريمةِ الغرامِ في كلِّ بقعة. لقد كانا جالسَين على ضَوءِ اللَّمباديرِ. خرَجَ كالمجنونِ إلى الصَّالون وأشعلَ الضّوء.. فإذا بزَوجتِهِ ترتمي عندَ قدمَيه. ثمَّ شَرَقتْ بدموعِها وراحتْ تتوسَّلُ إليه أن يسترَ عليها ويغفرَ لها. ولم يستطِعِ الزَّوج أن يرى الشَّبَحَ سايد مخلوف وهو يَتسلَّل من آخرِ المَمشَى المظلم حافياً إلى الشُّرفة، ليَقفِزَ منها بينَ شُجَيراتِ الجلال المُحيطةِ بالمنزل. قالَ الزَّوجُ المجروح وهو يكظمُ جنونَه، وفي عينيهِ لونُ الاشمئزاز والمرارة:

"يا سافلة.. من هو هذا الكلب الذي تدمِّرين بيتَكِ لأجلِه؟"، فتابعت توسُّلَها وهي تبكي:

"سامحني أرجوك.. هذه نزوة عابرَة.. إنَّها غلطة ويُمكنُ إصلاحُها.. أقسمُ لكَ على الإنجيل أنِّي سأتوب.. فلا تفضَحْ زَوْجتَك ولا تدمِّرْنا من أجلِ الصَّبيّ أرجوك". فقالَ بقسوةٍ وَحَزم، وقد أمسكَها بيَدِها وأخرجَها خارجَ العَتبَة:

"أخرُجي من هذا البَيت يا وسِخَة ولا ترجِعي أبداً.. وانتظري منّي الطّلاق".

في لحظةِ الانفِعالِ المُرَّة لا يُدركُ الرَّجلُ أو المرأة ماذا يحدث، وماذا يقول، وكيف يتصرَّف، وما هو القرارُ الحكيم؟ بيدَ أنَّ المُشكلة بين هذين الزَّوجين

أكثر تعقيداً من خيانةٍ وطلاق. فقد سجّلَ الزّوجُ هذا البيتَ الفخمَ باسمِها عندَما تزوّجا، وهي الآن المالكة الشّرعيَّة ولها حقُّ التصرُّفِ به كما تشاء قانونيّاً. فأرسلت لزَوجِها بعدَ أن طردَها، وبدعمٍ من محامٍ صديق، تبليغاً أنّها تريد استعادَةَ حقِّها المسلوب، أي المنزل. وهكذا اندلعَتِ المعركة القانونيَّة بين الزّوجَين، وتحوّلَ الصِّراعُ من خيانةٍ زَوجيَّة إلى صراعٍ على البيت. والولدُ الصَّغيرُ بقيَ خارجَ حسابات هذه الحربِ المجنونة. وأمَّا الشَّيطان سايد مخلوف، وسُميَّة لم تذكر اسمَه قطّ لا في استجوابٍ أو تحقيق ولا في الجَّلسَات، نزولاً عندَ رغبتِه حتى لا تكرَّ مسبَحَةُ تاريخِهِ ويُفتَضَحُ أمرُه! فكانَ قريباً منها ولكن من وراء السِّتارَة. وجيرانُ سُميَّة لا يعرفونَ أبو غَبرُه شخصيّاً ولا أقنِعَة أبو غَبرُه المُتعدِّدَة. بيدَ أنَّ أصحابَ النَّوايا الحسنَة تدخَّلوا للصُّلحَة بينَ سُميَّة وزَوجِها، ولم يُعجبْ هذا سايد قطّ.. فهو يُريدُ لسُميَّةَ أن تربحَ المعركة القانونيَّة وتطلِّقَ زوجَها! فتخلوَ له السّاحةُ بالكامل. وحتماً..! راحَ يدرُسُ خطَّةً للتخلُّصِ من غريمِهِ الزَّوج المخدوع. بيدَ أنَّ الأقدارَ كانت تخطِّطُ لشيءٍ آخرَ.. والشّيءُ الآخر لا يخدمُ أيَّ طرَفٍ من أطرافِ الصّراع الثّلاثة. فذاتَ يومٍ كان سايد عند سُميَّة في بيتِ أختِها يشربان القهوة ويتناقشان في موضوع الأوراق والمحامي والجّلسَات والموادّ القانونيَّة، وسَمِعا هدرَ محرّكِ سيّارةٍ قربَ البناية، فمدَّتْ سُميَّة رأسَها من النّافذَة لترى من الآتي.. ثمَّ قالت لسايد:

"إذهبِ الآنَ يا سايد هذا زَوْجي..!! لا تنقصُنا المشاكل أرجوك".

ولبَّى سايد "النّداء" وخرَجَ من البَيْتِ مسرعاً نحوَ درَجِ المبنى، والبيت في الطّبقة الأولى، فاصطدمَ بالزَّوْجِ ماثلاً أمامَه وسُميَّة تغلقُ البابَ وراءَه. ففقدَ الزَّوجُ السَّيطرةَ على نفسِه وصاحَ بسايد:

"من أنتَ يا هذا.. صديقٌ أو عشيق أو قانونيّ؟"

ولكنَّ سايد تحامى الاصطدام به وتابعَ خطواتِه إلى الخارج، فلحِقَ بهِ الزَّوجُ المَسعور، وحدثَ التَّلاسنُ العنيفُ بين الاثنين خارجاً، فتدافعا وتضاربا. سايد مخلوف قويٌّ وخبير وأزعر، فأشبَعَ الزَّوجَ المسكينَ لكماً وركلاً، وأدماه، ولا أحدَ ردَّهُ عنهُ! وركضَتْ سُميَّة وأختُها وركضَ الجيرانُ ولكن متأخِّرين. وثبَ سايد إلى سيَّارتِهِ يريد الرَّحيل، فلحقَ به الزَّوجُ أيضاً يريد أن يوقفَه وهو يكيلُ له السُّبابَ والشَّتائم. واندفعَ نحوَ مقدِّمَةِ السيَّارَة كالمجنون، فسئِمَ سايد من سُبابِه، وحانت منه استدارةٌ بالسيَّارةِ ضرَبَ بها الزَّوجَ البائِسَ قاذفاً إيّاه إلى عمودِ الكهرباء الخَشَبيّ، وولّى هارباً. ولكنَّ رأسَ الزَّوجِ ارتطمَ بالعمودِ بقوَّةٍ وفارقَ الحياة. وكانت نهاية هذا الصِّراع الثلاثيّ على النَّحو التالي: الزَّوجُ مات، وسايد مخلوف حُكِمَ بالسَّجْن عشر سنواتٍ لم يُمْضِ منها إلاَّ سنة ونصف السّنَة لا أكثر، بسببِ نفوذِ المِظلَّة الرَّاعية والدَّاعمَة له. وأمَّا الزَّوجَة فحَصَلت على الولَد ومُلكيَّةِ البَيت، وحُكِمَت عشر سنواتٍ أيضاً بتُهمةِ الخيانةِ والتَّواطؤِ معَ العشيقِ لمحاولةِ قتل زَوجِها، وبقيَتْ في السِّجنِ فقط سنواتٍ سبع بكاملِها.

ثمَّ كانتِ الحَرْبُ الكبرى بين الجنرال ميشال عون والدّكتور سمير جعجع خاتمةَ المأساة! وسايد كان في قلبِ المعرَكة في عمشيت. وممّا دَوَّنتْهُ الذّاكرةُ الجَمعيَّة عن أحداثِ عمشيت في هذه المرحلةِ الأخيرة من الحربِ الأهليَّة، أنَّ القوّات بطشوا بعناصر الجَيش اللُّبنانيّ، وكانَ هناكَ إعدامات ميدانيَّة. والحقيقة أنَّ هناكَ أيضاً بعضَ الوثائِق تثبتُ نقيضَ هذه المقولات. والذي أكَّده كِثار من شهود العيان، أنَّ هذا المدعو سايد مخلوف وكان يُلقَّب بأبو غَبْرَه، كانَ في قلبِ المعرَكة، وقد أنقذَ ضابطاً عَونيّاً من إعدامٍ ميدانيٍّ حتمِيّ! لقد هاجمَتْ عساكرُ الجيش من شماليّ شرقيّ البلدة، في حيِّ البرّانيَّة، يقودُها ضابطان، واسمُ واحِدهما ظافر الهَبر. وانتشَرَت هذه القوَّة

في نواحي الحَيّ في مُحاولةٍ لفكِّ الطّوق عن القوّة التي كانت تواجه هجوماً قوّاتيّاً عنيفاً في الوادي الغربيّ في بنَقرَه. واندلعَتِ الاشتباكات بجميع الأسلحة الميدانيَّة، وحتى الدَبَّابات. إلاّ أنَّ هذه القوّة المُهاجمَة.. بعُدَدِها وعديدِها.. لا تستطيعُ شيئاً أمامَ الأعداد القوّاتيَّة الكبيرة التي صدَّتِ الهجومَ بسهولة. كانَ قسمٌ كبير من النَّاس قد غادرَ منزلَه، وقسمٌ آخر اختبأ في الأقبيَةِ القديمَةِ تحت الأبنِيَة. وعندَما كانَ سايد يُقاتلُ في هذه النُّقطةِ شَرقيَّ البلدَة.. دَخلَ إلى أحدِ تلكَ الأقبيةِ يلتقطُ أنفاسَه، فإذا القبوُ يعُجُّ بالرِّجال والنِّساء والأطفال المذعورين، وكانَ مظهرُه مُخيفاً. قالَ:

"مرحبا يا جماعة. هل الجميع هنا بخير؟ هل تحتاجون لشَيْء؟ لن يطولَ الأمرُ أكثر.. وستنتهي الأمور عمَّا قريب".

فلمْ يَحرِ جواباً! وكانَتِ الوجوهُ تشخصُ إليه واجمةً. كانَ دَخيلاً غيرَ مرحَّب به، لقد رأوا فيه رُوحاً آتياً من جهنَّم. كلماتُه كانت مطمئِنَة، ولكنَّها لم تلقَ صدىً طيّباً.

عادَ وقال:

"هل هناك نقطة ماء يا إخوان؟ أريد أن أبُلَّ ريقي"

فدخلَ رجُلٌ وأحضَرَ قنّينةَ الماء، فشربَ سايد على إيقاعِ سمفونيَّةِ صمتِ الجميع المُريب، وصوتِ الرَّصاص والقذائِف في الخارج. وما إن أنهى شُربَه سَمِعَ صوتَ صَرخةٍ مخنوقةٍ من الدّاخل. فسألَ.. والعيونُ لا زالت بجُرأتِها ووجومِها تدفعُ بهِ إلى خارج المأوى:

"ما هذه الصَّرخة؟ هل هناكَ جَريح؟"

وحاولَ اقتحامَ الغرفة الدّاخليَّة، فوقفَ الجميعُ في وجهِه ومنعَهُ من الدّخول.

فعادَ ونادى:

"ما اسمُكَ؟ من أنت؟ إذا كانت إصابتُكَ بالغة.. صدِّقني بإمكاني أن أوصلَكَ إلى مُستشفى سيِّدَة المعونات بسلامة؟!"، فردَّ الصّوتُ منَ الدّاخل بتَحدٍّ:

"أنا الملازم أوَّل ظافر الهَبر.. لا أسمحُ لكلبٍ مِثلك أن يأخذَني إلى المستشفى؟! نحن أبطالٌ شُرَفاء نموتُ في المعركة يا هذا". فقالَ سايد بهدوء:

"إسمَعني جيِّداً يا ظافر. إذا وقعتَ بيَدِ الشَّباب لن يرحموك. قل لي ما مدى إصابتِك؟ إذا نزفتَ هنا ستموت. أنا أنقلُكَ شخصيّاً إلى مستشفى المعونات، وسأعملُ اتِّصالي أمامَك لتثِقَ بي. هه"

وسَحَبَ سايد الجهاز اللاسلكيّ الذي معه وتحدَّث:

"بول.. هل تقدرُ أن تدخلَ بسيَّارتِكَ لعندِ النّادي من جِهة كفرساله؟"، وأجابَ الصّوتُ وسمعَه جميعُ من في الملجأ:

" إنتظر ربع ساعة.. وأستطيعُ الوصول إلى البرّانيَّة أيضاً. لماذا السّؤال؟"

"ستنقلُ جَريحاً للجيش إلى مستشفى المعونات"

"أوكي.. ربع ساعة وأكونُ عند النَّادي".

فدخلَ رجُلان إلى الجريح الضَّابط ظافر الهَبر يتداولان معه بعرض هذا المحارب القوّاتيّ الغريب. فكانَ رَدُّ الضّابطِ الجريح:

"سوفَ آتي معه ليس لأنِّي أثِقُ به.. بل لأنّي أفضِّلُ الموتَ بشجاعةٍ على الموتِ نزفاً جُباناً في هذا الملجأ".

وهكذا أخذ سايد بذراعِ الضَّابط ووضعَها فوق كتفِه، وسارَ به زهاءَ عشرين متراً، وسمِعا صَوتَ الكومندكارات تقترب. فقالَ سايد للضَّابط:

''تعالَ ندخل هنا تحتَ الدَّرَج أنا وأنت'' واختبآ. ثمَ خرَجا ثانيةً وسارا خمسين متراً، وتعِبَ الجريح. قال:

''أشعرُ أنّه يكاد يُغمى عليَّ. لن ننجَح''. وكانت رِجْلُ الضّابط من الرُّكبة نزولاً قد نتفَها الرَّصاص، وهناكَ ثقبٌ عميق في الخاصرة لجهةِ الظّهر. قالَ الضّابط لسايد:

''لم أعد أشعرُ برجلَيَّ الاثنتَين.. لا أستطيع الوقوف''. ونظر سايد يمنة ويسرة، فرأى سيّارة رينو قديمة راكنة قربَ أحد المنازل تحت الشَّجَرة. فحملَ جريحَه إلى قربِها، وكسرَ الزّجاجَ وأدارَ محرِّكَها بسكّينِه، ونقلَ جريحَه بسرعةٍ إلى قربِ النَّادي وسلَّمَه إلى صديقِه بول. سألَ الضَّابطُ سايد:

''لماذا فعلتَ هذا؟'' فأجابَ سايد:

''مهما كان اللّيلُ حالكاً.. فلا بدَّ من نَجمَةٍ ترى في السَّمَاء''.

ثمَّ تابعَ إلى جُبيل ودخَلَ إلى متجَر سمانة، ومنظرُه يُرعبُ قبلَ أن يتلفَّظَ بكلمة! البَذّة المتّسخَة وآثارُ الدّماءِ والعرق والذّقن غير المحلوقة منذ أيّام، قال للبائِع:

''أريدُ كميَّةً كبيرة من علبِ جبنة بيكون ومُرطّبات وبسكويت ومُربّى راحة الحلقوم، وشويّة بن وسكّر''.

وفي عودتِهِ عرَّجَ على أحدِ الأفران وجلبَ عشر ربطات من الخبز، وطارَ إلى البرّانيّة ليركنَ السيّارة في المكان الذي سرَقَها منه، وإذا به يُفاجأ بعناصر قوّاتيّين قد أخرجوا النّاسَ من القبو، وأوقفوهم على الجدار. فاقتربَ سايد

وسألَ الضَّابطَ القوَّاتيّ:

"ماذا هناكَ ريِّس؟" فأجابَ الضّابط:

"هناكَ عسكريٌّ من الجيش يخبّئُونه في داخل الملجأ. ما هذا؟ لماذا هناكَ دماء على ثيابك؟!" سألَ الضَّابط مندهشاً، فأجابَ سايد بسؤال:

"هل قبَضتُم عليه؟ ماذا يقول هؤُلاء النّاس؟"، وأجابَ الضّابط:

"لقد أنكروا وجودَ عسكريٍّ جَريح. مع أنَّ هناكَ دِمَاءً على الأرض!! قالوا لنا أنّ هناكَ امرأة ولَّدَت بينَهم، وحدَثَ لها نزيف أثناءَ الوَضع" فانتهَزَها سايد مخلوف بذكاءٍ، وأدركَ بسُرعةِ بديهةٍ خلاّقة ما هو الجواب على سؤال الضَّابط عن الدِّمَاءِ على بذَّتِه:

"بلى.. وأنا الذي أوصلَ المرأةَ وطفلَها إلى مستشفى سيِّدَة المعونات بنفسي.. بسيَّارةِ الرّينو هناك". فقال الضَّابط:

"عفاك يا بَطَل"، ثمَّ اقتربَ ونظرَ إلى السَيَّارة وما فيها، وقالَ مازحاً:

"يبدو أنَّكَ عمِلتَ مثلَ أرسين لوبين أيضاً!"

"تقريباً" قالَ سايد، وأضاف:

"ولقد جئتُ لهؤُلاءِ النّاس ببعض الموادّ الغذائيَّة وقليلاً منَ الخُبز".

. وفي صباح اليوم التّالي كانت لا تزال المعركة دائِرَة في "وادي بنَقرَة"، ثمَّ اقتحَمَ القوَّاتيُّون مركزَ الجيش هناك، وسقطَ عناصر للجيش، وجُرِحَ اثنان فوَقعا أسيرَين، واقترَبَ أحدُ القوَّاتيِّين المتنمِّرين يريدُ أن يطلقَ النّارَ عليهما، فأوقفَه سايد وقال:

"توقّف يا هذا.. سأوصلُهما أنا بنفسي إلى المُستشفى". وعندما تدافعا استطاعَ سايد أن يردَعَه. ففضَّ المُشكلة من هو أعلى رتبةً في المجموعة:

"سايدْ خذِ الجريحَين إلى المستشفى.. ولكن ليسَ في الكومندكار"

فاتَّصَل أيضاً سايد بصديقِه بول:

"بول هل تستطيع إحضار سَيَّارتي من بعشتا إلى عمشيت؟"

وكان بول مرّةً ثانية خادماً لهذا الشّيطانِ الغريب الأطوار.

ربع ساعَة زَمان ووصلَ بول بسيَّارة سايد، وهي سيَّارَة مسروقة أيضاً، إلى رأس الطَّلعة. ووضعا الجَريحَين في السيَّارة وجلسَ بول بجانب السّائِق. وانطلقَ سايد بالسيَّارة وأوصلَ بول إلى منزلِه في بعشتا. ثمَّ استيقظَ الوَحيُ الشرّير فجأةً! بعدَ أن قالَ قيلولةً أثناءَ المعركة، وهمَسَ لسايد مُعاتباً ومُحرِّضاً:

"المعركة تنتهي ولم تَستفتِحْ منها بَعدُ يا أبو غَبْرَه بشَيْء! والأجواءُ سِتارةٌ جيِّدَة مَسدولَةٌ خِلقَة على أيِّ عَمليَّة مُحتملَة".

وما يملكُهُ السَّارقُ المبدِع من موهبَةِ الارتِجال يُغنيهِ عن التِقنيَّة والتَّخطيط الكثير، بل واجبٌ على كلِّ خارجٍ على القانون، ودائِماً أبداً، أن يكونَ إرتجاليّاً. لأنَّ المآزقَ والمفاجآت تتطلَّبُ نشاطاً عقليّاً مرناً ومروَحيّاً، تماماً كما قائِد الجيش في المعركة. فالسَّاحة دوماً عباءَةُ ساحرٍ تُخرِجُ الأرنبَ حيناً والثُعبانَ أحياناً. ونشطَ "غوغل دماغِهِ" باحثاً عن كلمَةِ مُرورٍ إلى عمليَّةٍ ملهَمَة.. ووجَدَها بسرعةٍ غوغليَّة! فانطلقَ سايد بالسيَّارةِ نحو الجبَل على طريق بلدةِ إدِّه خارجَ التَجمُّعاتِ السُكّانيَّةِ، وأطلقَ النّارَ على الجَريحَين، ورماهما خارجَ الطّريق. وهذه الحادثَة لا زالَتْ جَدَلاً حتى الآن! فأهالي البلدَة المذكورَة يُنكرون، وَبشكلٍ قاطع، العثورَ على جثَّتَينِ لعَسكريَّين أثناءَ

المَعركة، لا داخلَ البلدَة ولا في ضواحيها. ويُظنّ، وعلى الأرجَح، أنّ هذهِ الرِّوايَة من مبالغاتِ الكاتِب حمداش الجابري لتعظيمِ شَخصيَّةِ أبو غَبْرَه. ثمَّ عادَ سايد إلى أحَدِ معارض السَيَّارات في جُبَيل، ولاحَ أنَّ هناكَ رجُلاً واحداً في الدَّاخل، ولكنَّ المعرض لم يكن في وَضع عمَلٍ بسببِ الحالةِ الأمنيَّة. ركنَ السيَّارَة إلى جانبِ الطّريق، وناداه سايد من خارج السّياج:

"يا سيِّدي الكريم أريدُ أن أرى سيّارة"، فأجابَ الرّجُل:

"نحنُ اليوم خارجَ العمَل"

"المال معي كاش، سوف تقبضه دفعَة واحدَة كاملة حالاً، والسيَّارَة ليسَت لي بل لضابطٍ في القوّات، جورج مراد.. ألم تسمَع بهذا الاسم قطّ؟!"

والحقيقة لا وجود لضابطٍ قوّاتيٍّ يحملُ هذا الاسم البتَّة!

ومَرَقتْ كذبةُ سايد على هذا الرَّجُل، ففتحَ لهُ ليرَى السَيَّارة.

وراحَ سايد بفنونِ الكلام ومَعسولِه ووُعودِه يقنِعُه بأن يجرِّبَ السيَّارة عشر دقائِق. وكانت هذه الخطّة هي استراتيجيَّة "عامل الثِّقة". فسيَّارة سايد مركونة على الطّريق بجانبِ المعرض، وهي مسروقةٌ أيضاً، وأوراقُها مُزوَّرَة. فتسلَّلتِ الطمأنينةُ الوديعةُ إلى قلبِ البائع بمهارة وفنّ تعلبٍ خبير. وعقولُ النّاس جميعاً في تلكَ الأيَّام مشغولة بالأحوالِ الأمنيَّة، ولن يخطرَ لبالِ هذا الرَّجلِ أنَّها عمليَّةُ سرقةٍ من محاربٍ قوَّاتيٍّ في أشرسِ معركةٍ في فصولِ الحرب اللّبنانيّة الطّويلة، وكانتْ خاتمتَها. قال سايد للبائع:

"سألفُّ بالسيَّارةِ على الطّريقِ العتيقةِ لعشر دقائِق لا أكثر، وأعود".

وهكذا ترَكَ سايد مخلوف سيَّارَتَه المسروقة عندَ المعرض في جبيل، وانطلقَ بسيَّارةٍ BM جديدةٍ نظيفة نحوَ جهةٍ مجهولة. واختفى الشَّيطانُ لسنواتٍ لا أحدَ يعرف عنه شيئاً، واستراحتِ الأرضُ منهُ ومن شرُورِه. ثمَّ ظهرَ بعدَ ذلكَ التَجَلِّي التّالي لحارث مِلحم النَجّار الملقَّب بأبو غَبْرَه، في مدينة جونيه عام ١٩٩٧، في قناعٍ جَديدٍ هو حارث عبد الأحَد.

إسقاط ثالث

وَلَو عندَ التَّحِيَّةِ صَافَحُونا

لسَلُّوا مِنْ خَواتِمِنا الفُصُوْصَ

شاعر مجهول

جلسَ ذلكَ المحامي الغريب الأطوار عُصفور على الشُّرفة، تحتَ الشَّجَرة الوارفةِ الممتدَّةِ غصونُها فوقَ جسدِه المُرتخي، وبجانبه، وهكذا دائِماً، مُحفِّزاتُ عقلِه النَّهِم.. كأس ويسكي والسّيكار والبزورات. وفي داخلِه قوّة غامضة تحرِّكُه لدراسةِ حياةِ ودوافع سلوكيَّاتِ المشاهير من المجرمين. لقد كرَّسَ نفسَه، في نهايةِ المطاف، لمتابَعةِ الملفَّات والقضايا الشّائِكة إرضاءً لتلك الفضوليَّةِ المَسكونِ بها. إن هي إلاَّ لذَّةٌ غيرُ سويَّةٍ للغوصِ في القيعانِ السَّوداء، حيث تنمو طحالبُ الانحراف وأليافُ الرَّذيلة. وتهزُّهُ النَشوةُ العارمة إزاءَ الغرائبيَّات والتعقيدات والتحدِّياتِ الجريئَةِ للعقل والمنطق الطّبيعيّ. فهو يرمي من يدِه قضايا المُخدِّرات والتزوير والاحتيالاتِ العاديَّة.. تلكَ التي تُحرِّكُها دوافع الحاجة، ويفتِّشُ بالسِّراج والفتيلةِ عن جرائِم اغتصاب القاصرات، والقتل غير المألوف، والإرهاب، وابتزاز الأثرياء، والسَّطو المسلّح، وعمليّات النّصب الكبيرة والاحتيال الخلاّق، وتكوين العصابات، والتّهريبات الدُّوَليَّة، والجرائِم الغراميَّة الغامضة... إلخ، أي تلكَ الخَبْزاتِ

التي تعجنُها خَميرةُ العَقيدةِ والميولُ الفكريَّة والذَّكاءُ الخلاّق والعُقَدُ النَّفسيَّة. وقفزَتْ لائِحَةُ الجرائِمِ التالية أمامَ عَينيه، تَعرضُ نفسَها كمَلِكاتِ الجَمال يَخطِرْنَ أمامَ نفرٍ من ذوَّاقةٍ وعاشقي السِّحر الفتَّان:

عام ١٩٩٥ سرقة سيَّارات دبلوماسيَّة، إبتزاز سياسِيّ.

عام ١٩٩٨ تأسيس عصابة سرقة سيّارات، سطو مسلَّح على مصارف.

عام ١٩٩٩ إبتزاز نساء ثريَّات، تبييض أموال.

عام ٢٠٠١ تأسيس عصابة لتهريب السِّلاح والنِّفط والخمور خارج لبنان.

عام ٢٠٠٢ جرائِم مُخِلَّة بالآداب، وشبَكات دَعارة.

عام ٢٠٠٤ حماية عُمَلاء وإخفاء معلومات.

عام ٢٠٠٩ جريمة عاطفيَّة.

.... إلخ.

إن هي إلاّ أرواحُ العَبقريّاتِ السَّبع خرجَت من أجحارِها، معَ زواحفِ الصَّيف، باحثةً عن أجسادٍ آدميَّةٍ نجِسَة قابلة لاستيعابِ حِراكِها العنيف. لقد وَهبَ اللهُ الحيواناتِ المفترسَة أشكالاً مُخيفةً ذات هيبَة تناسبُ وظيفةَ الافتِراس، والحيواناتِ المُسالِمَة أشكالاً وديعةً تليقُ بدورِها كطرائِد! فشَكلُ النَّسرِ ليسَ كشكل الدَّجَاجة، ومظهرُ الذِّئبِ يختلفُ عن مظهر الغزالة، والضَّبعُ ليسَ كالأرنب، ولا النَّمرُ كالحِمار الوَحشيّ. يبدو أنّه لا بُدَّ من شكلٍ وحشيٍّ مُخيفٍ يوافقُ الرُّوحَ المتوحّشَة لكي يصلَ الفِعلُ العُدوانيُّ إلى كمالِه.

رَنَّ الهاتف عندَ المدعو حارث عَبد الأحَد، وهذا تَجَلٍّ وإسقاطٌ آخر لحارث ملحم النَجّار صاحب اللَّقب أبو غَبْرَه، في تلكَ الشُّقَّةِ الفسيحة المشرفة على الشّارع، في مدينةِ جونية قريباً من السَّاحَةِ القديمَة. فجاءَ حارث منَ المطبخ حيث كانَ يتناول فطورَه حوالي السَّاعة الحادية عشرة صباحاً. ليسَ لأنّه كسولٌ تأخَّرَ في نومِه! فهو أحياناً لا ينامُ أيّاماً وليالِيَ، ويركضُ كأنَّه النَّمِر عندما يكون في قلبِ عمليّةٍ من عمليَّاتِه المَخاضيَّة. بَلَّ يديه بسرعةٍ تحت حنفيَّة الماء، وأمسكَ سمَّاعةَ الهاتف في الصَّالون، وسمِعَ الكلمات التَّالية:

''أنا لم اسمَع بغيرِ اللَّقب.. أبو غَبرُه! فهل أبو غَبرُه معي على الخَطّ؟''

واضطرَبَت أحشاءُ حارث عَبد الأحَد..! فالـمُتكلِّمُ على الهاتف يعرفُ جيّداً أنَّ حارث عَبد الأحَد هو نفسُه اللَّقبُ الشَّهير أبو غَبْرَه!! فسأل حارث بنبرةٍ حازمة:

''منِ المُتَّصِل؟ لا أعرفُ أحداً يُدعى أبو غَبرُه، لقد أخطأتَ في العنوان''

''لا تخف.. أرجوك لا تقفلِ الخَطّ.. لقد أرشدَني ''الطَحِّيش'' إلى هذا الرَّقم.. وحمَّلني التَحيَّات والسَّلامات لأبو غَبرُه، والطَمأنَةَ من نحوي كثيراً''. وحاول المتَّصِل تهدئَةَ حارث.

''الطحِّيش!!'' تمتمَ حارث بدهشة.

''أجل.. وعندي لكَ عمَل جيِّد.. أنا بحاجة إليك، وخصوصاً إلى أناملِكَ الذَّهبيَّة''.

''لقد سمعتُ عن الطَحِّيش.. ولكنِّي لم أرَه في حَياتِي قطّ. ما نوع العمَليَّة؟'' سأل حارث.

''سرقة سَيَّارات عاديَّة لا أكثر'' أجابَ المتَّصِل.

''ولكن ألا يحقُّ لي أن أعرفَ مع من أتحدَّث حتَّى الآن؟''

''لا أستطيع أن أكشِفَ لكَ هويَّتي!! تماماً كما أنتَ أيضاً محُافظ على سريَّةِ هويَّتِك. بإمكانِكَ مناداتي.. بأحد الكبار!''

''سياسيّ أو اقتصاديّ؟'' سأل حارث.

''شَيْءٌ من هذا. متى نلتقي لنتحادث؟''

فأجابَ أبو غَبَرُة بنبرَةٍ ساخرَة:

''لا.. أنا من يُحدِّدُ المكانَ والزَّمان يا أحدَ الكِبار! فلستُ غبيّاً لدرجة أن أرميَ بنفسي في كمينٍ ببساطة.. وبيدِ أحدِ الكبار!''، فأجابَ المُتَّصل:

''تُعجبُني.. فأنا أريدُ ذكيّاً مثلك لضَمانِ نَجاح الشُّغل''

فقالَ حارث عندئِذٍ:

''أنا أتَّصِلُ بكَ وأحدِّدُ المكانَ والزَّمان. ولا تستعجلني''

''اتّفقنا صديقي''. ثمَّ سأل حارث:

''أليسَ هناكَ رَمزٌ ما.. على سبيل الاسم، لكي أناديَك به، هكذا فقط أحد الكِبار؟''، فأجاب المُتَّصِل:

''يمكنُكَ أن تناديَني بالكابتِن''

''ووسيلة الاتِّصال، أفضِّل أرقاماً خاصَّة'' قال حارث.

''سَجِّل هذا الرَّقمَ عندَك. هذا رقم المهمَّات الصَّعبَة''، وأعطاه رَقمَ

الهاتف. ثمَّ قالَ حارث:

"أنا رقمي انتهَتْ صلاحيتُه الآن.. ومنَ الغد سيكون عندي رقم جديد".

وبَعدَ ثلاثةِ أسابيع تقريباً يتَّصِلُ حارث عَبد الأحَد بالكابتِن، ويُحدِّدُ له مكانَ اللِّقاء. وسيكونُ اللِّقاءُ في مقهىً خشبيٍّ بدائِيّ، عندَ صديقٍ قديم لحارث على شاطِئِ بلدةِ الصَّفرا السَّاحليَّة. قالَ له:

"لن نلتقِيَ في المقهى حتماً. أركنِ السيَّارَةَ في الموقفِ القريبِ من المقهى، وتابعْ سيراً على الأقدام غربيَّ المقهى نحو البَحر حتى تصلَ إلى تخشيبةِ إتِرنيت صغيرة، أكون هناك أنتظرُك. ولتكن سيَّارتك عاديَّة، واللِّباسُ بسيطاً، والسَّاعة السَّادسةَ مساءً بالضَّبط"،

وهكذا كان.

وصلَ الرَّجلُ الكابتِن إلى تخشيبةِ الإترنيت بسيطَ الهندام واضعاً نظَّارَتَي رايبن سوداوين وذقنُهُ غير محلوقةٍ منذ أيّام، وفي الوقت المُعيَّن بدقَّة. كانَ هناكَ فتىً فقالَ له:

"إجلس يا سيِّدي.. سيأتي الباش قريباً".

وجلسَ الكابتِن على كرسيٍّ حجَريّ، كبيراً في ثوبٍ صغير! وانتظرَ وهو يشعلُ السّيكارَة تلوَ السّيكارَة، حتَّى بدأَ الظَّلامُ يُسدِلُ ستارتَه، والصَبيُّ يقول له بينَ حين وآخر:

"سيأتي الباش.. إصبر قليلاً".

وعندما اشتدَّ الظلامُ جيِّداً، حوالي التّاسعة تقريباً، حضرَ شابٌّ مربوع القامة وطلبَ من الكابتن مرافقتَه فقامَ وذهبَ معه، ودخلا في زقاقٍ قديم قريبٍ من الشّاطئ، ثمّ خرجا نحو السيَّارَة الرّاكنة، وأصعدَ الشّابُ الكابتن في سيّارتِهِ وقادَ به. فسألَ الكابتن:

''إلى أينَ تأخذني يا هذا؟'' فأجاب:

''إلى الباش حارث''

''أين؟''

''في نهر ابراهيم''

''ولماذا هذا اللفُّ والدَّوران كلُّه؟''

''الاحتياطاتُ ضروريَّة يا سيِّد كابتن''.

وخلال ربع ساعة كانَ ''الكابتن'' عندَ حارث عَبد الأحَد. فجلسَ الاثنان على فنجان قهوة، وقدَّمَ حارث سيكارة للكابتن فأبى، وفضَّلَ أن يشربَ من السَّكاير التي يحملها معه في جيبِه. سألَ الكابتن:

''ألم تسمَعْ شيئاً عنّي يا أبو غَبْرَه؟''

فأجابَ أبو غَبْرَه:

''ربَّما القليل.. هيَّا تكلّم.. ليس لدينا الكثير من الوقت''. وراحَ الكابتن يتحدَّث:

''بالمُختصر أريد ثلاث سيَّارات رانج روفر جديدة مسروقة. طبعاً ليسَ لكي أقودَها وأتمتَّع بقيادتِها، يُمكِنُنا شراء هذه السيَّارات.. ولكنَّ وظيفة

هـذه السيَّارات هـي في التَّهريب خـارج البلاد. سنزوّر لها أوراقَهـا ونُمَرّها بأسمـاء مستعارة، عنـدَ مُحترفـين''

''أي نوع منَ التَّهريبات؟'' سألَ حارث،

''ولماذا تسأل؟''

''لكي أقولَ لك إذا كانت صالحةً لهذا النَّوع من البضاعة''

''وأيّ بضاعة مثلاً لا تُناسبُها هذه السَيَّارات؟''

''تهريب السِّلاح!''

''كيف .. لم أفهم؟!''

''السّلاح لا نهرِّبُه في السيَّارات.. بل على ظهور الحمير والبغال في الجرود والغابات''

''يبدو أنّك لم تعمل في مجال التّهريب طويلاً يا أبو غَبْرَه.. وبالتَّحديد تهريب السِّلاح''، قالَ الكابتِن بتعالٍ، وعادَ فسأل حارث:

''والحرَكة من وإلى لبنان أليسَ كذلك؟''، فأجابَ الكابتن:

''أجَل.. في الاتِّجاهَين''.

وهزّ حارث رأسَه باستخفاف.. فهو يعرفُ أوَّلاً أنّ وسيلةَ التهريب يجبُ التخلّص منها فورَ انتهاءِ العمليَّة، وثانياً أنّ التهريباتِ الكبيرَة ليست بواسطةِ السَيَّارات عبرَ الطّريقِ المُعبَّدَة، بل في البراري والجرودِ البَعيدَة. واسمُ ''الطَحّيش'' هنا فقط جَعلَه يَطمئِنُّ لهذا الرَّجُل، ويُوافقُ على تنفيذِ هذِه العَمليَّة.

وخَفِيَتْ عن حارث عَبد الأحَد هذه المَرَّة.. حقيقةُ مَهمَّةِ هذه السيَّارات المَسروقة! هي حقّاً لتَهريبَةٍ ما، ولكن ليسَ لتمريرِها إلى التجّار، أو إرهابيّين، أو خدمةً لقضيَّةٍ سياسيَّةٍ مُعيَّنة.. فالغاية أبسَط من هذه بكثير!! إن هيَ إلاَّ قضيَّة ثأر بين متنافِسَين عدُوَّين على السَّاحة الدَّاخليَّةِ لا أكثر. هذا هو البُعدُ الرَّابع للموضوع باختصار. فالصِّغارُ يلجأون إلى الوسائِل غير القانونيَّة للوُصولِ السَّريع، وأمّا الكبارُ فيلجأون أيضاً للوسائِل عينِها لتخسير الآخرين ما وصلوا إليه، وفي المُحَصِّلة النِّهائيَّة فالطَّرَفان يَرتكبانِ الإثمَ عينَه. ولكنَّ الصَّغيرَ لا شمسيّةَ فوق رأسِه تحميه، والكبيرُ لا شيءَ فوقَ رأسِه يُخيفُه ويُحاسبُه، فيصبح القانونُ والحالة هذه اتِّفاقٌ افتراضيٌّ غيرُ مُبرَم للتَّنفيذ، إنَّه دائِماً أبداً، مُعلَّق إلى أجَلٍ غير مُسمّىً.

"هذه مسألة تخصُّني أنا يا أبو غبْرَه.. أنتَ أحضرْ لي هذه السيَّارات وكفى". ثمَّ سألَ حارث:

"وما هي المُكافأة؟" فأجابَ الكابتِن بابتسامةٍ خبيثة:

"أطلبْ وتَمَنَّ يا أبو غَبْرَه.. من هالعَين قبل هالعَين.. الرَّقمُ ليس عقبةً بيننا.. ما يهمُّني فقط هو عامل الوقت"

"ماذا تعني؟" سألَ حارث.

"أحتاجُ هذه الرَّانجات خلال شهر زمان.. ولا أكثر"

"مهلة قصيرة" قالَ حارث،

"ولن نضعَها في مكانٍ واحد.. واحدة في طرابلس، وواحدة في جبيل، وواحدة في أميون"

"طبعاً للحِيطةِ والحَذَر" قالَ حارث وهو ينفثُ دُخانَ سيكارتِه في الهَواء.

"ووسيلة الاتِّصال بكَ هذا الرَّقم الذي سأعطيكَ إيّاه.. ليس لي غيرُه الآن لهكذا عمليَّات" قالَ الكابتِن.

وانتهى التَّخطيطُ شبهُ الارتجاليّ لعمليَّةِ سرقةِ هذه الرَّانجات الثّلاثة، والخِبْرَة تعالجُ التفاصيلَ كلَّها. وأمّا غرفة العمليّات الحقيقيَّة لتنفيذِ هذا الاجتياح الإرهابيّ على رانجات روفر جديدة فاخرة.. ستكون عقلَ حارث عَبد الأحَد الخَلاّق، الذي إن أعيَتْهُ الحيلةُ يوماً.. يكنِ البديلُ دائِماً القريحيَّةَ الشَّجاعَة والسُّرعةَ في الأداء. وأدواتُ لعبَةِ السَّارق، دائماً أبداً، الشَّجاعةُ والصَّبر والمهَارة والذَّكاءُ الفِطريّ "وَرِجْلانِ في الرَّكضِ رِجْلٌ واليَدانِ يدٌ"[٦] إلى جانبِ القوَّة البَدَنيَّة، وحتماً، وكما في كلِّ مِهنة، لا بدَّ منَ الموهبَة والحَدس. بيدَ أنَّ حارث أبو غبْرَة فنَّانٌ بامتياز! فنَّانٌ في السَّرقةِ، في الخَديعَةِ، في الجَريمَة، في السَّطو المُسلَّح، في تَحدِّي القانون، في الحَياةِ السَّوداءِ، وفي الأخلاقِ السَّوداء. هل بمقدورِنا يا ترى أنْ نَصِفَ الجَريمَة بأنَّها فنٌّ أسوَد؟! وما أكثرَ اللَّونَ الأسوَد في المُسمَّيات! صُندوق أسوَد، حَجَر أسوَد، كِتاب أسوَد، سِحر أسوَد، ذهَب أسوَد، وأيضاً السُّوق السَّوداء..! فلِماذا لا تكونُ الجَريمَة هيَ الفنَّ الأسوَد؟! خصوصاً أنَّ ما سُمِّيَ بالرِّوايَةِ السَّوداء والسِّينما السَّوداء والرَّسم الأسوَد، وهذه فنونٌ أيضاً، تناولَ بعُمْقٍ موضوعاتِ الجَريمَة والجاسوسيَّة والدَّمَ والرُّعبَ والإثارَة العاليَة المُستوى. إذاً فالجَريمَةُ فَنٌّ ممسوخٌ أسوَد.

لقدِ استطاعَ حارث أن يسرقَ الرَّانجات الثَّلاثة، وخلالَ شهر بحَسبِ الاتِّفاق. فهو السَّاحرُ المُتخَفي الذي يجولُ في كلِّ مكان... فتختفيَ معَهُ

٦- وفعله ما تريدُ الكفُّ والقدَمُ. من قصيدة (واحَرَّ قلباه) للمتنبّي.

الأشيَاءُ إلى كواليسِ عالمِهِ المَسحور. سيَّارَة الرَّانج الأولى سرقها من موقف سيَّارات في جونية. لقد ارتدى لباسَ إحدى شركاتِ الفاليه باركينغ.. وأظهرَ نفسَه كأنَّه المسؤولُ عن الباركينغ، تحتَ حُجَّةِ أنَّ الشَّركة أرسلته وها هو في يومِهِ الأوّل في العمل. وانتظرَ حارثُ المسؤولَ الأصليَّ عن الباركينغ حيث تتردّد الضحيَّة وكانَ ملتهياً في غفلةٍ منه، وأقبلَ الرَّانج الذي يُريدُ سرقتَه، فأخذ حارث المفاتيحَ من صاحبهِ وقادَه إلى داخل الموقف. ولما اختفى صاحبُه داخلَ أحدِ المباني القريبة، خرَجَ بهِ حارث بهدُوءٍ.. وجاءَ بهِ إلى البدَّاوي في طرابلس، وأدخلهُ إلى مخبَئِهِ. وأمَّا السيَّارةُ الثانية فقد سرقها بخدعةٍ أخرى أكثر إبداعاً ودهاءً من سابقتِها. لقد راقبَ الرَّانج الذي عيَّنَه للسّرقة في الدّكوانة، وتسلّلَ وألصقَ قطعةً نقديَّة معدنيَّة بواسطةِ العلكة من داخل مسكة الباب لجهةِ السَّائِق. ثمَّ طارده حارث من الدّكوانة حتى بكفيّا، ومن بكفيَّا إلى النقّاش، ورُكِنَ أخيراً في الموقف، ونزلَ منه صاحبُه وأقفله بقفل الآلارم. ولكنَّ القطعة النَّقديَّة تمنع البابَ من الانغلاق بشكلٍ كامل. فوثبَ الفلاش مان حارث وفتحَ البابَ بسهولةٍ، وفي عشرين ثانية كان قد أدارَ المُحرّك، ولم ينقذ صوتُ جهازِ الانذار الرَّانج من ديناميَّةِ أبو غبْرَه الخاطفة، فانطلقَ بهِ إلى المكان المُعيَّن في مستيتا جنوبيِّ مدينة جبيل. وأمّا الرَّانج الثّالث فقد سرقه في بلدةِ زوق مصبح من تحت البناية على جنب الطَّريق حوالي السَّاعة الواحدة ليلاً. وأمَّا طريقة السَّرقة فكانت أنَّ حارث عمدَ إلى استئجار سيَّارة لنصفِ ساعةٍ من ذات ماركة الرَّانج الذي يريد سرقته، فنسَخَ المفتاح وأرجعَ السيَّارة إلى صاحبِها. ثمَّ تمكَّنَ أيضاً وبسحرٍ ساحِرٍ، أن يصِلَ إلى بطاقةِ ذاكِرَةٍ لسيَّارةٍ أخرى منَ الماركة عينِها، فبَرمَجَ بواسِطتِها مفتاحَهُ المنسوخَ منَ السيَّارَةِ الأولى، وخلالَ دقائِق! فيصبحَ بالتَّالي المفتاحُ المنسوخ الذي معه جاهزاً لسَرقةِ سيَّارةِ الرَّانج ساعةَ يُريد. وهكذا جاءَ حارث في اللَّيل وفتحَ السيَّارةَ وسارَ بها بهدُوءٍ إلى المكان المُعيَّن في أميون، حيث موعد

اللِّقاء بينَ حارث والكابتِن الكبير. ولكنَّ الأمورَ لم تنتهِ على خير!! فعندما كانَ حارث يقود السيَّارةَ نحو الشِّمال ليلاً.. اشتمَّ رائِحةً غريبةً في السيَّارة! ولم يخطر لباله أيُّ شَيءٍ خطير. وصلَ إلى أميون في السّاعة الثانية بعد منتصف الليل. وانعطفَ إلى زقاقٍ ترابيّ طويل يُحيطُه سَهلا قمحٍ من الجانبَين، وراحَ الحصى يتكسَّرُ تحتَ الدّواليب في ذلكَ الممَرِّ الطويل، وإذا الليلُ في هذا المشهدِ فضُوليٌّ صامت.. والنُّجومُ عذارى خائِفات.. والقمرُ ولدٌ مُغامرٌ جريء! وصلَ حارث تحتَ خيمَةِ القصَب، وكان الكابتِن يشربُ القهوة ويدخِّنُ السَّكائِر. نزلَ حارث من السيَّارة وقال:

"هناكَ رائِحة غريبة في السَيَّارة، لنرَ ما الحِكايَة"، فسأله الكابتِن:

"ماذا هناكَ يا أبو غَبرُه؟"

وفتَحَ حارث البابَ الخلفيَّ للرَّانج.. وشُدَّ ما كانتِ المفاجأة مذهلةً لأبو غَبْرَه والكابتِن معاً. إنَّها جُثَّة!! والجسدُ بارد.

"ما هذا يا أبو غَبْرَه؟! هل قتلتَ رَجُلاً لكي تسرقَ السيَّارة؟!" سأَلَ الكابتِن مذعوراً!

"لا لم أقتلْ أحداً يا كابتِن.. لا عِلمَ لي بأمر هذِهِ الجثَّة". أجاب مُضطرباً.

"ماذا سنفعل الآن يا أبو غَبرُه.. إنَّها جريمة قتل!!"

"ما بكَ؟ ألهذه الدَّرَجة أنتَ خائِف..! سأتخلَّصُ منها اطمئِنّ"

"ولكن كيف؟" سألَ الكابتِن بلجاجة

"سأدفنُها هذِه اللَّيلة في مكانٍ ما في البرِّيَّة"

"ولكن في مكانٍ بعيدٍ من هنا. في الجرود.. لا أدري.. لا تنقلْها إلى سيَّارةٍ أخرى، خذها بتابوتِها هذا"، قال الكابتِن.

وانطلقَ حارث عبد الأحَد بالجثَّةِ إلى الجُرود نحو الحَدَث وبْشَرّي. ولكنّه ما إن خرجَ من أميون وابتعدَ عنِ الابنيةِ والمساكِن في عمقِ التِّلال.. حتى رأى في المرآةِ أمامه سيَّارتين كبيرتين تتبعانِه ومصابيحَما كبيرة! فانطلقَ عندئذٍ بأقصى سرعةٍ ممكنة، وليسَ هناكَ مفارق أو أزقَّة أو مستديرات أو زحمة سير حتّى يستطيع ابتكار الحيلة فيتوارى عنهم في قرنةٍ ما. واستمَرَّتِ المُطارَدَةُ لنصفِ ساعة، من مُنعطف إلى آخر، ومن جبَلٍ إلى منخفض، ومن تلَّةٍ إلى وَهدَة، حتى سنحَتْ له فرصة وهو وراءَ أكمَةٍ على كتفِ الجبَلِ وعلى يمينه الوادي، ولم تَظهَرِ السيَّارتان بعدُ من وَرائِه، فأوقفَ السيَّارة إلى الجانب الأيمَن للطَّريق، وخرجَ منها، ودَفعها بجثَّتِها إلى الوادي نحو الصُّخور والأدغال في الأسفل، والمُحرِّك دائِر. وأمّا هو فركضَ إلى التلَّةِ لجهةِ الشِّمال وراح يعدو في البَرِيَّةِ بعيداً عن الطّريق العامّ. ثمَّ جلسَ وراءَ الصَّخرةِ عندَ رأسِ التلَّةِ ليراقبَ ماذا سيفعلون. لقد وصلتِ السيَّارتان.. وترجَّلَ منها سبعَةُ رجالٍ راحوا يتأمّلون السيَّارةَ المُحترقةَ في الأسفل، وجالوا بأبصارِهم في كلِّ اتِّجاه، ثمَّ صعدوا في سيَّارَتيهم، وتابعت واحدة نحو الجبال، وعادتِ الأخرى إلى السّاحل. وراحَ حارث عَبد الأحَد يسيرُ في البراري، تارةً سيراً وطوراً هرولة وأحيانا ركضاً سريعاً. وتعبَ كثيراً فجلسَ على صخرةٍ وقد استبَدَّ به العطش. كانَ اللّيلُ صافياً، والنَّيِّراتُ تُضِيءُ الدُّنيا كأنّه النَّهار، ثمَّ جاءَتِ الغيمة وحجَبَتْ نصفَ البَدرْ. وهبَّت من الوادي المُعتم أصداءُ عواءِ الذِّئابِ والثعالب البعيدة، وكلَّما سمِعَ حارث صوتاً قريباً كانَ يركضُ في الاتِّجاه المُعاكس، وحينَ تخفُتُ الأصوات يتوقَّف ويستريح. وفجأةً! خرَجَ حيوانٌ منَ الهيشَةِ القريبة وهجمَ عليه، تماماً.. كما يَهجُمُ هو على ضحاياه بلا رحمةٍ أو شفقة! ونطحَهُ نطحةً قويَّةً ورماه بينَ الأعشابِ الشّائِكة. وشعرَ حارث بدوارٍ قويّ، وكادت قواه أن تخور كليّاً، وبدأتِ الأشياءُ تذوبُ في ضبابٍ قاتم في عينيه. ولكنَّ الأقدارَ كتبت له عمراً جديداً في تلكَ اللَّيلة الصَّاخبة.

وعندَما وثبَ الضَّبعُ مرّةً ثانية إليه، أمسكَ حارث، كدفاعٍ غريزيّ، حَجَراً مسنَّنا بيمينِه كان قريباً منه صدفة.. وضربَ ضربةً بقوَّةِ ذراعِهِ الفولاذيَّة، شَجَّ بها رأسَ الوحش فسقطَ إلى جانبه ميتاً. لقد أصابَ رأسَ الضّبعِ صدفة أيضاً! ووقفَ حارث بجانب الوحشِ يتأمَّلُه لدقائِق.. وأسِفَ في قلبِه أنّه لن يستطيعَ إبرازَ مأثرتِهِ الأخرى تلكَ لأحَدٍ من البشَر. ثمّ تابعَ سيرَه بهدوء حتى لا يُثيرَ جُروحَه، إلى أن وصلَ إلى طريق إهدن عندَ بزوغ شمس الصَّباح. وكانَ الكابتِن قد اتَّصَلَ به مرّتين ولم يرُدَّ حارث على اتِّصالِه. فعمَدَ إلى خلع ملابسِهِ ما عدا الملابس الدّاخليَّة، وجمعَ أعشاباً وقضباناً وأغصاناً من الأشجارِ القريبة، وَحَشا بها الثيابَ لتبدو كأنَّها جُثَّة مُضرَّجَة بالدِّماء، ووَضَعها في نِصفِ الطَّريق، ثمَّ جلسَ كامناً على بعدِ أمتارٍ من الجثَّةِ المزعومَة. ومَرَّت سيَّارَة شاحِنة صَغيرَة في اتِّجَاهِ الجُرْد تحمِلُ حديداً في قلاَّبِها. فتوَقَّفت بَعيداً عن الجثَّةِ الدُّميَة حوالي عشرة أمتار، وفتح السّائق ونزل من السيّارة دون أن يطفئَ مُحرِّكَ السَيَّارة، فوثبَ الشَّيطان حارث بلباسِه الدَّاخليّ إليها، وانطلقَ بها إلى الأمام عشرين متراً، ثمَّ استدارَ في نصفِ الطَّريق وعادَ نحو السَّاحل. حاولَ صاحبُها إيقافه ولكنَّه فشِل، وصدمَه حارث بجنب السيَّارة صدمةً ليسَت خطيرةً وطرحَهُ إلى جانِبِ الطَّريق. وهو بعدُ في شِكَّا اتَّصلَ به الكابتِن ثانيةً ولم يرُدَّ حارث أيضاً بسببِ شكوكٍ راحت تلكزُ عقلَه من هذه العمليَّة الغامضة والفاشلة، مبدَئيّاً! ثمَّ هاتفَ حارث صديقه سهيل في البترون ليوافيَهُ إلى مستشفى شكَّا، ويُحضِرَ معه لباساً ولباساً داخليّا ومالاً.

سأله الصَّديق سُهيل:

"ماذا حدَثَ لكَ؟"، فأجابَه حارث بفخر، وكأنَّ كلَّ ما بقيَ من ليلةِ أمس هو هذه:

"لقد قتلتُ ضَبْعاً بحَجَر".

ثمَّ دخلَ حارث الطَّوارئَ في مُستشفى شكَّا وبقيَ يومين يعالجُ جُرحَ فخذه. ولكن في ظهيرة اليوم التالي اتَّصلَ الكابتن للمرَّةِ الثالثة، وردَّ عليه حارث. سألَ الكابتِن بصوتٍ خافت:

"أين أنتَ يا رَجُل؟! طمئِنّي عنَّك.. أين أنتَ؟! لماذا لا ترُدّ؟" فأجابَ حارث بكلماتٍ شبهِ صامتة:

"أنا في مشتشفى سيِّدَةِ المعونات في جبيل. لقد تعرَّضتُ لكمينٍ واستطعتُ النَّجاة" وكان يكذبُ عمداً، لأنَّه فقدَ الثِّقة بالكابتِن وحقيقةِ نواياه.

"سآتي إليك حالاً" قالَ الكابتِن،

"لا.. لا تأتي.. لا لزومَ لهذا اطمئِنّ.. الأمور جيّدة"

"هل حالتك سيّئة؟" سألَ الكابتن أيضاً،

"لا.. الجُرح طفيف والحمد لله"

"والجثَّة! والسيَّارة!"

"لقد احترقتِ السيَّارةُ والجُثَّةُ معها في الوادي"، فأجابَ الكابتِن مضطرباً:

"ماذا؟! أوووف. الوضع خطير يا حارث.. بل كارثيّ.. يجب أن تختفِيَ عن الأنظار أرجوك. لقد سمِعتُ أخبارَ الصَّبَاح.. وقالوا أنَّ الملقَّب أبو غَبرَه هو قاتلٌ مأجور لابن الاقتصادِيّ المعروف س.ط."

"هكذا إذاً" قالَ حارث وأضاف:

"لا تهاتفني يا كابتِن أرجوك.. قبلَ أن أتَّصِلَ بكَ أنا"

"وهو كذلك.. سلامتك".

خرجَ حارث من المستشفى، وراحَ يفكّرُ في الذي حدث له وكانَ خارجاً عن حساباتِه وتوقّعاته كلّها. أوّلاً هذه الجثّة التي انبَثَقت منَ العدَم مع مراقبتِهِ الدّقيقةِ لسيّارَةِ الرّانج روفر قبل سرقتِها. ثمّ هاتان السيّارتان اللّتان لحِقتا به في الجُرود ليلاً.. كأنّهم يعلمون بأمر هذه الجثّةِ وهم يطاردونها!! هل السيّارتان تطاردان الجثّةَ أم السيّارَةَ المسروقة أم أنا؟! هل يعلمونَ بأنّي ذاهب إلى الجبال لأدفِنَ الجثّة؟ ثمّ السّؤال الأهمّ.. هل للكابتِن يدٌ في القضيّة؟! كلّ هذه التّساؤُلات كانت تناطح رأسَ حارث الذي يحسبُها دائماً بدقّة.. وها هي الآن تتمرّدُ على حساباتِه الدّقيقة، وتفرُّ من قبضةِ ذكائِهِ المُغامر. ماذا يدورُ هنا؟ ثمّ الطّامةُ الكبرى.. يُزَجُّ اللّقَبُ أبو غَبْرَه في جريمةِ قتلٍ لا عالبال ولا عالخاطر! فتوارى حارث عن الأنظار لأيّام.. وانتظرَ حتى تُرفعَ ستارةُ الوضوح عن أمرِ هذه الجُثّة.. وابنِ الاقتصاديّ المعروف س.ط. هذا، ولماذا أبو غَبْرَه هو الجاني؟!

واختبأ حارث في بْعِرزال لأسبوعين، لا يجرؤُ على الظّهور في مكانٍ ريثما تنجلي الأمور، فيضعَ خارطةَ طريقِ المرحلة المقبلة، ويرسمَ ملامِحَ التّجلّي والتَجسُّدِ الجديد الذي سوف يرتديه. وكانَ حارث ينام عند صديقٍ له في بْعِرزال، خبيرٍ ضليعٍ في عمليّاتِ التّزوير واستنساخ الوثائِق والصُّوَر والأوراق الهامّة. وراحَ يُحضِّرُ شَخصيتّهُ ودورَه الجديد.

كان يتمشّى في عصر ذلكَ اليوم يُفكِّر وهو ينفُثُ الدُّخانَ في الفضاء، ويُحلِّلُ دَورَ الكابتِن في كلِّ ما جرى ويجري له:

"هل الكابتِن وَشَى بهِ للأجهزة؟"

"هل هناكَ علاقة ما.. بين الكابتِن والاقتصاديّ المعروف س.ط.؟"

"أهناكَ صراع بينَ الكابتِن وهذا الاقتصاديّ المنحوس؟"

"أم ترى هناكَ طبخَة ما بين الرَّجُلين؟"

"وما هو موقِع أبو غَبرُه في هذِه الطَّبْخَة؟"

"أم لا علاقة البتَّة بين المِحورين.. وبقيَ والحالة هذه أن يعرفَ ما سِرّ هؤلاء المُطاردين في تلكَ اللَّيلة التاريخيَّة؟".

وكان حارث ينتظرُ في بْعِرزال كالذِّئبِ البائِتِ في وكره. وبْعِرزال منتجَعُ الخارجين على القانون، ويُصيبُ يدَ القانون خَدَرٌ عجيبٌ في هذه البقعة من البلاد! وكما أنَّ هناكَ في الجسم الزّائِدَةَ والطِّحال، هكذا في كلِّ المجتمعات هناكَ مربَّعاتٌ ودوائِر ترفدُها العناصرُ غيرُ المنسجمَةِ طبيعيّاً مع المجتمَع.. وتسمّى هذه البُقَعُ بالمُرَبَّعاتِ الأمنيَّة. وهذا اسمٌ على غير مسمّى! لأنَّ هذه المربَّعات لا أمنَ فيها البتّة. إنَّها كالإسفنجَةِ تمتصُّ من المجتمَع المرفوضاتِ المريضَة والمارقين على الشَّريعة.. ثمَّ وللأسَف.. تعودُ وتضُخُّ التَّسميماتِ داخلَ تركيباتِهِ الصَّحيحَة. شَرٌّ في الاتِّجاهَين. في الطِّحال مثلاً، والذي يُستغنى عن وجوده، هو مخزنُ الدَّمِ الميِّت والمرفوض، ولكنَّه يفيدُ في ضَخِّ دمٍ جديد للجنين، هكذا هيَ المربَّعات تؤوي المرفوضات.. ولكنَّها تُصنِّعُ ليسَ دماً جديداً نقيّاً، بل جراثيمَ وسموماً تحقنُها في جسدِ المُجتمعات، إن هيَ إلاَّ أورامٌ سرطانيَّة اجتماعيَّة مُخيفة! بْعِرْزال كتلةٌ اجتماعيَّة مُهترئَة تؤوي العصابات والخارجين على القانون، وفيها تُهَندَسُ التَّصميماتُ العبثيَّةُ التي تصدِّرُ الخرابَ في كلِّ مكان. وبْعِرْزال مُلهِمَةٌ للعبقريّاتِ الجانِحَة! فراحَت هنا عبقريَّة حارث تبحثُ لها عن خُطَّةٍ لاستكشافِ سَراباتِ المرحلةِ الآتيَة. بالنِّسبةِ إلى الكابتِن فهو

لن يمنحَه الثِّقة البتَّة، وقد اتَّصلَ برَجُلين من أصدقائِه في طرابلس ليُراقباهُ ليلَ نهار ودقيقةً بدقيقة، ويضعا لائِحَةً برَوحاتِه وجيئَاتِه مُفصَّلةً مُملَّة. وأمّا بالنِّسبةِ إلى مَقتل ابن الاقتصاديّ المعروف س.ط. فلا بدَّ من محامٍ بارع يعمل على ملفِّ هذه القضيَّة. وهكذا انتظرَ حارث ليُعلِنَ الإعلامُ عن هويَّة المُحامي الذي وكَّلوه بهذا الملفّ. وهكذا كانت "الرُّؤيا" المُلهَمَة.. العمل على خطَّين متوازيَين: الأوّل هو فهمُ حراك ونوايا ومشاريع الكابتِن، والثاني فهمُ مُلابسات وتخميناتِ جريمة ابن الاقتصادِيّ س.ط. وسوفَ يَبني على الشَّيْءِ مُقتَضاه.

وذاتَ مساءٍ.. حوالي السّاعة التاسعة، وبعدَ درسٍ دقيق لعمليَّةِ خطف المُحامي عسّاف بدر الدِّين الموكل بقضيَّة ابن الاقتصادِيّ المعروف س.ط. والذي يسكن في بلدة غزير الكسروانيَّة، هجمَ حارث ومعه رجلان في سيّارة واحدة على الرَّجُلِ المذكور، وهو خارج من مكتبهِ في سنّ الفيل، وخطفوه. كانَ رجُلا حارث قد عمدا إلى تخريبِ مُحرِّك السيَّارَة عن طريق قطع أسلاكٍ كهربائيَّة بواسطة مقصّ معدني طويل من تحت السَيَّارَة، ودون اللّجوءِ إلى فتح غطاءِ المُحرّك. نزل المُحامي عسّاف من مكتبه، وكان وحدَه، ولو كان معه أحد لأُرجئَتِ العمليَّة بلا شكّ. حاولَ إشعال الكونتاك فلم يَدُر المُحرِّك، ففتحَ غطاءَ المُحرِّك ونزل ليرى ما الحكاية، فوثبَ عليه الرِّجال الثلاثة وكمُّوا أنفه وخدَّروه بمادَّةٍ مخدِّرة، وأدخلوه في سيَّارتهم، وأطفأوا هاتفه الجوَّال، وطاروا به إلى جرود جبيل، إلى وَكرٍ في براري اللقلوق/العاقورة.

وكانَ الطّقس بارداً في تلكَ اللّيلة. فأشعلو مدفأةَ المازوت وراحوا يشربون القهوة والشّاي. وكانَ المُحامي عسَّاف لا زالَ مقيَّداً مُخدَّراً ومعصوب العينين في غرفةٍ قريبة. ومرَّ الوقت.. وانتظرَ حارث حتى يستفيقَ المُحامي

من غيبوبتِه.. واستفاقَ أخيراً. ثمَّ دخلَ حارث إلى المُحامي واضعاً شاربَين ونظّارَتين سوداوَين وكوفيَّةً حمراءَ حولَ رأسِه ووجهِه.. لكي يُبقيَ هويتّه غامضةً للمُحامي! وما إن رآه المُحامي حتى راحَ يهذي مذعوراً:

"من أنتَ؟! ماذا تريدون منّي؟! أطلقوا صراحي أرجوكم عندي عائِلة وأولاد.. أنا أعمل بضميري خدمة للقانون". فقال له حارث وهو يُطمئِنُه:

"إهدأ يا ميتر.. لن نؤذيَك البتّة.. وسترجع إلى عائِلتِكَ معزَّزاً مكرّماً. ولكن.. لم نرَ مكاناً مُناسباً نتحادث فيه بهدوء غير هذا المكان.. بعيداً عن ضجيج المدينةِ لا أكثر". فقال الميتر عسّاف مضطرباً:

"نتحادث في ماذا؟!"

"قضيَّةِ ابن الاقتصاديّ س.ط. والتباساتِها الغامضة.. فأنا أعرف أنّك صرتَ مُلِمّاً بتفاصيل كثيرة حول الموضوع".

"ولكن.. من أنت؟ ما علاقتُكَ بالقضيَّة؟"، فأجابَ حارث بصوتٍ هادئٍ أجشّ، ورفع النّظارتين وقرَّبَ وجهَه من المُحامي وجحظَ عينَيهِ لكي يبُثَّ الخوفَ في نفسِهِ:

"أنا المتّهَم الأوَّل بهذه الجريمة ميتر.. ولا علاقة لي بها لا من قريب ولا من بعيد!"

"ماذا..! هل أنتَ حامل اللّقب أبو غَبرُه؟!"

"أبو غَبْرَه بذاتِه.. وأنا لستُ قدّيساً ميتر.. ولكنَّ هذه لا دخلَ لي بها". واقتربَ حارث من المُحامي ثانيةً وسأل بنبرةٍ حادَّة مُخيفة:

"لماذا زُجَّ باسمي في هذه القضيَّةِ أيُّها المُحامي اللاَّمع؟"

"لا.. أرجوك.. لا أستطيع.. فالتَّحقيقات لها سريَّتُها.. وو.."

"و ماذا أيُها المُحامي؟ أتوافقُ أنتَ على اتِّهام بريءٍ في جريمةِ قتل؟"

"قلتُ لكَ لا أستطيع.. الموضوع أكبر منِّي ومنكَ.. صدِّقني لا أستطيع شيئاً"

"لا أعترفُ بأحد أكبر منِّي سوى رَبّنا يا هذا. قل لي بهدوء.. لماذا هناكَ من يريد إلباسي تهمة قتل هذا الفتى.. وما سرُّ هذه الجريمة؟ تكلَّم هيّا. وإلاّ لجأتُ إلى أسلوبٍ أكثر فائِدة من الكلام"

"لا أستطيع.. لا أستطيع.. الموضوع أكبر منِّي!! قد اتعرَّض للأذيَّة"

"وهنا أيضاً ستتعرَّض للأذيَّةِ ميتر، وأنتَ المُحامي النّاجح الذي يُعالجُ القضايا الصَّعبَة، قد تذوقُ مراراتِ الإذلال على يدِ حقير مثلي"

"لا.. لا.. أرجوك.. أنا في موقفٍ صعب!"

ثمَّ راحَ المُحامي عسَّاف يتمتمُ شبهَ هاذٍ، وعيناه تدمعان. قالَ حارث:

"أيبكي الرِّجال يا أستاذ عسّاف؟ يا حيفي عالرِّجال! أنت الذي تبرِئُ المذنبَ، وتذنِّبُ البريءَ في صولاتِك وجولاتِك تحت قوسِ المَحكمَة. قل لي الحقيقة، وتعود إلى بيتِكَ سالماً مُعافى".

فنطقَ الميتر عسَّاف، كلاماً متقطِّعاً.. وبين الكلمةِ وأختِها كلمتان "بالحِبرِ السِرِّيّ":

"هناك ثأرٌ عمرُه سنوات قليلة بين الاقتصاديّ المعروف س.ط. ورجُلِ أعمالٍ شابّ بارز في الشِّمال.. يُعرَف بالكابتِن"، وعندما لفظ المحامي كلمة (الكابتِن) قال حارث بنبرةٍ هادئَة:

''الكابتن! لقد توقَّعت هذا. تابع يا ميتر''، وتابع الميتر كلامَه:

''وقد حاول الكابتن خطفَ ابنِه ليبتزَّه في معلوماتٍ ووثائِقَ تخصُّه وتطالُ رأسَه''

''أجل.. تابع''

''وأرسلَ الكابتن رجاله ليَخطفَ الفتى.. وحدث خطأٌ ما في التَّنفيذ.. فأصيبَ الفتى وتوفيِّ قبلَ وصولِهِ إلى الـمُستشفى!''

''هكذا إذاً'' تمتمَ حارث بنبرةٍ خبيثةٍ، وقالَ أيضاً:

''ثمَّ إرادَ إلصاقَ جريمةِ القتل هذه بأبو غَبْرَه.. أليس كذلك؟ لقد جَعلَ منِّي مِمسَحةَ فشلِهِ''

''هذه هي الحقيقة'' أجابَ الـمُحامي عسّاف. ثمَّ أضافَ أيضاً:

''لقد مارسَ نفوذاً قوياً لأقودَ أنا ملفَّ هذه القضيَّة، وأتَّهِمَ المَدعو أبو غَبْرَه ويبدو أنَّه أنت، وأضعَ الجريمةَ في إطار القتل والسَّرقة. يجبُ أن يكونَ كبشُ الـمُحرقَة لِصّاً عتيقاً مُحترفاً''

''يا أخو هيك وهيك لأعمِل لسَوِّي فيك'' صاحَ حارث بغضبٍ وهو يخبطُ قبضتَه في الجدار''. وتابعَ عسَّاف:

''لقد اتَّصلَ بي الكابتن وعرضَ عليَّ مبلغاً خياليّاً، وتهديداً بأذيَّتي بأيّ شكلٍ يراه مناسباً.. أقلّه في عملي. والحقيقة أنَّ المبلغ أغراني كثيراً، فقبِلت. هذه هي الحقيقة''

''ولكن.. كيف وصلتِ الجُثَّة إلى السيَّارة؟!'' سألَ حارث مُحتاراً. فأجابَ الميتر:

"صاحبُ السيَّارَة وضعَ الجُثَّة فيها.. بالتَّنسيق مع رجال الكابتِن الذين كانوا يراقبونكَ. وقد قبَضَ مبلغاً مرقوماً.. وغادرَ البلاد، مَرحليّاً""

"هكذا إذاً.. لقد درسَها جيّداً ابنُ القحبة!! لقد اتَّضحَ كلُّ شَيءٍ الآن، ولدينا خطَّة للعمَل يا شباب"، فسأل المُحامي:

"وأنا؟"

"أنت ستعود إلى بيتِك"

"لقد افتُضِحَ أمري! لقد هلكت!!"

"لا يا ميتر.. لن يحدُثَ لكَ مَكروه.. أعدُكَ بهذا.. لأنَّ المكروهَ سيطال الكابتِن حتماً".

وهكذا أعادَ الرِّجالُ المُحاميَ عسَّاف في صباحِ اليومِ التّالي، معصوبَ العينين إلى السَّاحل، وتركوه على الأوتوستراد، وقالوا له: "دبِّرْ راسَك.. معكَ هاتفكَ الخليويّ".

وأمّا "مالئ الدّنيا وشاغل النّاس" فقد وضعَ خطَّةً مُحكمَةً للنَّيل من الكابتِن. وانتظرَ بهدوءٍ خبيرٍ ليتَّصلَ به الكابتِن، وتركَ الطريدة تأتي من نفسِها إلى الكمين. وهكذا صار. وفي ثلاثة أيَّام يتَّصلُ الكابتِن به، ويقول له:

"أين أنت يا أبو غَبْرَه.. بمقدوري أن أهرِّبَكَ خارجَ البلاد.. تعالَ لعندي بنفسِكَ وخذ أجرَةَ هذه العمليَّة.. وضَعِ الرَّقمَ الذي تريد، وقد هيَّأتُ كلَّ شَيءٍ لأخرجَكَ عبرَ الحدود تحتَ حِمَايتي"

فكانَ جواب أبو غَبْرَه بدهاء:

"حسناً، كما تريد يا كابتِن، والمالُ أريدُه في حقيبةٍ سوداء مرتَّبة، كيفَ نلتقي؟".

ثمَّ حدَّدَ أبو غَبْرَه سِعرَهُ، وأعطاه الكابتِن عنواناً في بلدةِ العَبدِه في عكّار بعيداً عن الطّريق السَّاحلي الرَّئيسيّ. وكانَ اللّقاءُ بعد يومين، السّاعة العاشرة ليلاً.

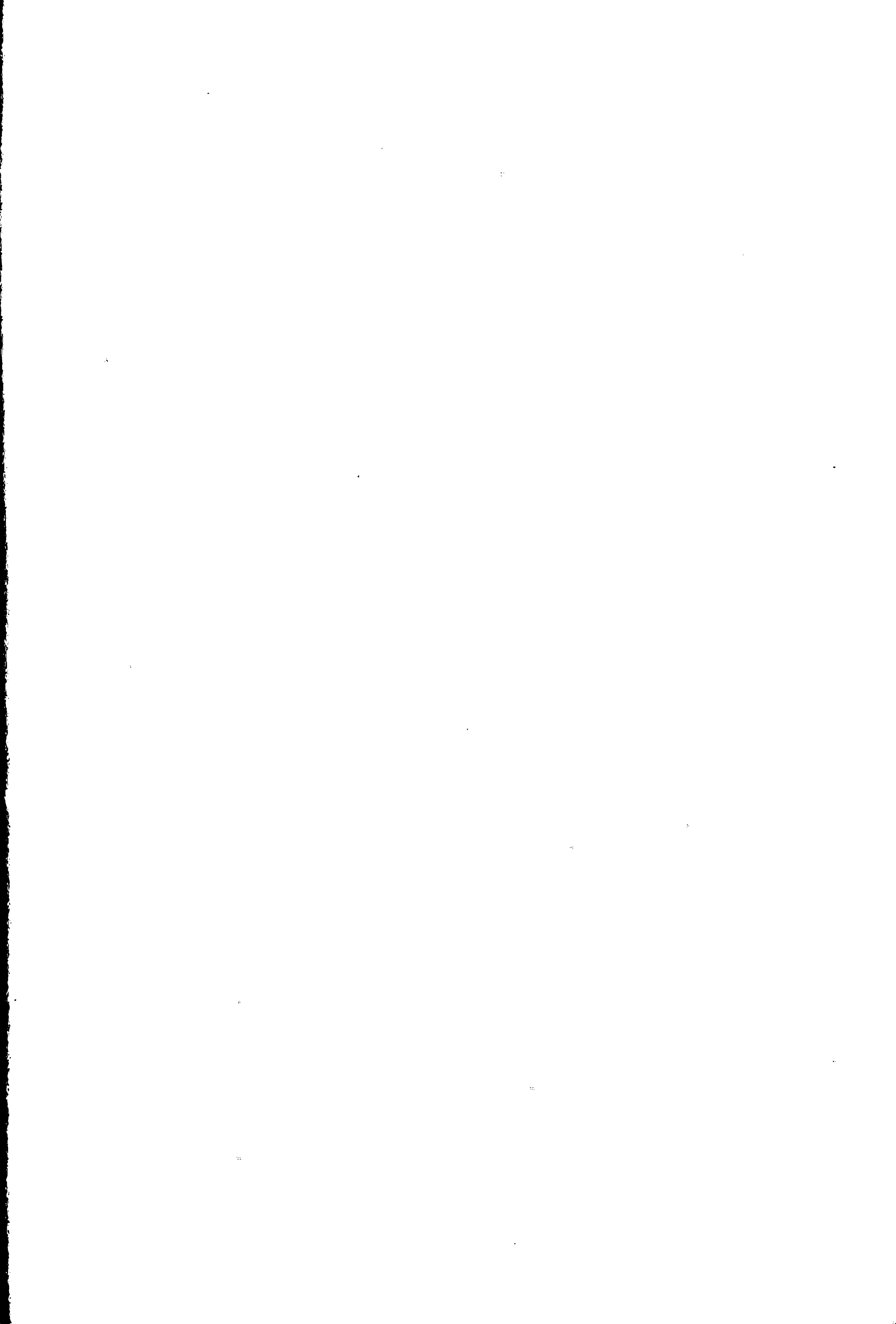
ثمَّ أرسلَ حارث فاكساً إلى عنوانِ مكتبِ الاقتصاديِّ س.ط. يقول فيه:

"رسالة من مجهول. هناكَ معلومات تفيد أنَّ المُلقَّب أبو غَبْرَه هو أحَدُ رجال الكابتِن الأقوياء ورأسُ حَربتِهِ الخطير! والكابتِن غريمُكَ القديم هو قاتلُ ابنِك بواسطةِ المَدعو أبو غَبْرَه. ويومَ الخميس في تاريخ... السَّاعة العاشرة ليلاً في بلدةِ العَبْدِه السَّاحليَّة، عكّار، سوفَ يقبضُ أبو غَبْرَه مالَه، لتتِمَّ بعد ذلكَ عمليّةُ ترحيلِهِ خارج البلاد".

وقبل الموعد بساعَتين كانَ أبو غَبْرَه واثنين من قنَّاصتِه الصُّقور يكمنونَ كلَّ واحدٍ في زاويةٍ على بعد عشراتِ الأمتار من المكان المُعيَّن، يحملون بنادقَ حديثةً كاتمةً للصَّوت مُزوَّدَة بمناظير وعَدَساتٍ صفراءَ للرُّؤيةِ الليليَّة.

وكانَ الكابتِن بدورِهِ أيضاً، قد اتَّصلَ بالاقتصاديِّ س.ط. عبرَ وَسيط، ليقولَ له أنَّ أبو غَبْرَه قتلَ ابنَك لكي يسرق، وأنا بمقدوري ومُستعِدّ أن أسلِّمَك إيَّاه. وزَوَّدَه بالعنوان نفسِهِ الذي قالَ لأبو غَبْرَه عنه! ولا دارَ في خلَدِه قطّ، أو شعرَ بما يُحيكُهُ له دهاءُ أبو غَبْرَه الخارق. ولكنَّ الاقتصاديّ س.ط. لم يُصدِّقْ هذه الخَبَريَّة كما وردت في الفاكس! وكانت نهايةُ هذا الكباشِ الطّريفِ على النّحوِ التالي:

"جاءَ الاقتصاديُّ س.ط. في موكبٍ من ثلاث سيَّارات، والكابتن كانَ منتظراً في الدّاخل ومعه ثلاثة رجال فقط. وحاصرَ الاقتصاديُّ البناءَ المؤلَّفَ من طبقتَين، ونزل رجالُه جميعاً من سيَّاراتِهم شاهرينَ بنادقَهم.. فأطلقَ أبو غَبْرَه وَصَقراهُ النَّارَ من كمائِنِهم على الجميع، وسقط الجميعُ قتلى. وتوقّفوا عن إطلاق النَّار. وبعد ربع ساعةٍ من الهدوء حاول الكابتِن الهروبَ مع رَجالِه الثلاثة من الجِّهةِ الخلفيَّة، فأرداهُم أيضاً قنصُ الصُّقورِ الذي لا يُخطئُ البتَّة! ثمَّ دَخلَ القنَّاصَةُ إلى المبنى وفتّشوه.. وفتّشوا أيضاً في السيَّاراتِ الثلاث فلم يَجدوا الحَقيبَةَ السَّوداء، فسَرَقوا السّياراتِ الثلاث ولاذوا بالفرار إلى جِهةٍ مَجهولة. وانتَهَتْ أسطورةُ هذا التَجَلّي المُرعِبِ لأبو غبْرَه حارث عَبد الأحَد، ولسَنوَاتٍ طويلةٍ أيضاً.



إسقاط رابع

العَبقريَّة أن يتفوَّقَ المَرءُ في مَزيَّةٍ واحِدَة،

وأمّا النبوَّة فهيَ التفوُّق في مزايا كثيرة.

مجهول

كانتِ السَّاعةُ الخامسة عصراً..

في ذلك المقهى العَصريّ ذي الدِّيكورات الغريبَة عندَ زاويةِ الشّارع، وموسيقى الجاز القديمَة تشنِّفُ الآذان.

ولكنَّ مكاناً مثلَ هذا مُلهمٌ ممتازٌ لروحِ المحامي الواغلة في بقاعِ الجريمةِ الواسعَة، ومَصدرُ انتعاشٍ روحيٍّ له!! كانَ الميتر يتردَّدُ إلى هذا المَقهى من وقتٍ لآخر فيشربَ القهوة ويستردَّ ما تبدَّدَ من طاقةِ دِماغِهِ خلال عمَلِ النَّهار الطّويل. ولكنّه الآنَ في انتظار صديقٍ لحديثِ عَمَل. ففضَّلَ المجيءَ قبلَ ساعةٍ من الموعدِ المضروب ليقرأ قليلاً في تلكَ المدَوَّناتِ والوثائِق المختصَّة بأبو غبْرَه، وسِندبادِيَّاتِهِ الجَريئَةِ الصَّاخبَة. فبدا له أنَّ هذا الرَّجُلَ يتمتَّعُ بمواهبَ ومناقب جيِّدَة: الشَّجَاعة والذَّكاء، سرعة الخاطر وطلاقة اللّسان، المهارة في التَّمثيل وارتجال السِّيناريوهات، روح القيادَة والحَدس إلى

جانبِ خبرةٍ عمليَّة في السيَّاراتِ والأسلحة والكحول والـمُخدِّرات والأبنيَة والعقـارات والتِّكنولوجيا. إنَّهُ كوكتيل عظيم من الامكانات لـو اجتمَعَ لإنسـانٍ نَشأَ نشأةً صحيحة جيِّدَة لـكانَ ربَّما قائِداً إدارياً ناجحاً. لكنَّ مصيبةَ أبو غَبْرَه هي تلكَ الطفولةُ اليتيمَة المُبعثرَة، والتي رَمَتْ بهِ في بؤرةِ الحَربِ والجَريمَةِ والخروج عن القانون، فأورَثتْه جُملةً من الأمراضِ الخطيرة: (الوسواس القهريَّ إزاءَ مشهدِ النُّقود، الحقدَ المُزمنَ على الأغنياء، الحقدَ على الدَّولةِ بِرموزِ القانون، محاولة إثبات الذّات من خلال المغامرات المجنونة، النَّظرةَ السيِّئَة جدّاً للمَرأة، تمحورَ الحياة حول اللذَّة، تمجيدَ القوَّةِ وعبثيَّةَ الحَيَاة والـلا جَدوى). وفي نهايةِ المطاف.. رأى الميتر أنَّ حارث أبو غَبْرَه هـذا حمَلَ منذ أعوامِ طفولتِهِ المشوَّهَة، نقاطَ قوَّتِهِ الطّبيعيَّة معَ فيروساتِ الطّفولة إلى حياةِ النُّضج والرُّجولة، تماماً كما يحملُ السّاحرُ النّايَ والأفعوانَ في كيسٍ واحد. وخلال عشرين سنةً دخلَ أبو غَبْرَه عشرَ مرَّاتٍ إلى السِّجن، وأطول مدَّةٍ قضاها فيه كانت سِتَّ سنوات.

واختفى حارث عَبد الأحَد سَنتَين من الزّمان. ويُظَنُّ على الأرجَح أنَّه دخلَ السِّجن، فالدَّعاوي المرفوعة ضدَّه كانت كثيرَة، ولقد رآه أيضاً شاهدا عيان في السِّجنِ المركزيّ وفي سِجنِ زحله. ثمَّ اشتاقت روحُه إلى ميادينِ السِّندبيّاتِ الكثيرَة، فعاد إليها عودةَ الابنِ الضَالِّ إلى ديارِ أبيه، وفي عباءَةِ ''رَحَّالةٍ مجنونٍ'' جديد.. هو حارث قطايا! واستطاع حارث قطايا هذا أن يعودَ ويَلجَ اللُّعبَةَ بسهولةٍ كبيرة.. وليسَ لسببِ باعِه الطويل في المِهنة.. بل كأنَّ السِّجنَ مَدَّهُ وفي فترةٍ وَجيزة، بطاقاتٍ مُضاعَفةٍ ما كانَ بِلاها ليشحَنَ بطَّاريَّةَ جُموحِهِ لسنينَ طويلة. والسِّجنُ لقَّنَه كذلكَ المزيدَ من ''الفنونِ والعلوم'' الـمُستحدَثة، فخرجَ يطلبُ إفطاراً دَسِماً بعد أيَّام الجُوع

الـمُضنيَة. وسرعانَ ما "خبَطَ"[٧] سيّارةَ مرسيدس ومعَها نمرَتَها وأرادَ بيعَها. ولا تبقى السيّارةُ المسروقة عادةً ثلاثةَ أيّام تحتَ رعايتِهِ، وفي هذه المرَّة، وعلى غير العادَة، بقيَت عندَه خمسة أيّام وهذه مدَّة خطيرَة! وأرشدَه شابٌّ صديق إلى رَجُلٍ ثريٍّ يُقرضُ بالفائِدة في منطقةِ الرُّوَيسات الجَدَيدة. فقصدَ حارث قطايا إلى الرَّجل في الرُّوَيسات. وبدَت على هذا الأخير مظاهرُ الثّراء.. مشَنشَل[٨] بالذَّهَب.. العِقد والخَواتِم والبْلاك والسَّاعة في معصمَيه.. مُتأنِّقُ الهندامِ "شَببْلكِيّ". ولاحَ عليه أنّه عازبٌ يتمتَّعُ بشبابه كما يجب. وما إن جلسا على فنجانِ قهوة.. في بَهْوِ الرَّجُل الثَريِّ حتى بادرَ حارث قطايا إلى إخراج فيلمٍ جديد من أفلام عبقريَّتِهِ لصوصيَّتِه الماكرة:

"يا سيِّدي الكريم.. أنا غارقٌ الآنَ في مَشروعِ صَبِّ باطون الطّبقَة الثانيَة في بناءٍ من ثلاثة طبَقات. وقد انكسَرْتُ على عشرةِ آلاف دولار أميركيّ.. أقرضْني المبلغَ يا صديقي وأتركْ لكَ أنا السيَّارةَ مع النِّمرَة رَهناً لديكَ حتى تسديدِ المبلغ في آخِر الشَّهر".

كانت البداية جيِّدةً حتى هذه النُّقطَة، وانطلَتِ الحيلةُ على هذا الدَيَّانِ الثَريّ. فوافقَ للحال! وقال لحارث:

"سأقرضُكَ تسعةَ آلاف، وآخرَ الشّهر تردُّهم لي عَشَرَة"، فتهلَّلَ حارث في قلبِهِ.

ولكنَّ الرَّجُلَ الثريّ حريصٌ على ماله، وأرادَ أن يتحذلقَ على حارث قطايا، فطلب أن يرى أوراقَ السيَّارَة، فأراه حارث أوراقَ السيَّارةِ المسروقة، وكلُّها مزوَّرَه بحذاقةِ خبيرٍ من أصدقائِهِ الـمُخضرَمين. فقال الرَّجُلُ لحارث:

٧- كلمة عاميّة تعني سرَق.

٨- مُزيَّن بالحليّ.

"قبلَ أن أعطيَكَ المال أريد أن آخذَ دفترَ السَيَّارة لأتَحقَّقَ من قانونيَّتِه".

فوجدَ حارث قطايا نفسَه في مأزق! فغيَّرَ نبرَةَ كلامه للحال. وأنقذَته هذه المرَّةَ أيضاً مهارتُه في الرِّياءِ والنِّفاق. فرمى دفترَ السَيَّارة ومفاتيحَها على الطاولةِ وخرَجَ بعصبيَّةٍ مزعومَة وهو يكيلُ الشَّتائِم للرَّجُلِ الثريِّ بدبلوماسيَّةٍ بارعة:

"أنا دخلتُ بيتك ضيفاً على فنجان قهوة، وأنا مكسورٌ في نصفِ الورشةِ وهي جَنَى عمري، وأحتاج لهذا المال والسكِّينُ على رقبتي، وأرهنُ سيَّارَتي لأسدِّدَ المبلغ في آخر الشَّهر كما تَرغبُ أنت.. فتشُكُّ في قانونيَّةِ السَيَّارة؟! وهل أنا أرهنُ سيَّارَة مسروقة.. معقول؟!"

كان حارث يقول هذه الكلمات مزركشة بباقةٍ من السُّباب المُقنِع. فوثبَ الرَّجُل وراءَه واعتذر منه، ونقدَه المبلغَ التِّسعةَ آلاف وأبقى السَيَّارةَ المسروقة ودفترَها ونمرتَها عنده. بيدَ أنَّ الذِّئبَ أبو غَبْرَه لم يكتفِ بهذا الانتصار السَّاحِق، فقد ضاقَ صَدرُه غيظاً بهذا الرَّجُل الثريِّ الذي يُحاولُ أن يتذاكى ويتحذلقَ على رَجلٍ خبيرٍ في النَّصبِ والدَّجَل والخديعة. فما إن قبضَ المبلغَ حتى ذهبَ إلى أقربِ كابينةِ تلفونٍ عُموميٍّ واتَّصلَ بالتَّحرِّين وأيضاً بصاحبِ السيَّارةِ المسروقة، وأرشدَهم إلى مكانِ وجودِها عند هذا الرَّجُلِ الدَيَّان الثَريّ. فجاؤُوا إليه في المساءِ وأوقَفوه للتَّحقيق معه.

وهكذا عادَ أبو غَبْرَه، في حُلَّةٍ جديدة هي حارث قطايا، إلى مغامراتِهِ التي لا يستطيعُ الخلاصَ من لعنتِها المُزمنة. وهنا مثالٌ آخرُ على هذه اللَّعنَة المشؤومَة. كانَ حارث ذاتَ يوم يحملُ شيكاً بقيمةِ ٣٠٠ دولارٍ أميركيٍّ يريدُ تحصيلَه في مصرفٍ في قلبِ العاصمَةِ حيثُ الأبنيَةُ والزَّحمَةُ والاكتِظاظ. فدَخلَ البناءَ الذي فيه المصرف، وهو في الطَّبَقة الأرضيَّة، حوالي السّاعة الثامنة والرُّبع صباحاً، ولم يكن هناك موظّفون يعملون بعد.

فطلبَ إليه أحدُ الخَدَم في المصرف أن يجلسَ في الرَّدهةِ قبالة الكونتوار ريثما يبدأ الموظَّفون في العمَل. وسأله إن كان يريد فنجان قهوة، فقبلَ حارث بفنجان قهوة وجلسَ في زاويةٍ يحسو قهوتَه بهُدوء. وفجأةً طلعَ شيطانُ المِهنة كماردٍ من فانوسٍ.. أو روحٍ تطارِدُه أنَّى ذهب! فقد نزلَ الـمُديرُ ومعه مساعدُه عبرَ دَرَجٍ داخليٍّ إلى الطبقةِ السُّفليَّة لدقائِق، ثمَّ طلعا ومُساعدُ الـمُدير يَحملُ علبةَ عصيرِ توب جوس كرتونيَّة ملوَّنَة فيها رُزَمٌ جديدةٌ من الدُّولارات، فوزَّعاها في جوارير الكونتوار رُزمتين أو ثلاث في كلِّ جارور. ولكنَّ حارث لم يقفْ أمام هذا المشهد وقفةَ عابر سبيل! ولكنَّه نظرَ إلى رُزَمِ المالِ هذه كما ينظرُ النَّمِر الجائِعُ إلى غزالةٍ ضعيفةٍ تائِهة. ولم يستطع حارث قطايا النَّومَ في تلكَ اللَّيلة، وهو يتخيَّلُ علبةَ الدُّولارات، ويقدِّرُ ما يُمكن أن تحويه من المال. فقامَ في اليومِ التالي باكراً، وذهبَ إلى صديقٍ قديمٍ في المِهنة وعرَضَ عليه مشروعَه، واقتنعَ هذا الأخير بسهولة، وهو سائِقُ درَّاجَةٍ ناريَّة بارعٌ وخبير في السَّطو على المصارف. فشرَعَ أبو غَبْرَه يدرسُ عمليَّةَ السَّطو هذه لثلاثةِ شُهور بأيَّامِها ولياليها.. معَ أنَّ التَّنفيذَ لا يتجاوزُ الثلاثَ دقائِق!! ثلاثةُ شهور من التَّخطيط وثلاثُ دقائِق في التَّنفيذ. رحِمَكَ الله يا أستاذ سعيد عقل الذي قال: "وراءَ كلِّ لحظةِ إبداعٍ دَهرٌ منَ التَّحضير". ثمَّ راحَ يجيءُ كلَّ يومٍ في السَّاعةِ الثامنة صباحاً، ويقف على بُعد خمسين متراً قبالةَ المصرف، يراقبُ العمليَّةَ نفسَها التي يقوم بها الـمُديرُ ومُساعدُه، حيث يجلبانِ علبةَ عصير التوب جوس من أسفل مُكدَّسَة برُزَم الدُّولارات، عبرَ الواجهةِ الزُّجاجيَّة العريضة الـمُشرفة على الشَّارع الذي يمتدُّ فوقه جسرٌ كبير، وحارث يقفُ هناكَ في الشّارع المقابل بعد الجسر. وكانَ حارث يركن سيَّارته بعيداً، ويراقبُ من مكانٍ وفي زاويةٍ لا تطالُه كاميراتُ مدخل البنك. ثمَّ حدَّدَ بالضَّبط السّاعة التي يَنبثِقُ فيها الـمُدير ومساعدُه وعلبةُ عصير التوب جوس المنحوسَة. وبعد طول المراقبةِ والدَّرسِ والتَّمحيص قرَّرَ حارث وصديقُه القيامَ بالتَّنفيذ. فجاءا ذاتَ

صباح، في السَّاعة الثامنة، وركنا سيَّارتَهما على بعد شارعَين أو ثلاثة من المصرف، وقبَعَ الصَّديقُ مع درّاجتِهِ النّاريّة كامناً منتظراً قبالةَ المصرف تحتَ الجسر، وبعيداً عن الكاميرات. وما إن ظهرَ المُديرُ ومساعدُه ومعهُما العلبة الكرتونيَّة.. حتى وثبَ نحوهما حارث مطأطِئَ الرّأس حتى لا تلتقِطَ الكاميراتُ وجهَه، وهو يخبّئُ راحتَيهِ في جَيْبَي سُترتِه الجلديَّة السَّوداء. فما إن خطا خطوَة واحدَة داخِلَ الباب حتى غطَّى وجهَه بالقِناعِ الصُّوفِيّ الزَّيتيّ اللَّون الملفوفِ فوقَ جَبينِه مثل قبَّعَة، وشهرَ مُسدَّسَه يحملُه بقفَّازَين بلاستيكيَّين سوداوَين، وصَرخَ بالرَّجُلين صرخةً مدوِّيَة:

"على الأرض يا أخو هيك وهيك.. أنت وهو".

فانبَطَحا أرضاً مذعورَين من شدَّةِ الخوف والمفاجأة، ولم يحتَجْ هو لطلقةٍ واحدة.

"إبتعِدْ من هنا يا أخو الشَّرموطة" صاحَ بهما ثانيةً، واقتربَ من أحدِ الرَّجلين وركله برجلِهِ بقوَةٍ لكي يُبعدَهُ عن علبةِ الدُّولارات، فأنَّ الرَّجُلُ من شدَّةِ الألَم. ثمَّ حمَلَ حارث العلبَةَ وطارَ بها إلى الخارج حيث كانَ الدَرَّاجُ صديقُه ينتظره، وانطلقا بسرعةٍ إلى سيَّارتِهما على بعد شارعين من المصرف، فألقيا البنزين على الموتوسيكل ورَمَيا مفاتيحَه في مستوعَبِ القُمامَة، ولاذا بالفرار. وكانَت حصيلةُ هذه الغزوَةِ المُوفَّقة مئةَ ألف دولار أميركيٍّ عدّاً ونقداً.

ومرَّتِ الأيّامُ والشُّهور.. ويدُ الدَّولةِ عاجزة عن الإمساكِ بالشَّبَح حارث قطايا.. فيَفرّ من بين أصابعِها كأنَّه الزِّئبق.. أو اللِّصُّ الخَفيّ! شفيعُهُ ومنقذُه، دائماً أبداً، في مَلاغيصِهِ[9] هذه، شبَكَةٌ واسعة من العلاقات في

٩- بالعاميَّة وتعني قذاراته.

البُنى السَّوداء التَحتيَّة، أو.. حاجةُ الكبارِ إليه.. وهو عُملةٌ نادرَة توافِقُ سُيولاتِهم المشبوهَة، بحيث يُغطُّونَ قذاراتِهِ عندَ تقديم خدماتِهِ لهم مشكوراً ومع حبّة مِسك. وحبّةُ المِسكِ هذه إمّا قبضَة ماليّة قيّمة أو عملٌ نظيفٌ في شركةٍ ما، أو يعمدونَ إلى تهريبِهِ خارج البلاد لمدَّةٍ كافيةٍ لمسحِ آثار الجَريمة.

وذاتَ يوم، كان حارث خارجاً من عند الصَّراف في أحد شوارع عين الرمَّانة، فرأى صبيَّةً حسناءَ في الجهةِ المقابلة تدخلُ إلى المبنى، فوثبَ للحال إلى متجَر الألبسةِ تحت ذلكَ البناء نفسِه، وسألَ التَّاجرَ بلهفة:

''هل هذه الفتاة الجميلة التي دخلت من هنا للتوّ تسكنُ فيها؟''، وأجابَ البائِع بسؤال:

''أهي شقراءُ نحيلة؟'' فأجابَ حارث:

''بلى.. بلى''، فكانَ رَدُّ البائِع صاحب المَتجر:

''هذه ليال''

''ليال ماذا''

''ليال مُجَبّر''

''في أيّ طبَقة تسكنُ؟'' سألَ حارث أيضاً بإلحاح، وكان جواب البائع حازماً:

''سيّدي.. أنا لا أعرف من أنت.. غريب عن هذا الحَيّ ولم أرَكَ من قبل.. وهذه جارتنا منذ سنتَين. ولا أستطيع أن أقول أكثر من هذا''.

وخرَجَ حارث وفي سرّهِ يشكرُ هذا البائِعَ الغريب الأطوار.. والذي ربّما كانَ موهوباً في فنِّ سَيماءِ الوجوه.. فقرأ في ملامِح أبو غَبرُه روحاً خبيثة نَهِمَة لا تشبَعُ من الافتراس أبداً. بيدَ أنَّ حارث لا تخفاهُ خافيَة! فكيف بعلوماتٍ تافهة عن فتاةٍ رآها صدفةً في شارعٍ في مدينة بيروت؟ إسمُ الفتاة ليال مُجَبِّر، عازبة، سَنَة أخيرة حقوق، تعيشُ مع أختِها أكبر منها، والجميلة هي الأخرى، تزوَّجَت وطلَّقت منذ سنتين وتعملُ في أحد المصارف. وقد تعهَّدَت بأن تعتنِيَ بأختِها الصُّغرى ليال ريثما تنتهي من دراستِها. لقد أدركَتْ حاسَّةُ الشَمِّ المُتذائِبَة بسهولةٍ هذه المعلومات، ولو بالتَّقسيط على دُفعاتٍ من أكثر من مصدَر وأكثر من بُقعَة. ثمَّ شرعَ حارث قطايا بعد ذلكَ يراقبُ ليال مُجبِّر في رَوحاتِها وجيئاتِها تماماً كما يراقبُ مصرفاً، أو سيَّارةً فخمةً في معرض لبيع السيَّارات، أو متجرَ مجوهرات ذا موقع مُغرٍ جدّاً لعمليَّةِ سطو ناجحَة. وعرف أيضاً أنّها تذهب ثلاثة أيّام في الأسبوع في الباص إلى جامعةِ القدّيس يوسف وتعود ظهراً، ونادراً ما تصحبُها أختُها معها بسيَّارتِها البيجو الشَّمبانيَّة الجديدة. وما إن خرَجَتْ ليال مُجبِّر ذاتَ صباح، حوالي السَّاعة السّابعة والنِّصف ووقفت تنتظر الباص عندَ المنعطف، حتى انتهزَها حارث وأقبَلَ بسَيَّارتِه الأنيقةِ ب إم دبليو، ولونِها الزَّيتيّ السَّاحر وهي من النَّوْع الذي يجذبُ الجنسَ اللَّطيف. فدَنا بهدُوءٍ لحَدِّ عندها، ونظرَ إليها من وراء نظَّارتي رايبن سوداوَين، وقالَ بصوتِه الحادّ والقويّ في آنٍ:

"أنا متَّجه نحو الأشرفيّة.. هل تحبّينَ أن أوصلَكِ في طريقي دوموازيل؟".

ونظرَت ليال إلى السَيَّارةِ الأنيقةِ والنَّظّارات الجريئَة.. والمرأةُ تؤخذُ بسرعةٍ بظاهريَّاتِ الرَّجُل خصوصاً في الدَّقائِق الأولى! ففي الدَّقائق الأولى يربحُ الشّابُّ المعركةَ أو يخسرُها! تماماً كترويجٍ دعائِيّ لمنتوجٍ ما، فإنَّ الدِّعاية الوامِضَة والجيِّدة كفيلة بإنجاح عمليَّاتِ البَيع كلِّها. وهكذا الدُّخولُ إلى

قلبِ المرأة، عمليّة دعائيَّة لشكليّاتٍ كاذبة تأسُرُ وجدانَ المرأةِ الضَّعيف إزاءَ المادَّة. إنَّ المرأة تقدِّمُ الحُبَّ لتحصلَ على المادَّة، والرَّجلُ يقدِّمُ المادَّةَ ليحصل على الحُبّ..! تُرى أهكذا هي المعادلة بين الجنسَين؟! الهامّ أنَّ ليال ارتاحت لكلماتِ حارث قطايا الأولى، وقالت وهي تفتحُ البابَ وتدخل وتقعد:

"ولِمَ لا. شكراً لك".

وراحَ حارث بفنِّ الكلام السَّاحر، وموهبتِهِ الفطريَّة في التمثيل والأداءِ المسرحيّ يَسبي عقلَها وقلبَها في آنٍ. قالَ لها وهو عارفٌ بأنَّ أختَها الكبرى موظّفة في بنك بيبلوس فرع عين الرمَّانة:

"أنا مدير فرع لبنك عَودِه في سِنّ الفيل"، ورأى تأثيرَ كلماتِه في ملامح وجهِها، ثمَّ تابعَ:

"الحقيقة أنا ورثتُ هذه الوظيفة عن الوالد، كنت موظّفاً عندَه، وتوفيّ الوالد في حادث قلب، ورشَّحوني لسبب كفاءَتي لإدارةِ الفرع، منذ سنةٍ ونصفِ السَّنَة فقط".

ولاحَ الاعجابُ المفرط في عينَي ليال. سألته:

"ما اسمُك؟" فأجاب:

"حارث قطايا".

ولا يهمّ الاسم هنا! لأنّه تشكُّلٌ مُبهَم آخرُ لحارث ملحم النَجّار صاحب اللّقب الشَّهير أبو غَبْرَه أصلاً. وليَال سوف تدركُ هذا.. ولكن بعدَ فواتِ الأوان.

''من أينَ أنت يا حارث''، عادت وسألت، وارتجلَ فيلماً آخر:

''من بلُّونة''. ويبدو أنَّ البديهةَ عندَه لا تعرفُ أن تقولَ الحقيقة! فاحترافُه المِهنةَ المُزمن عوَّدَهُ على الخداع والمراوغة.. وعلى عددِ دقائِق السَّاعة بلِ الثَّواني. ولهذا السَّبَب كان أحياناً يمشي في الشَّارع وهو يتلفَّتُ في كلِّ اتِّجاهٍ كالمَجنونِ لدرَجَةِ الغثيان..! خوفاً من هجوم رجالِ التَحرِّي عليه، أو هجومٍ إنتقاميٍّ لضحيَّةٍ ما من ضحاياه الكثيرة. ثمَّ تابعَ السّيناريو:

''عندنا في بلُّونة فيلاّ حديثة.. ولكنّ الوالد أهداني شقَّةً في النقّاش عندَ نجاحي في الماجستير''

''وهل درَستَ العلوم المَصرفيَّة؟'' فأجابَ حارث:

''سياسَة واقتصاد''.

وكانتِ المسكينةُ ليَال تشبهُ سمكةً بينَ أظافر عُقابٍ في ثوبِ يمَامة. وراحا يتناوشان في الكلام حول المستجدّاتِ الاجتماعيَّة والسِّياسيَّةِ والوضع الأمنيّ في البلد، حتى أوصلها لعند بوَّابةِ مدخل الجامعة، ثمَّ سألها:

''هل أحصلُ على شرَفِ اصطحابكِ مرَّةً ثانيةً إلى الجامعة؟''. قالَ وهو يؤدِّي ببراعةٍ تلكَ الابتسامَة السَّاحرَة الخادعة. فأجابت بوَجهٍ طلق:

''أوكي.. لا مُشكلة عندي حارث.. شكراً لك''.

وهكذا تكرَّرَتِ اللِّقاءاتُ بينَ ليَال مجبِّر وأبو غبْرَه، ولا تدري المسكينة أنَّ غُبارَ جُموحاتِه الشَّيطانيَّة سوف يغطّيها في القريب العاجل. بعد ثلاثة أيّام كانت واقفة أيضاً تنتظر الباص.. وإذا بحارث، ينبثقُ من العدَم كالأرنبَةِ من عباءَةِ السَّاحر، ويقتربُ على مهلٍ بسيَّارته الزّيتيَّة الباهِرَة، وعلى وجهه أيضاً نظَّارتا الرَّايبن السّوداوان. وعندما جلسَت في السيَّارة، قالت له:

''هذه المرَّة أريد أن أرى عَينيك.. إرفعِ النظّارتين''. ومدَّ يدَه ليرفعَ الرَّايبن وهو يقول:

''سَمعاً وطاعةً يا مَولاتي.. كرْمَى لعَينَي الدوموازيل ليَال.. مئة طلب كهذا الطّلب''.

وراحت ليَال تتأمَّلُ ملامحَ وجهِه، وعينَيه الغامقَتين. وحاولت أن تغامرَ وتبحرَ في هاتينِ العَينين اللّتين لم تَحفظا في قرصِ ذاكرتِهما غير مشاهدِ الخوفِ والقساوَة. خافت أن تبحر! وشعرَت أنَّها في مياهٍ باردةٍ عميقة.. تبدو لوهلةٍ ساكنةً.. ولكنَّ أعماقَها دوَّامات! والخوفُ الغامضُ الذي انتابَها وهي تنظرُ في عينَيه.. أسرَها! والأنثى تؤخذُ عادةً بالرُّجولةِ الواثقة الجريئَة صاحبةِ اللِّسانِ الطَّلق واليَدِ السَخيَّة. فأقنعَت نفسَها بأنَّها مرتاحَة.. وهي ليست مرتاحَةً البتّة! فالقلقُ الغريبُ الذي وفدَ إلى روحِها ظنَّت فيه النَّسماتِ الأولى للحُبّ. سألها بعدَ صمتٍ لدَقيقة:

''جَميلتان؟''

''من هما؟'' قالت وقد فاجأَها سؤَاله، فأجاب:

''عيناي''، هل نسيتِ؟ أنتِ طلبتِ أن أرفعَ الرَّايبن''.

وانتبَهت ليال لكلمَاتِها.. واستفاقت من إبحارِها الغريبِ الحائِر الذي أبحرَتهُ في دقيقة في عَينين ناريَّتَين لا تخشيان شَيئاً في هذِه الفانيَة. ثمَّ استغرَقا أيضاً في دردَشاتٍ كما في اللِّقاءِ الأوّل، وأنزلها عندَ بوَّابةِ مدخل الجامعة أيضاً، فترَكَتْهُ ودخلتْ. وتابعَ هو إلى البَحث عن صيدٍ هنا وهناك كالسِّباعِ التّائِهة في البقاع المَداريَّة في موسمٍ جافٍّ طويل. ولكنَّ موسمَ الغَزوةِ على ليَال وأختِها بدأَ في مرحلةِ تكوُّنِه، فأشعلَ حارث نارَه الخفيفةَ تحتَ هذه الطَّبخةِ الجديدة. ولكن ما هو صَيدُه هذِه المَرَّة؟ تتألَّفُ هذه الصَّيدَةُ، بحسَبِ

الـمُراقبَةِ والاستنتاجِ، من سَيَّارَةِ الأخت الكبرى البّيجو الشّمبانيَّة الجديدة، والنُّقـود، والحليّ والـمُدَّخرات في جوارير الخِزانات وجيوبِ الجزادين، وما خَفَّ حملُه وغلا ثمنُهُ في أرْجَاءِ البَيتِ في عينِ الرمّانة، وحتماً.. مغامرة عاطفيَّة عابرة.. وهذه بضَهر البَيعَة لا تضُرُّ أيضاً. إنَّ الدَّافعَ إلى السَّرقةِ عندَ السَّارقين يشبهُ، في أحيانٍ كثيرة، تلكَ الشَّهوةَ النَّهِمَة في قلوبِ الفاتِحين العظماء في التّاريخ، الذين يسيرون بجيوشِهم الجَرَّارة من بلاد إلى أخرى، ولا يُثنيهم شبَعٌ أو وَهَن! هكذا الميولُ الكازانوفيَّةُ أيضاً عندَ الذين يطاردون النِّسَاءَ من حيّ إلى شارع، ومن قريةٍ إلى مدينة، ومن بلدٍ إلى آخرَ حتى.. ولا تردعُهُم التُّخمَةُ أو يضعفُهم قرَف. أهو مرضٌ هذا؟! أم جَشَعٌ فطريٌّ زائِد عن حَدِّه؟ أهو وسواسٌ قهريّ أم طفولة محرومةٌ متفاقِمَة ولا سبيلَ إلى لجمِها وإيقافِها؟ وأمَّا أداةُ هذا الاقتحامِ الجديد فستكون، وهذا حَتمِيّ، دخولٌ واثقٌ جَريءٌ صَريح من البابِ وليسَ من النَّافذة.. مشروعُ عريس للفتاةِ الصُّغرى! وراحَ حارث يحوِّمُ حول الفتاة، كما تُصفِّقُ الكواسرُ بأجنحتِها فوق الجُثَّة، حتى استكانَت له الفتاةُ وأذعنَت، والمسكينةُ ترى فيه فارسَ أحلامِها المَنشود. وَمَضَتِ الشُّهور.. وكثرَتِ اللِّقاءاتُ بين ليَال مجبّر وحارث قطايا، والضَّهراتُ الدّونجوانيَّة حتى منتصفِ اللّيل.. إلى السّينما أو الشّاطئ أو مطعم أو نادٍ ليليّ أو مسرح أو مهرجان. سألته ذاتَ مساء، وهما خارجانِ لحضور استعراضٍ فنيّ موسيقيّ في الكازينو:

"أنا سأنتهي من دراستي بعد شَهرين.. ألن تدبِّرَ لي وظيفةً في البنك يا حارث؟" فأجاب:

"لا تهتمِّي لأمر الوظيفة.. سأدرِّبُكِ في الصَّيف على وظيفةٍ ممتازةٍ لثلاثة شهور ثمَّ تبدَئينَ مع معاشٍ خَياليّ.. هذا مؤكّد يا ليَال".

وطارَ عقلُ المسكينةِ من الفرَح. وأدركَ حارث أنَّ طبختَه يجب أن تنتهيَ في أقلّ من شهرين. فشرَعَ في تنفيذِ الخطوةِ الثانية، وهي التردُّد بكثرةٍ إلى

هذا البيتِ الهانِئِ الذي لا يدري أيّة مكيدةٍ تُدور حوله. وهكذا صار. وفي كلّ زيارةٍ كان يأخذ راحتَه بالكامل في رحابِ البَيت، حتى باتَ يعرف جميعَ جُيوبِ الكنوز فيه. ولم يكلّفه هذا عناءً كثيراً، فقد كانتِ الفتاة تخبرُ حارث قطايا بنفسِها عن مُخبّئاتِها وحليّها ونقودِها. كانَ يدعو الفتاتين الأختَين إلى سَهراتٍ رومنسيَّةٍ ويُغدقُ عليهما هدايا.. تماماً مثلما يقدِّمُ الصيَّادُ لطريدتِهِ من طعام قبل اصطيادِها، أو مثلَ عَلفِ الخروفِ قبلَ ذبحِه. هدايا متنوِّعَة من الحلِيّ أو الفساتين أو هاتف خليوي أو حاسوب أو قطعة كهربائيَّة للمطبَخ.. وغيرها. وهذه ستكونُ مع مجموعِ أرباحِ الغَزوَةِ العتيدَة بلا شكّ!! وعندما كانت الكبرى تسأله:

"ألن تعرِّفنا على الوالدَين يا حارث؟ لماذا لا نزورُهما.. أو أنتَ تجيء بهما إلينا فنتشرَّفَ بهما". فكانت حُجَّةُ حارث، دائِماً، مرضَ الوالد أو الوالدة أو نزولَ أقرباء من كندا عندهم لأيَّام، أو انَّهما عندَ بيتِ أخيهِ في زحلة. ولكنَّ شيطانَ حارث تنمَّرَ نحوَ الفتاةِ الكبرى أيضاً، فراحَ يلعبُ على الحَبلين.. ويحاول إغواءَ الكبرى إلى الفراش من خلال هدايا وتلميحات. واستطاعَ دهاؤُه، وفي فترةٍ وَجيزة، أن يزرعَ الخصومةَ بين الأختَين. فصاحتِ الصُّغرى، ذاتَ يوم، بأختِها الكبرى التي كانت تدفعُ أقساطَ الدِّراسة عنها، وتضحِّي بالكثير لأجلها:

"ما بكِ يا حنان قولي بصراحةٍ إذا كنتِ تريدينَ حارث لكِ.. مبروك عليكِ.. سأنسحِبُ أنا، ولكن لا أحبُّ هذه الألاعيب والتَّلميحات بينكما"، وترُدُّ الأختُ الكبرى والغصَّةُ تخنقُ كلماتِها:

"أبداً يا حبيبتي ليال.. حارث عريسُكِ أنت.. ولا شَيءَ بيننا على الإطلاق.. صدِّقيني يا أختي يا حبيبَتي". وكانتِ الكبرى تدركُ جيّداً أنّها تخفي شيئاً ما في قلبِها عن أختِها ليال.. وهذا الشَّيْءُ يُخيفُها كثيراً. كانت أيَّام وليالي الشَّهرَين تمُرُّ بسرعة بالنِّسبة للصيَّاد الماهر حارث أبو

غَبْرَه! ذاتَ يوم، وهو عارفٌ جيّداً أنَّ الكبرى تصلُ إلى البَيتِ قبلَ الصُّغرى بسَاعتين تقريباً، فانتهزَها وجاءَ إلى حنان، وفوجئَت هيَ به أيَّما مفاجأة! قالت له بوضوح:

''النَّاس تتكلَّمُ كثيراً يا حارث.. أنت عريسُ أختي التي ضَحَّيتُ بكلِّ شَيءٍ من أجلِها''. فلم يكترثْ لكلامِها واقترَبَ إليها شَيئاً فشَيئاً.. وراحَ يبُثُّ حَنيناً كاذباً.. ومُقنِعاً بقوَّة.. لدرجة أنِ استسلمَت له أخيراً، كأنَّها حَسناءُ كالحسناواتِ اللَّواتي ينقِّذُ السَّاحرُ فيهنَّ ألاعيبَه الخَفيَّةَ فوق خشبَةِ المسرح. وحملَها إلى الفراش في غرفةِ النَّوم. وأمضيا ساعةً في فردوس الغرام واللذَّة. وقالت له:

''ستأتي أختي عمَّا قريب.. هيَّا ارحَل الآن يا حارث''، ولم تُنْهِ كلمتَها حتى رَنَّ الهاتفُ الثّابت، وقفَزَتْ هيَ إلى سمَّاعةِ الهاتف في الصّالون:

''آلو أختي.. أنا ليال.. سأضطرُّ للتأخُّر إلى المَساء، وزيرُ العَدل آتٍ بعْدَ الظُّهر إلى الجامعة، وسيُلقي كلمةً في الطلاّب، وأنا باقية أيضاً''، فأجابتِ الكبرى:

''حسناً لا بأس يا أختي.. إنتبهي لنفسِك''.

وقالت حنان لحارث:

''أختي لن تأتي الآن.. الوزير آتٍ إلى الجامعة''.

وكانَ مشروعُ حارث أبو غَبْرَه سيمتدُّ لشَهرين بحسبِ خطَّتِهِ.. ولكنَّ سرعةَ الخاطر عندَه رأت في هذه اللَّحظةِ بالذّات.. فرصةً رائِعةً لن تتكرَّرَ للانقضاض على الفريسة. فقامَ وسحَبَ مفتاحَ الحمَّام من الدَّاخل واحتفظ به في جَيبِه. وجلسَ يعدُّ الثَّواني في قلبِهِ منتظراً دخولَ الفتاةِ إلى الحمَّام،

وهو يُحادثُها في كلِّ شَيْء. وما إن همَّت.. وقامتْ ووضَعت رجلَها داخلَ الحمَّام حتى وثبَ ودفعَها إلى الدّاخل وأقفل الحمّام من الخارج بالمفتاح. قالت له من الدَّاخل:

"حارث ما هذه المزحة؟ ما هذه اللُّعبة يا حارث؟"، فأجابَها وهو يفتحُ الخِزانات وينبُشُ كلَّ شَيْء:

"هذه لعبةٌ جديدةٌ يا حنان.. سأعلِّمُكِ إيّاها الآن انتظري دقيقة فقط.. ستعجبُكِ كثيراً".

ومرَّتِ الدَّقائِقُ وحارث يُجهز على النُّقود والحلِيّ وما خفَّ حملُه وغلا ثمنُه.. ووضعَها في أكياس نايلون أحضرها من المطبَخ. وأيضاً أخذَ هاتفَها الخليويّ وبطاقةَ حسابِها في المصرف. والفتاة في الحمَّام بدأت تصرخُ عندما سمِعَتِ الجَلبةَ التي يُحدثُها تفتيشُ حارث. وصرَخت بأعلى صوتِها:

"ماذا تفعل يا سافل يا نذل.. حارث ماذا دهاكَ يا حارث.. ستدمِّرُني وتدمِّرُ بَيتي وحَياتي وعلاقتي بأختي حَبيبَتي.. يا شَيطان.. يا أخو هيك وهيك لأعمل لسَوّي فيك".

وراحت تصرخُ بأعلى صوتِها وتبكي بُكاءً مرّاً. لكنَّ الشّيطان نظَّفَ البَيتَ من كنوزِهِ ومدَّخراتِهِ، وأخذ مفتاحَ البّيجو سَيَّارتِها وانطلقَ إلى المصرف وقرَطَ[10] حسابَها في المصرف من خلالِ رقم الحسابِ في الخليوي والبطاقةِ المصرفيَّة، وهذه لا يعرفُها غيرُ خبراء مُخضرمين في المِهنَة! ثمَّ طارَ على بساطِ الرّيح. وأمّا الفتاةُ حنان فقد بقيَت تصرخُ في الحمَّام ولا أحد يسمعُ صوتَها، حتى عادت أختُها ليَال إلى البَيت وفتَحَتْ لها.. ليكتشفا أنَّهما تعرَّضتا لعمليَّةِ نهبٍ مُرعبَة على يدَي العريس الميمون، أوصلتْهُما إلى

١٠- بالعاميَّة وتعني سرقَ.

الحضيض. وقد تركَ لهما أبو غَبْرَه رسالةَ اعتذارٍ وطلبِ المُسامحَة على طاولةِ المَطبَخ، بلا عنوان أو توقيع. ولكنَّ الفتاة الكبرى حاولت إخفاءَ معاشرتِها لهذا اللاعب المحترف عن أختِها ليال، وهذه لم تُصدِّق وبَقيَتْ صامتة. ثمَّ أخبَرا الأصدقاءَ على الفور والمقرَّبين، وذهبا ورفعا دَعوىً ضِدَّ حارث قطايا، وشرحا ملامِحَ ومواصفاتِ قامةِ أبو غَبْرَه.. ليكتشفا أنَّ حارث قطايا هذا شَخصيَّة وَهميَّة مُزوَّرَة، ومظهرٌ آخر من مظاهر وتجلِّياتٍ عديدةٍ لشَخصٍ واحِدٍ أحَد يَحملُ تلكَ اللَّعنَةَ البشَريَّةَ "أبو غَبْرَه".

وبقيَ البَحثُ جارياً عن الملقَّب أبو غَبْرَة لشُهور عديدة دون جدوى. وعادتِ الفتاتان تلملمان أذيالَ خيبتِهما ومرارتَهما الصَّعبة. وأدركا كم كانتا غبيتَّين فتلاعبَ بهما حارث وسَطا، في نهايةِ المطاف، على مدَّخراتِهما الثَّمينة، وجَنَى العُمر.

وهكذا نَجَا أبو غَبْرَه أيضاً من غزوَةٍ سهلةٍ موفَّقة، وبارعة الارتجال والتَّنفيذ. ثمَّ مضتِ الأيّام سراعاً.. كفاكونات القطار.. فاكونة مشكولة بأختِها. ونسيَتِ الأختان حارثَ قطايا والعريسَ اللَّقطَة "والزَّربَة" في الحَمَّام، وتلكَ الغزوَة التي لم تبْقِ على شَيءٍ في البَيت. ومرَّت خمسُ سنوات. وعالجَتِ الأيّامُ جُرحَ حنان وليَال مُجبِّر، وجاءَ عريسٌ آخر.. ولكن هذه المرَّة آدمي إبن حلال، فتزوَّجتْهُ ليَال وَسَكنَتْ في الحَازميَّة، وسارَ كلُّ شيءٍ بشكلٍ طبيعيّ لا يعكِّرُ صفوَه مُعكِّر. وكانَ لليَال مجبِّر صديقة في البنايةِ حيث تسكنُ مع عريسِها، اسمُها نيكول. وكانتِ الفتاةُ البارعةُ الجمال نيكول، تشربُ القهوة ذاتَ صباح، عندَ ليال على الشُّرفة السَّاحرة المُشرفة على بيروت وأنصابِ أبنيتِها المُكتظَّة. وصارَ الحديثُ يجرُّ الحديث كحجارَةِ الدُّومينو تنطحُ الواحدَةُ أختَها.. وراحَ الموضوع يفتحُ

موضوعاً آخرَ حتى جاءَا على خبَرِ إلقاءِ القبض على عصاباتِ السَّرقة، البارحة مساءً في نشرَةِ الأخبار، واستيقظ الألمُ الدَّفينُ منذ خمس سنوات، من نومَةٍ شبهِ موَات! فالألمُ في حياتِنا له تاريخٌ أيضاً، إنَّهُ كائنٌ طفيليٌّ يُعرِّش على جدرانِ قامتِنا النَّفسيَّة.. له يومُ ولادة وشبَابٌ وشيخوخةٌ ثمَّ الموتُ أخيراً.. ولكن، طالما نحن نغذِّيهِ من استسلامِنا وضعفِ عزيمَتِنا يبقى حيّاً.. وإذا جافيناه في إيمانِنا وتفاؤُلِنا بدَورِنا في الحياةِ.. يموتُ من نفسِهِ تلقائيّاً. قالت ليَال لنيكول:

"لقد تذكَّرتُ الآن ما حدَث معي منذ خمس سنوات"، وسألت نيكول:

"ماذا حدثَ لكِ يا جارَتي العزيزة؟"، فأجابت ليال:

"لقد تعرَّفتُ على شابٍّ.. حسبتُه عريساً جيّداً.. فكانَ سارقاً منافقاً كبيراً". وجحظَت عينا نيكول وهي تسمعُ الكلمات القويَّة التي تلفظُها ليَال. ثمَّ تابعت ليال:

"لقد مثَّلَ دورَ العريس عليّ.. ودخلَ إلى بيتِنا في عين الرمَّانة.. ورَحَّبنا به رجُلاً محترماً وذا هدفٍ شريف"، وتعثَّرَت ليَال بالغصَّةِ والدَّمعةِ في عينِها، وأضافت:

"لقد أحبَبتُه.. الشَّيطان..! لقد سرقَ منّا كلَّ شَيء.. واختفى كأنَّ الأرض انشقَّت وابتلَعتْه". قالت نيكول:

"يا للخبرَيَّة! لا بأس يا صديقتي.. أنتِ الآن عروس من رجُلٍ طيِّبٍ محترم.. لقد عوَّضَك ربُّنا عن خسارةِ الماضي بالكثير. دَعْكِ الآن من الماضي.. سأخبرُكِ ما هو جديدي.. عندي أنا الآنَ عريس لقطة!"

"حقّاً!! أنا سعيدة لكِ.. وفَّقكما الله يا نيكول.. خبِّريني عنه" فقالت

نيكول:

"لقد ورثَ إدارةَ مصرف كان والدُهُ رئيسَ مجلس إدارتِه.. بيتُه في بلُّونة.. وقد أهداهُ والدُهُ شقَّةً فخمَةً في النقَّاش كهديَّةٍ عند نهاية دراستِه في الماجستير". وجحَظَت عينا ليَال مُجبَّر.. وكادَت تجنُّ ممَّا تتفوَّهُ به نيكول أمامَها. لقد عادَ شبَحُ حارث قطايا أبو غَبرُه إلى الظّهور الآن، وهو يُخطِّط لغزوَةٍ جديدةٍ مع الفاتنة الحسناء نيكول صوايا. وكانت ليَال ترتجفُ من الغضَبِ والفرَح في آنٍ معاً إزاءَ كلماتِ نيكول. لقد انقلبَتِ الأدوارُ الآن، وباتَ أبو غَبْرَه على مرمى نيرانِ انتقامِ ليَال وهو لا يدري بها! سيكون انتقاماً مرّاً قاسياً ضدَّ هذه الرّوح المريضة، أو الحَيَوانِ الفارِّ من قفصِهِ يفترسُ وينهشُ كلَّ ما يقف في سبيلِهِ. وسألت ليَال وكلماتُها ترتجفُ، وعيناها مغرورقتان بالدُّموع:

"صِفي لي هذا الشّابَّ يا نيكول أرجوكِ"، وراحت نيكول تصف ملامحَ عريسِها الميمون. وتأكّدَت ليال من هويَّةِ وشخصيَّةِ هذا العريس.. إنّه حارث قطايا المزعوم! وسألت:

"ما اسمُه يا نيكول؟" فأجابت:

"حارث عَبد الأحَد". عندها خرجَت ليَال عن طورِها، وصرخَت في وجهِ جارتِها:

"إنّهُ اسمٌ مُزوَّر.. هذا هو العريس الحرامي الذي أخبرتُكِ عنه الآن يا نيكول.. يا عدرا دخيلك.. لقد أوقعَهُ الله بينَ أيدينا.. منذ متى أنتِ معه؟"

وذُعرت نيكول أيَّما ذُعر:

"ماذا تقولين يا ليال؟! منذ شَهرين تقريباً".

"صدِّقيني يا نيكول يا حبيبتي.. هذا هو بعينِه. الكلمات والوعود والأكاذيب نفسُها التي قالها لي.. إنّه يُخطِّطُ لسرقةِ البَيت.. يجب أن نوقِعَ به هذه المرَّة.. ولن ينجوَ من بين أيدينا"

"أنت تمزَحين يا ليَال!! الجُرحُ ما زالَ يلاحقكِ كلعنةٍ أو كابوس"

"لستُ أَمزحُ يا نيكول.. لقد نجا بفعلتِهِ بنا.. وربُّنا أوقعَهُ الآن.. يجب أن ننالَ منه"

"يا إلهي.. أيّ صدفةٍ هذه.. يطلع حارث عَبد الأحَد مخادع وحرامي؟!" تساءَلت نيكول.

"هل تعلَّقَ قلبُكِ بهِ يا نيكول؟" سألت ليال وأجابت نيكول:

"على وشك"

"الحمدُ الله. والآن لا تدعيه يدخلُ البَيتَ ثانية.. أخرُجي معه ولكن لا تجالسيه في البَيت رَيثما ندرُسُ خطواتِنا.. أوكي؟"

"حسناً.. كما تريدين يا حبيبَتي.. وإذا كان العريس هو الحرامي.. سنوقعُ به وقعةً لن ينساها طالما هو حَيّ".

وذهبَتْ نيكول من عند جارتِها ليَال مخبولةً محتارةً في ما سمعَتْ لتوِّها. ولكنّها أيَّدت جارتَها في كلِّ ما طرَحَتْهُ عليها، وصمَّمَت أن تثأرَ هي أيضاً لنفسِها ولجارتِها ليَال أيضاً. وكانت هذه المرَّة وقعةً منحوسة لمالئِ الدُّنيا وشاغل النّاس، لم يستطعِ النجاةَ منها البتَّة. ولكنَّ السِّجنَ لهكذا لمزاجٍ وشَخصيَّةٍ مَمسوخةٍ كالتي لأبو غَبْرَه، هي استراحة محارب فقط، أو

مرحلة استعادةِ النَّشاط! ورسم المرحلةِ المُقبلة، زائِد الاستفادة بلا شكّ من خبُراتِ المحترفين الآخرين الذين معه في منتجعِهِم الخاصّ.. السِّجنِ المركزيّ.

ولم تكنِ الخطَّةُ على دَرَجةٍ منَ العبقريَّة.. ولكنَّها بسيطة جدّاً أوحاها الضَّابطُ عندما راحَ الجميعُ: ليَال وزوجُها وأختُها حنان ونيكول وأخبروا الشُّرطة بحكايةِ الكازانوفيِّ حارث، وَعرفَهُ النَّقيبُ للحال. ثمَّ علَّمَ النَّقيبُ نيكول كيفَ تستدرجُه عندَها في البَيت لكوبِ عصير، فتضعَ فيه حَبَّتَي فاليوم، فينام نوماً قريرَ العين، والشُّرطةُ تكفَّلت بالباقي. وهكذا أُلقِيَ القبضُ على أبو غَبْرَه وتابعَ نَوْمتَه طويلةً في السِّجنِ المركزيّ هذه المرَّة أيضاً، نومةً امتدَّت لخمسِ سَنوَاتٍ، ليعودَ فيظهرَ من جديد على السّاحَة، تحتَ اسم عادل ملحِم كلاَّوي، وهذا اسمٌ مزوَّر أيضاً ومطلوب.

إسقاط خامس

هناكَ جَرائِمُ تصبحُ مُحترَمَة بقوَّةِ الاستِمرَار

جورج ساند

على أهلِها جَنَتْ برَاقِشُ.

مثل عربيّ

هذا هو التَّجلّي التالي لشَخصيَّةِ كازانوفا عَصرِهِ حارث ملحم النَجَّار المُلقَّب بأبو غَبْرَه.. عادل ملحِم كلاَّوي. أبو غَبْرَه مَوهوبٌ خلاَّقٌ في "المِهنَة"! أتُرَى الجَريمَة موهبَة؟! أهيَ فَنّ؟! هلِ الجَريمَة فَنٌّ ماردٌ انبَثقَ من قمقمِ الفقر والجَهلِ والاضطهاد؟! أم انَّها المُمارسَة والتَّدريب هما اللتانِ اثمَرَتا هذِه المَهَارَة؟! في هذِهِ الحالات جَميعِها نقدرُ أن نقولَ أنَّ الجَريمَةَ تتطلَّبُ مهاراتٍ عاليَة.. والمَهاراتُ العاليَة تساوي الفَنّ! وإذا كانَ الفنُّ هو مجموعةَ الأصولِ والقواعِد فإنَّ الفِطرَة كانت سابقةً للأصُول، والأصولُ

وُضِعَتْ بُعَيدَ عمليَّةِ تحليلِ الفطرَةِ والمهارَة. الجريمَةُ هي فنٌّ بامتياز! لأنَّ لها أصولَها وقواعِدَها ونواميسَها التي انبَثَقَتْ مِنَ الفِطرةِ هِيَ الأخرى. وأمّا عادِل كلاَّوي هذا فقد ذاعَ صيتُه في عمليّاتِ الابتزاز الكبيرة، أي الخطف وطلب الفِديَة. وتتراوحُ ابتزازاتُهُ بين نصفِ المليون والخمسَةِ ملايين مِنَ الدُّولارات. معَ أنَّ بدايةَ مسيرتِهِ في ميادينِ الابتزاز لم تتجاوزِ العشرةَ آلاف دولار! ففي عام ٢٠٠٧ كانتِ البلادُ تمورُ بالصِّراعاتِ السّياسيَّةِ العنيفة، خصوصاً بينَ المُعسكرين السّياسيَّين التّاريخيَّين: ٨ و ١٤ آذار. دخلَ عادل مِلحِم كلاَّوي إلى مِهنةِ الابتزاز من البوّاباتِ الواسِعة، وأتقنَها أيضاً باحتراف. وبقيَ طوالَ عامين ونيِّف يخطفُ الأغنياءَ والرِّجالَ الاقتصاديّين والدّبلوماسيّين البارزين ويَبتزُّهم بالملايين، مدعوماً، وكما دائِماً، من بعض رجال الأعمال الأثرياء! أي انَّه كانَ يَبتزُّ أخصامَ من يَحمونه ويدعمونَه بأكثر تدقيق. وما هذا الابتزاز إلاّ مُحاولة لتدمير الخصوم، أو إيصال رسائِل سياسيَّة مُعيَّنة، أو للثأر، أو غير ذلك. ثمَّ اختفى في العامَين اللاحِقَين عن وجهِ الأرض. إلى أن عادَ وظهرَ في السِّجنِ من جديد، تحت عنوانٍ قديم هو: حارث قطايا. ولكن عندما خرَج من هذه السَّجنة ارتدَى عباءَةَ عادل مِلحِم كلاّوي.

ويبدو واضحاً أنَّ تغييرَ مَجالاتِ المِهَن والعمليّات مقصود عندَ أبو غَبْرَه، فهوَ يَختبئُ والحالة هذه، من عَدَساتِ الرَّقابةِ الأمنيَّة الذين اعتادوا عليه يَصولُ ويَجولُ في المَجالاتِ التقليديَّة. وأمّا العمليَّةُ الأولى في عالم الخَطفِ والابتزاز العالي المُستوى فقد جنَّدَت لها عبقريَّةُ عادل كلاَّوي حوالي عشرين مساعداً، كانوا معه في الماضي والحاضر في مَجالاتِ السيَّارات والفيلَل والقصور والمَصارفِ والتَّهريباتِ المُتنوِّعَة، يقبضون منه رواتِبَهم، ليسَ يوميّاً أو شَهريّاً، بل "على القِطعَة"، أي على كلِّ خدمةٍ يؤدُّونَها له.

وما أكثر الخدماتِ والوظائِف! إنَّ عالمَ الجريمة له أداؤه وتقنِيَّاتُهُ ومهاراتُهُ وخبُراتُه وتدريباتُهُ. من هنا التفاوتُ الخطير بينَ وظائِفِها وخدماتِها. فالوظيفة هنا، تعتمدُ على الكفاءَة والخبرَة اللّذين يفرضان تسعيرَةَ الأجرَة، تماماً كأيَّةِ وظيفةٍ في أيّ مجال. والواسِطة هنا والمَحسوبيّات لا تنفعُ بشَيْء.. فالمَطلوبُ هو المَهارة والخِبرَة.. والجنون! فقط لا غير. فهناكَ مثلاً المُخبر أو جامع المعلومات.. وهناكَ المُراقب.. وهناكَ المُتابع للإعلام والمُستجدَّات.. وهناكَ من يبحثُ ويفتِّش عنِ الطَّرائِد.. وهناكَ من يُعطي الرَّشاوي.. وهناكَ من يهتمُّ بالأمور اللُّوجستيَّة من طعامٍ وكِساءٍ ومستلزماتِ الحياةِ اليوميَّة للمَخطوفين. فالذي يُراقبُ لا يتقاضى أجراً كالذي ينقلُ المعلومات، والذي يُتابعُ الإعلام والمستجدَّات لا يتقاضى أجراً كالباحثِ عن الطَّرائِد. وأخيراً هناكَ رجُلان خبيران عتيقان فقط يساعدانِ عادل كلاَّوي في القيام بعمليَّةِ الخطف مباشرةً على الأرض.. وتركَ لنفسِهِ وحدَه القيامَ بعمليَّةِ الاتِّصال بذوي الضَحيَّةِ لإتمامِ عمليَّة المُقايَضة. وحصَّتُه هو مع هذين الخبيرَين ٦٥ ٪ منَ الأرباح، والباقي وهو ٣٥ ٪ يوزَّعُ على ثلّةِ المساعدين والمشاركين في التَّحضير والتَّنفيذ.

وصلتِ المعلوماتُ عن اثنَين من كبار التُجَّار في دمشق، وهما شريكان في تأسيس مصانع دمشق وحلب وطرطوس للأسمِدَة والأدوية والأدوات والمُستلزماتِ الزِّراعيَّة، أنَّهما يَنزلانِ إلى بيروت مرَّتين في الشَّهر.. وفوق هذه الخارطة رُسِمَتِ الخُطَّةُ بإحكام. وكَمَنَ عادل ملحم كلاَّوي، في اليومِ المُعيَّن، ومعه مُساعداه في سيَّارتَي جيب سوداوَين.. واحدَة للتَّنفيذ عندَ منعطفٍ مُتوارٍ تحتَ شَجرةٍ وارفةٍ غَضَّة، والثانية للطّوارئ في مكانٍ بعيدٍ عن مسرَح التَّنفيذ. وكانَ الطّقسُ بارداً، والأمطارُ تنذرُ بالسُّقوط. والسّؤالُ: لماذا في سيَّارة جيب سَوداء؟ الجواب: لكي توحي للرّائِي أنَّها سيَّارة دبلوماسيَّة أو أمنيَّة أو تابعة لحماية متنفِّذٍ كبير. وأمَّا الصِّناعيَّان

الشريَّانِ ومعهما سائقُهما، فقد خرَجا من كوْمَةِ الأبنيَةِ الصّفراءِ المُهترئَة عندَ الحدود واتَّجها مباشرةً نحو السُّهول في الوسَط، حيث الأشجارُ العالية تحرُسُ الطَّريقَ الطَّويلَ في اتِّجاهِ مدينةِ شتورة في سهلِ البقاع. وكان مُراقبو عادل كلاَّوي ينتظرون ابتعادَ السيَّارةِ عن الأحياءِ والأبنية لكي يُنفِّذَ هو ومُساعداه الكمينَ في نصفِ الطَّريق. وهكذا كان. فقد اتَّصلَ أحدُ المُراقبين وقال:

"العُصفورة الآن وحيدة لا يراها غيرُ منظار الصَيَّاد". فقال عادل لرَجُلَيه:

"هيّا يا شَباب.. وَصَلتِ العُصفورة".

وتحرَّكتْ سَيَّارةُ الكمين من مَكمنِها وقطعَتِ الطَّريقَ أمامَ سيَّارةِ رَجُلَي الأعمال. وخرجَ أبو غبْرَه ورَجُلاه مُقنَّعين، وفتحَ سيَّارَة الطريدةِ مع مساعدٍ واحدٍ عن جانبَي السَيَّارة، وأمَّا الثالث فشَهرَ سلاحَهُ من وراءِ السيَّارةِ تحسُّباً من قيام أحدِ ركَّابِها بعَمَلٍ عُنفِيٍّ مستخدماً السِّلاح. فعندَما يُشهَرُ سلاحٌ من وراءِ الظَّهر لا يستطيعُ الضَّحيَّةُ أن يغامرَ بأيِّ عملٍ فيه حماقة أكثر ممَّا فيه ذكاء. صرخَ عادل كلاَّوي بالرّكَّابِ الثَّلاثة:

"أخرجوا من السَيَّارة والأيادي في الهواء يا أخو هيك هيك... وإيّاكم والحَماقات".

فنزل الرِّجَال مضطربين، ودفعَهُم عادل إلى داخل سَيَّارَتِهِ، وبلمح البصَر انطلقوا بهم إلى الجُرودِ النَّائيَة، ولحِقَتْ بهم سيَّارَةُ الطّوارئ، إلى جُحرٍ من الجُحور التي تؤوي، عادةً، أنواعاً من السَّحَالي العِملاقة المتطوِّرَة، ليست بعيدةً عن حدود البلاد. وتمَّت عمليَّةُ الخطفِ بنجاح. وهاتفَ أبو غبْرَه مُخبريهِ ومُراقبيه أنْ يتركوا مواقعَهم لأنَّ العمليَّةَ نفِّذَت.

ثمَّ هناك.. في ذلِكَ الجُحرِ النّائي.. تمَّت طمأنَةُ المَخطوفين بأنَّهم مخطوفون

لأجل ابتزاز المال وطلبِ فدية. ثمّ اتّصَلَ أبو غَبْرَه بواسطةِ خَطّ ثُريًا بذوي المخطوفين، وأمرَ أحدَ المَخطوفَين الثريَّين أن يتحدَّثَ على الهاتف معَ ذويهِ طالباً ''سلفةً ماليَّة'' بقيمةِ خمسةِ ملايين دولار. وبقِيَ المخطوفان ١٥ يوماً، وهي مُدَّةُ عمليَّةِ المُقايضَة والأخذِ وَالرَّدّ، فضلاً عن الثَّرثراتِ الإعلاميَّةِ في البلد. وأخيراً اكتفى أبو غَبْرَه بثلاثةِ ملايين فقط. ثمَّ أرسَلَ مُراقبيْهِ، بعدَ أيّام، يتَعقَّبون السيَّارةَ الوافِدَةَ للتسلُّم والتَّسليم منذ لحظاتِ دخولِها الأراضي اللبنانيَّة، وفيها رجُلان فقط بحَسَبِ طلبِه. ولكنَّ أبو غَبْرَه، وبحنكةِ خبير، لم يدَعِ السيَّارةَ تصِلُ إلى المكانِ المُعيَّن للمُبادَلة، ولكنَّهُ كمَنَ لها في مكانٍ منفردٍ خارجَ البُقعاتِ السُكَّانيَّة. وعندما أبطأتْ عندَ منعطفٍ صَعبٍ لها، وثبَ وفتحَ بابَ الجيب الخلفيَّ من وراءٍ شاهراً مسدَّسَه، وصرخَ:

''أعطِني حَقيبةَ المال يا أخو ال...''، وارتبَكَ الرَّجُلان، فسألَ واحدُهُما:

''من أنت؟'' فأجابَ أبو غَبرُه بتشكيلةٍ طيِّبَةٍ منَ السُّبَاب والشَّتائِم:

''أنا الخاطفُ طالبُ الفِدية يا أولادَ القحبَة... هاتوا المال بلا ثرثرة''. وأعطوه الحَقيبَة، ففتحها وألقى نظرةً وامضةً على محتواها. ثمَّ قال لهما وهو لا زال شاهراً المسدَّس:

''تقدَّما إلى حيثُ المكان كما حدَّدْتُ في الاتّفاق''.

فتابعا مسيرَتهما بضعةَ مئاتٍ من الأمتار.. ليَجدا أسراهُما الثَّلاثة مُقيَّدِين تحتَ الشَّجرَة عندَ منعطفٍ ترابيّ في مكانٍ ما في الجرود. وعندما حرَّروهم فوجئُوا بطلقين ناريَّين قريبَين جدّاً منهم! فصعدوا إلى سيّارتِهم بسرعة! وفي الهَريبَةِ كالغزالِ. وكانت فاتحةُ مجالِ الابتزازِ العالي المُستوى هذِه ناجحَةً جدّاً، ممَّا شجَّعَ أبو غَبْرَه للقيامِ بمُحاولاتٍ تاليَة موفّقة أيضاً، وطوالَ عامٍ

ونِصفِ العام تقريباً. ولكنَّ أبو غَبْرَه، وهكذا دائماً، كانَ يَخسَرُ في عمليَّةٍ فاشلةٍ ما رِبَحَهُ منَ المِلايين منَ الدُّولارات في عمليَّةٍ ناجحَةٍ سابقة. ولهذا كانَ في يومٍ وليلةٍ يكونُ.. إمَّا مليونيراً أو فقيراً مُعدَماً.

ومَرَّ الزَّمَنُ بسُرعة.. وكانت أيَّامُ عادل مِلحم كلاَّوي طيِّبَةً جدّاً، والمالُ بينَ يديه وَفر. فخرجَ ذاتَ مساءٍ صافٍ مُنعشٍ من أمسيَةِ شَهر أيَّار الصَّافية، إلى ذلكَ النَّادي اللَّيليِّ الصَّاخبِ في المعَاملتين، تلبيةً لدعوةٍ وجَّهَها إليه واحدُهم، فيُسلِّمَه هناكَ مبلغاً من المال كاش في حقيبةٍ ثمناً لتهريبَةٍ موفَّقة قامَ بها عادل. ودخلَ عادِل النَّادي في أوَّلِ اللَّيل، وكانَ قد جاءَ، مرَّاتٍ قليلة في حياتِه، إلى هذه القَصعَةِ التي خُلِطَتْ فيها تَتبيلةُ الفنِّ باللذَّةِ بالدُّولارات، ففقدَ الفنُّ في نهايةِ المطاف جَماليَّته واللذَّةُ نكهتَها عندما اجتاحَ إكسيرُ المالِ مَيادينَ اللُّعبةِ كلَّها وأزقَّتَها. كان صخبُ الموسيقى يَكاد يفجِّرُ المكان! فجاءَ إلى البار وطلبَ كأساً، ثمَّ راحَ يُشاهِدُ الرّاقصينَ في حلبَةِ الرَّقص. وما إن أنهى كأسَهُ الأوَّل حتى توقَّفتْ موسيقى الحلبَة.. وأضيئَتِ الأنوار فوقَ المسرح في الجِهةِ المقابلة.. وبرزَتِ السِّيقانُ الشَّقراءُ العارية لنفَرٍ من الرَّاقصاتِ في عرضٍ راقصٍ مثير. وراحَ أبو غَبْرَه يستمتع بهذا العرض المشوِّق، ويُنقِّلُ ناظرَيه الـمُرتابَين في الحُضور. فرأى في إحدى الزَّوايا امرأةً ثلاثينيَّة بدَت له ناضجَةً وجذَّابة، جالسةً إلى طاولةٍ صغيرَةٍ مُستديرة، وأمامَها كأس وصَحن بزورات. فنظرَ إلى النَّادل وقال:

"إلحَقني بالقنِّينة إلى هناك".

وحمَلَ الكأس بيُمناهُ والسِّيكارَة بيُسراه ومَشَى إليها.. ووقفَ بقربِها وسأل بهدوءٍ ورومنسيَّة:

"هل يَملكُ هذا المَقعدَ رجُلٌ ما سَيِّدَتي؟"، فسَألتِ السيِّدةُ الثلاثينيَّة

برأسِها، ونظرَتْ إلى عادل وأجابت كأنَّهُ بعفويَّة:

"لا.. أنا لوحدي.."، وأشارتْ برأسِها موحيةً أن يَجلس، فجَلس. وما لبثَ النَّادلُ أن جاءَ ووضعَ القنّينة على الطّاولة. ثمَّ بادَرتِ السيِّدَةُ الثّلاثينيَّة، وكانت ترتدي جينزاً مُمزَّقاً وقميصاً رياضيّاً شبهَ مفتوح على الصَّدر وقد شمَّرتهُ فوق السَّاعدَين، وبرزَتِ السّاعةُ الثَّمينةُ في معصَمِها تزيدُهُ جَمالاً وجاذِبيَّة. فقالت:

"أنا ماريّا.. من أنت؟" فأجابَ أبو غَبرُه:

"أنا عادل" فسألت أيضاً:

"عادل حاف؟" فسألَ هو:

"وأنتِ أيضاً ماريّا حاف!" وأضافَ رافعاً كأسَه أمامَ وَجهِه:

"وهذا يُلطِّفُ الأجواءَ قليلاً.. صَحيح؟ كاسِك". فابتسمَت وحَملت كأسَها ونقرَتها بكأسِهِ وقالت:

"صَحيح.. صحيح.. كاسَك".

ثمّ راحا يتناوشان في كلامٍ مُزركشٍ بالتَّلاميح الغامضةِ التي لا يفهمُها السَّامعُ الـمُحايد، ولكن يشعرُ بمُحتواها. ذلكَ لأنَّ نغمةَ الكلام ونظرةَ الرُّوحَين الثَّمِلين الـمُتقابلين تقومُ بعمليَّةِ ترجمةٍ متبادلة لما غمُضَ من المعاني. وأمَّا مضمونُ هذه الترجمَة فقد فُسِّرَ للتَّو على أرض الواقع، وهو خروجُ عادل وماريَّا السَّريع من النَّادي.. بعد أن جاءَ فتىً مُراهق عاملٍ في النّادي لعندِ عادل وأعطاهُ ظرفاً وَرَقيّاً وهو يقول:

"هذا هو الغرَض سيِّد عادل". فقال له عادل وهو يغرزُ أناملَه في راحةِ

الفتى:

"هذه بقشيش لك". وذهبَ الفتى.

قالَ عادل لماريّا:

"هل تحبّين أن نتنشّقَ قليلاً من الـمُتعَةِ خارج هذا المكان الصّاخب؟"، فأجابت:

"بلى.. أنتَ مُحِقّ". وهكذا خرَجا من النّادي.

وهواءُ الـمُتعَةِ هنا هو الفِراش حتماً! فامرأةٌ مثل ماريّا ورجُل مثل عادل كلاّوي لا يأتيان إلى هذا المكان إلاّ لتنشُّقِ الـمُتعة. قال لها:

"دَعِي سيّارَتَكِ هنا.. واركبي معي"، فأجابت بحزم:

"لا.. إلحَقني أنتَ إلى حيثُ سأركنُ سَيّارتي".

ولحقَ بها عادل. وكانت تسيرُ على مَهلٍ وهو وراءَها بسيّارتِه. وما هي غير دقائق حتى فقد أثرَها! لقد اختفت من أمامِه كأنّها السِّحر! أوقفَ السيّارَة على يمينِ الطّريق وراحَ ينقّلُ ناظرَيه يميناً وشِمالاً.. إلى الأمام وإلى الوراء فلم يرَ دومَري[11]. وخامَرَه الشَكُّ أن يكونَ شَرّاً! وهمَّ بالخروج من هذه اللُّعبةِ والرَّحيل.. وإذا بهاتفِهِ الخليويّ يَرنّ:

"أنا ماريّا.. تابعْ سيرَكَ ثمَّ انعطِفْ إلى اليمين مرّتين وَترَنِي على الطّريق"، فأجابَ:

"أنتِ!! كيف عرَفتِ رقمَ هاتفي؟! إسمعي.. لا أحبُّ الغموضَ البتّة.. أنا سريعُ الغَضب"، فأجابت:

١١- إنسان بالعاميّة.

''وعند ماريّا دواءُ الغَضب.. فأنا الدَّاءُ والدَّواءُ معاً''.

وانعطفَ عادل نحو اليَمين مَرَّتين.. فإذا هي تحتَ الشَّجرَة تنتظرُه. صعدَت إلى جانبِه، فسألها:

''أينَ السيَّارة، ومن أين حصلتِ على رقم هاتفي؟!''، فأجابت:

''إهدأ سيّد أبو غبْرَه.. لستَ وحدَكَ حذراً يا صديقي القديم الجديد، فالذي يجمعُ العسَلَ في قفيره يرتدي لباساً واقياً من اللَّسَعات.. أليس كذلك؟! وأنا من صنفِ جامِعِي العَسَل''. فقال أبو غبْرَه بنبرةٍ حازمَة:

''أحتاجُ إلى توضيحات.. وإلاّ فقدتُ صوابي''. فقالت:

''هل هذا أبو غبرُه، رجُل المستحيلات، سريعُ الانفعال هكذا؟''

''وتعرفين اللَّقبَ أيضاً!''

''وهل يَخفى القمَر؟!''

''إسمعي يا هذه أنا عضمي أزرق.. بمقدوري أن أخطفكِ الآن.. وأعرفَ كلَّ شَيْء وأريحَ قلبي''

''إهدأ يا أبو غبْرَه.. دليلي إليكَ كان رجُلَ الأعمال ق.ب. هو يحتاجُكَ وما أنا إلاَّ الرَّسول''، فأجابَ عادل بنبرةٍ حادَّة:

''من هو ق.ب. هذا؟! أعرفُهم جميعاً وخَبِرْتُهم. هم فوقَ القانون ونحنُ تحتَه، يُحرِّكوننا على هواهم ثمَّ يرموننَا ''شحمه بلا فطيري''

''غريب! أنت منفعل زيادة عن اللزوم''

''لا لستُ مُنفعلاً.. أنا حذِرٌ جدّاً. نحن وإيَّاهم نشبهُ قطعةَ المغنطيس

والورقة والمِسمار.. همُ المغنطيسُ من فوق، والوَرَقة هي القانونُ الهشّ، ونحنُ المسمارُ تحتَ الورقة. وعندما يُرفعُ المغنطيسُ عنِ الورقةِ نسقط نحنُ إلى أسفل. هذا هو لسانُ حالنا معهم.. دائِماً أبداً"، فقالت ماريّا لأبو غَبْرَه عندئذٍ وهي تربّتُ على معصمِه:

"دعكَ الآن.. ولنذهب لنرفِّهْ عنَّا قليلاً.. وسأخبرُكَ أيضاً عن السيّد ق.ب. فيما بعد".

فصمتَ عادل دقيقة ثمَّ قال:

"أنا ذاهبٌ إلى شُقَّتي.. هل لديكِ مانع؟"

"لا.. أبداً.. ضِقتُ ذرعاً بهذه القَعدَة على الطاولةِ منذ ساعتَين".

وهكذا انطلقَ عادل وماريَّا إلى شقّتِهِ الفسيحَة في جُبيل، وهناكَ أمضَيا ليلتَهُما يرشُفان من كؤُوسِ اللذَّةِ حتى طلوعِ الضَّوء. وعندَ الصّباح الباكر أوصلَها إلى سَيَّارتِها حيثُ رَكنتْها، وضَرَبا موعِداً آخرَ في الويك آند القادم. وفي آخر الأسبوع ليَلةَ الجُمُعة، التقيا أيضاً في النّادي اللّيليّ وجاءَ بها إلى الشُقَّة، وكذلكَ مثلُها ليلة السَّبت الذي بَعدَه. كانت تركن سَيَّارتَها في المكانِ نفسِهِ ويقضيان اللَّيلَ في شُقَّةِ جُبَيل وفي الصّباح يعودُ بها إلى سَيَّارتِها. ولكنَّ خِبرَة أبو غَبْرَه مع النِّساءِ أعمَقُ من مُجرَّدِ لذَّاتٍ عابرة! هو مُدركٌ جيّدٌ لسَراديبِ روحِ المرأة المُعتِمَة.. وله تاريخٌ طويل معها يمتدُّ لأيَّام المُراهقة.. والطّفولة حتّى. ماريَّا هذه لا تهواه.. هذا مؤكّد بالنّسبة له. ماريَّا جسرُ عبور أو وسيلةٌ أو مُقدِّمةٌ مُشوِّقة لروايةٍ بوليسيَّة صاخبَة، أو تحضيرٌ لرحلةِ شَغبٍ وعَبَث.. لا أكثر. هي اعترَفت بنفسِها أنَّ المدعوَّ ق.ب. أرسلَها وفوَّضَها، وما على الرّسولِ إلاّ البَلاغ. ولعلَّ ليلاتِ اللذَّةِ في شقَّةِ جبيل، من يدري! ثمنٌ ما لتخليصِ مُعاملةٍ شائِكةٍ هي من

اختصاص أبو غبْرَه وَحدَه. وسألها ليلةَ السَّبت، بعد أن خرجَ من الدّوش، وقد أشعلَ لفافةً وراحَ يَنفثُ الدُّخانَ في الفَضَاء:

"ألن تقولي لي بصراحَة.. ماذا يريدُ السَيِّد ق.ب. بالضَّبط؟"

"لا تستَعجلِ الأمورَ سيِّد عادل أبو غَبرُه.. فالآتِي قريب".

وهذا القِسْمُ هنا.. من مدوَّناتِ حمداش الجابري صديقِ حارث مِلحِم النَجَّار أبو غَبْرَه، قد أتلفتْهُ النّارُ بكاملِه في الانتفاضَةِ الثّانية. وهو مجموعة ضخمَة من الأوراق المَخطوطة، وكانَ صَعباً جدّاً فهمُها أو إعادةُ ترميمِها. وما تبقّى من هذه الكتاباتِ الغريبَة، وهي أشبَه باعترافاتٍ جَريئَةٍ مكتوبةٍ بخطِّ اليَد طبعاً، فقراتٌ وقُصاصات لا سِيَاقَ تاريخيّاً أو منطقيّاً يربطُ فيما بَينَها. إن هي إلاَّ مُقتطفاتٌ لما بقيَ من سيرةٍ، ولا سيرةِ الأفاعي! مُتداعيَةٍ مُنهَارَة.. وذلكَ حتى السَّجنَةِ الأخيرةِ الرَّاهنَة. بيدَ أنَّ الميتر عُصفور عرَضَ هذه القصاصاتِ كلَّها على عالمٍ خبيرٍ.. لكي يستحلبَ منها ما غمُضَ وخفِيَ عليه بعدُ من شخصيَّةِ أبو غَبْرَه الفريدَة، والتي أسرَتْ وجدانَه حتى الدَّهشَة! لقد أرادَ الميتر أن يتأمَّلَ بدقَّةٍ تطوُّرَ فايروساتِ العُقَدِ النَّفسيَّةِ عندَ أبو غَبْرَة، ونمَتْ سَجينةً في روحِهِ منذ الطّفولةِ الشقيَّةِ كنموِّ الماردِ السَجينِ في قمقمٍ منذ مئاتِ السِّنين، فما إن خرَجَتْ في سِنِي النُّضوجِ تعبِّرُ عن ذاتِها علانيةً.. كانَ الدَّمَارُ الذي أحدَثْتهُ عظيماً جدّاً.

واحد

كانَ عامُ ١٩٩٩ عامَ الانفراجاتِ الاقتصاديَّة والماليَّة في حياةِ أبو غَبْرَه، وذلكَ بعدَ أزمَةٍ امتدَّت لسَنتين، وكانَ خارجَ السِّجن.

وفي ذلكَ الحين كانَ متزوّجاً من امرأةٍ اسْمُها سِهام. وهذا الزَّواج حتماً.. لم يُعمِّرْ طويلاً، لأنَّ أبو غَبْرَه كانَ في الوقتِ عينِه يُعاشرُ امرأةً خليلةً في جونية. وكانَ الشُّغل يَنجحُ ويتَّسِعُ ويتألَّق، وفي مَجالاتٍ "مُحترمَة": صَفقات وسَمْسَرات، والتَّهريبات على أنواعِها بالتَّعاونِ مع عصابتَي آل الشمّاع وآل السّرياني. وهاتان عصابتان كبيرتان قويَّتان تمرَحانِ تحت مِظلَّةٍ سياسيَّةٍ كبيرة. لقد بدأَ أبو غَبْرَه معَ الجماعتَين في ذلكَ الزّمن كعاملٍ بسيطٍ براتبٍ محدود، وخلالَ فترةٍ وجيزة أصبحَ مسؤولاً عن تنزيل البضاعةِ من الباخرةِ في مرفأ بيروت. وهكذا راحَ يتدرَّجُ معَ الأيّام، وبسُرعةٍ مُدهشَة، وعلى قدِّ فِطرَتِهِ وشَجَاعتِه وخبرَتِهِ في السَّرقةِ والتَّهريب، فارتَقى إلى وظيفةِ مسؤُولٍ عن توصيلِ البضاعَةِ من وإلى مَرفأِ بَيروت، وأصبَحَ المالُ عندئذٍ وَفراً بَينَ يدَيه. فابتاعَ منزلَه الأوّلَ في حارة صَخر-جونية، وهناكَ صاحبَ[١٢] أيضاً فتاةً جميلةً سَحَرَته، وبالسِرّ عنِ الزَّوجَةِ والعشيقةِ الأولى. لقد أغرمَ بها في الحَقيقة لدرَجةِ الهوس! لم يعرفْ أبو غَبْرَه امرأةً قويَّةً كهذه في حياتِه.. ولكنَّها بزَّتْهُ بقوَّةِ شَخصيَّتِها بأشواط، فأسرَتْ عقله وفؤادَه في آن. وكانَ لدى هذه المرأةِ فلسفة في الحُبّ أيضاً.. خلاصتُها أنَّه حتى تحتفظَ المرأةُ برجُلِها عليها أن تكونَ عاهرةً في الفِراش، وسيِّدَةَ مجتمعٍ ذاتَ شَخصيَّةٍ اجتماعيَّةٍ قويَّةٍ بينَ النّاس، ومُديرةً قادِرةً لمداخيلِه. فأمضى معها أبو غَبْرَه جزءاً طيِّباً من حياتِه. ثمَّ عادَ وابتاعَ له أيضاً سيَّارةً جميلةً من الشَّركة. ومعَ

١٢- إقتنى عشيقة.

خلفيَّتِهِ الشَّارعيَّة والعَسكريَّة الـمُنحرفَة، فقد ظلَّتْ فُتاتاتُ الإنسَانيَّةِ تومِضُ في وجدانِه. فكانَ يعفو أحياناً عنِ الضَّعيفِ والفقير البَريء.. هكذا فجأةً عندما يَستفيقُ الخَيرُ في قلبِه على غيرِ ميعادٍ أو تحضير! وَحَربُه كانتْ، في غالبيَّةِ جَبَهاتِها، معَ الأقوياءِ والـمُتنفِّذين. والسيَّارة التي اشتراها مرسيدس كوبّيه ٥٦٠ ذات لون فضِّيّ مَعدني. لقد رأى هذه السيَّارة في فرعٍ لشركةِ كتَّاني لبيعِ السيَّارات قريبٍ من بيتِه القديم على الدَّورَة، فاستعلَمَ عنها وعرفَ كلَّ شَيءٍ عن تفاصيل مواصفاتِها. ثمَّ بعدَ ثلاثةِ أسابيع كان قد انتقلَ إلى بَيتِهِ الجديد في جونية. وذاتَ صباح، حوالي السَّاعة الثّامنة، ركَنَ أبو غَبْرَه سيَّارتَه على جانب الأوتوستراد، واستقلَّ حافلة الباص إلى الدَّورَة، وتَحتَ زنَّاره غرَزَ رُزمَتَين منَ المال، كلُّ رُزمةٍ تساوي عشرَةَ آلاف دولار. كان أبو غَبْرَه ومازال، يُحِبُّ أن يَحتفظ بمظهرٍ عاديٍّ لا يوحي لا بالثَّراء ولا الفقر، ما خلا طبعاً العَمليَّاتِ الدّونجوانيَّة! ولو مَلكَ ثروةً طائِلة، لفضَّلَ دائِماً الهندامَ البسيطَ المتواضع. لا يُحبُّ أن يَلبَسَ البتّة قطعة "سينييه"، ولا يُحبُّ أن يَزِنَهُ الآخرون بميزانِ المظاهر، فشخصيتُّه ديناميكيَّة عمليَّة لا ترى في الكليشيهات والأصول أيَّ قيمَة. دخلَ إلى الرَّدْهةِ في الشَّركة، وراحَ يتحادثُ معَ الموظَّفِ البائِع في الشَّركة. وطلبَ أبو غَبْرَه منه أن يَرى السيَّارَة، فأشارَ التَّاجرُ بيدِهِ، وبغيرِ احتفاءٍ بهِ، وقال:

"السيَّارةُ هناكَ على الزَّاوية في الصَّفِّ الخَلفِيّ".

فذهبَ إليها. وراحَ يَتظاهرُ بأنّه يَتفحَّصُها، وهو العارفُ بكلِّ شَيءٍ فيها.

وبعدَ عشر دقائِق دَخَلَ رجُلٌ وامرأة ثريَّان! ولباسُهما الأنيقُ الثَّمين واضح للنَّاظر بسهولةٍ. فاحتفى بهما البائِعُ وأعطاهُما ترحيباً واهتماماً خاصّاً. وانشغلَ مَعَهما حوالي ثلث ساعةٍ بكلامٍ تارةً بالفرنسيَّةِ وطوراً بالإنكليزيَّة، وأبو غَبْرَه مُتنَحٍّ لا يَنبُسُ ببنتِ شَفة. فسيطرَ عليه شعورٌ غريب بالإهانة والاذلال، وهو رَبُّ من أذلَّ الآخرين وأهان. وبدا أبو غَبْرَه أصغرَ سِنّاً من

الموظّفِ البائِعِ بسنوات قليلة، وهذا الأخير نسِيَ نفسَه بالكامِلِ معَ الرَّجُلِ والمرأة وحَسِبَ أنَّ أبو غَبرُه قد رَحَل. وما هي سوى دقائق أيضاً حتى خرجَ الرَّجُلُ وامرأتُه، فاقتربَ أبو غَبْرَه منَ الموظَّف، وأدهشَه حضورُه الفجائِيّ أمامَه! فقد خرَجَ أبو غَبْرَه من رادارِ وعيِ البائِع بالكامل. قال أبو غَبْرَه:

''أنا سائِقٌ عند رجُلٍ سُعوديّ ثريّ، جئتُ لكي أشتريَ له هذه السيَّارَة، وأريد كومسيون لهذه الصَّفَقة''، فأجابَ البائِعُ مُرتبكاً:

''سعر السيَّارَة ١٦،٥٠٠ ألف دولار. لكَ منها ألف دولار''.

فصارَتِ السيَّارَة بـ ١٥،٥٠٠ ألف دولار. وسَحَبَ عندئِذٍ أبو غَبْرَه من تحتِ زنّارِهِ الرُزمَتَين العِشرين ألفاً، كما يَسحَبُ راعي البَقر الأميركيُّ مُسدَّسَيه ويُشهرُهُما في وجهِ عَدوِّهِ، ووضعَهُما على الطّاولة أمامَ البائِع، وقالَ له بنَبرَةٍ حادَّة.. وبَهْدلَه:

''أنت إنسانٌ بلا أخلاق. وخسارة لهذِه الشَّركة أن تكونَ موظَّفاً فيها!''

ولم يَنتبِه أبو غَبرُه لوجودِ كاميراتٍ على جُدران الصَّالة! وراحَ البائِعُ المسكين يُحاوِلُ جاهداً بمهاراتِه ودبلوماسيَّتِه أن يعتذرَ لأبو غَبْرَه، وأبو غَبْرَه يتمادى في إيذائِهِ بالكلام وإهانتِهِ رافضاً الاعتذار متَّهماً إيَّاه بعدَم احترام الزَّبائِن، وهو بالتّالي غير صالح لهذِه المهنة. ثمَّ رَنَّ التِّلفون الدَّاخِليّ، فصعدَ عندئِذٍ البائِعُ إلى الطَّبَقة الأولى، ونزلَ عوضاً عنهُ رجُلٌ مَهيب في حوالي السَّبعين من سِنيه. وطلبَ لأبو غَبْرَه فنجانَ قهوةٍ، وجلسا يَتحَادثان بهُدُوء. سألَ الرَّجَلُ أبو غَبْرَه:

''هل تعرفُ من أنا؟''

أجابَ أبو غَبرُه بالنَّفي. فقال:

''أنا سهيل كتّاني مالكُ هذه الشّركة''.

ولم يُفاجئْهُ هذا الاعلانُ البتّة، بل زادَهُ إصراراً على موقِفِه واتّهاماتِه للشّابّ المسكين، كمَن يُحاضرُ في العفّةِ وهو شَيخُ الزُّناة. قال له:

''لقد بعتُ في حَياتِي مليون سيّارَة.. وهي المرّةُ الأولى التي أبيعُ فيها بهذِه الطَّريقة. هل تريدُ أن أطردَ هذا الموظّف أمامَك الآن؟'' فأجابَ أبو غَبْرَه:

''الزُّبون مَلكٌ سيّد كتّاني، وهو يَطلبُ احتراماً من البائِع، لا أن يَقطعَ لهُ برزقِه''، فقال التّاجرُ الكبير:

''أنتَ رَجُلٌ شُجَاع.. ولا يظهرُ عليك''.

وفي نهايةِ المطاف اشترى المرسيدس الـ ٥٦٠ كوبّيه بـ ١٥ ألف دولار.

إثنان

من خلال الصَّحيفةِ الإعلانيَّة (الوَسيط) وشركاتِ تأجير السيّارات، استأجرَ مالئُ الدُّنيا وشاغلُ النّاس سيّارةً، وراحَ يشتغل عليها سائِقاً عموميّاً. وذاتَ يوم.. طلعَ أحدُهم معه، وارتجلَتِ البديهَةُ الخلاّقةُ عندَه روايةً جديدةً ولا مُخيِّلة الأدباء السُّرياليِّين! قال أبو غبْرَه للرَّجُلِ بجانبِه:

"أنا أعملُ سائِقاً عند رجُلٍ قطَريٍّ ثريّ. وأنا الآنَ ذاهب إلى بعبدات، يملكُ سيِّدي فيلاّ ساحِرَة في بعبدات. وهناكَ فرَصُ عَمَل إذا كنتَ بحاجة لفرصةِ عَمَل براتبٍ جيّد؟".

ويَبدو أنَّ الرَّجُلَ الضَحيَّة صدَّقَ التَّلفيقةَ وأذعَنَ لعَرضِ أبو غبْرَه.

ثمَّ طلبَ أبو غبْرَه من الرَّجُلِ صورةً عن هويَّتِهِ، ورقمَ هاتفِهِ وصورةً عن دفترِ سيّارتِه، وأعطاهُ المسكينُ كلَّ هذه. وأعطاهُ أيضاً أبو غبْرَه رقمَ هاتفِهِ الخليويّ الذي رماهُ في القُمامَة في اليَومِ التّالي وابتاعَ غيرَه مع خَطِّهِ، وكانت هذه المرحلةَ الأولى من تَنصيبتِهِ. والدّاهيَة أبو غبْرَه يُغيِّرُ أرقامَه وهواتفَهُ أسبوعيّاً. ثمَّ اتَّصلَ بالرَّجُلِ الذي يؤجِّرُ السيَّارات، وأرسلَ له بالفاكس صورةً عن هويَّةِ الرَّجُلِ الضَحيَّة الذي كان معه في السيَّارة، وصورةً عن دفتر سيَّارته. وقالَ له أيضاً:

"أريدُ أن أستأجرَ سيّارةً لسيِّدي الرَّجُلِ القطريِّ الثَريّ، وهو ينزلُ في فندقِ فينيسيا. أرسِلها من فضلِكَ معَ سائِقٍ من عندَك".

وذهبَ أبو غبْرَه في الوقتِ المُعيَّن وركَنَ سيَّارَته في الأشرفيّة، ثمَّ جاءَ إلى فندقِ فينيسيا كونَه سائِقَ الرَّجُلِ القطريِّ الثَريّ المزعوم الذي ينزلُ في الفندُق. واتَّصلَ ثانيةً بالرَّجُلِ الذي يؤجِّرُ السيَّارات، وقالَ له:

''أرسِلْ لي الشُّوفير ولا تعذِّبْ نفسَك وتبحث عنّي، أنا سائِق الرَّجُل القطريّ وسأكونُ في صالون الأوتيل. وعندما يصِلُ سائِقُكَ ومعه سيَّارةُ الاستئجار فليُهاتفني فوراً''.

وعندَ وصولِ السَّائِق بالسيَّارةِ المُستأجَرَة إلى الفندُقِ اتَّصَلَ بأبو غَبْرَه، وخرَجَ العبقريُّ من الفندُقِ بهندامٍ أنيقٍ كسائِقٍ لرجُلٍ قطَريٍّ ثريٍّ! فقال للسّائِق:

''أرجوك أوصلني معَك وأنتَ عائِد إلى حيث أقولُ لك''. وأذعَنَ السَّائِق.

وكانت فاتورةُ تأجير السيّارة يومَها ٤٥٠ $. وعند وصولهما إلى متجرٍ قريبٍ.. قالَ أبو غَبْرَه للسّائِق:

''إعمَل معروفاً واصرفْ لي هذِهِ المئَةَ دولار حتّى أرُدَّ لك''.

فنزلَ السّائِقُ ليصرفَ المئَةَ دولار من المَتجَر.. نزلَ وترَكَ مُحرّكَ السيَّارَةِ دائِراً.. فوثَبَ القِردُ أبو غَبْرَه إلى مِقوَدِها.. وطارَ بها إلى جِهةٍ مجهولة.

ثلاثة

في جونية عمِلَ أبو غَبْرَه في شركة تاكسي فورمولا وان. وسرقَ سيَّارةً بعد ثلاثةِ أيَّام من بدايةِ عملِهِ في هذه الشَّركة، والسيَّارة مرسيدس ٢٣٠ أمّ عيون، وأوراقُ السيَّارةِ كلُّها فيها باسم مالكِها. ثمَّ باعَ في اليَومِ التالي الجهازَ اللاَّسلكيّ الذي كانَ فيها بـ ٣٠٠ $. وبعدَ خمسةِ أيّام لم يَقدرْ أن يَبيعَ السيَّارة.. وقد تعمَّمَتِ السيَّارةُ في كلِّ لبنان، والتَّحريُّون في كلِّ مكان! شابٌّ صديقٌ أرشدَه إلى رجُلٍ في البلديَّةِ "محروق"[١٣] على سيَّارة، ويقعُ منزله قريباً منَ البلديَّةِ في الزَّلقا. فقامَ أبو غَبْرَه وقصدَ لعندِه في بَيتِهِ، وقالَ له:

"لقد أرسلني إليكَ فلان الفلانيّ وأريدُ أن أبيعَ السيَّارة".

وبعد مفاوضاتٍ ونقاشاتٍ طويلةٍ على السِّعر لمْ يشترِ الرَّجُلُ السيّارة. وبقيَتْ معه عشرة أيّام أخرى، وهذا وقتٌ خطير جدّاً! ثمَّ انتظرَه ذاتَ مساءٍ.. وكمنَ للرَّجُل عندَ مدخلِ البَلديَّةِ فأصعَدَه وصَحِبَهُ معهُ إلى بَيتِهِ. وهناكَ تعرَّفَ أبو غَبْرَه على زوجته، وهي جذَّابةٌ مثيرة وزوجُها رجُلٌ في الستّين من عمرِهِ! وفهمُ القارئِ كفاية عمَّا جرى فيما بعد بينَها وبينَ أبو غَبْرَه. ثمَّ جلسا في بَيتِ الرَّجُلِ يتباحثانِ بسعر السيَّارة وهو ١٥ ألف دولار. قالَ له أبو غَبْرَه:

"أنا مسافر إلى أستراليا وتستطيع أن تقسِّطَ ثمَرةَ السيَّارَة لوالدي على ثلاث سنوات". وهكذا انتهت المفاوضات بعشرَةِ آلاف دولار. وعمِلَ له وكالةً بالبَيع بهويّتِهِ المُزوَّرَة، ونقدَه عشرَةَ الآلاف دولار كاش. قال له الرَّجُل:

١٣- يريد أن يشتري سيّارة بأيِّ ثمن. شارٍ مستعجل.

''سأفحَصُ السيَّارَة''، وفحصَها وكانت جيّدةً كما رآها. فأعطاهُ أبو غَبرُه مئتَي دولار، وقالَ له: ''الفرامل والزَّيت على حسابي''.

ولم يكتفِ الذِّئبُ بهذا.. فقدِ اتَّصلَ بصاحبِ السيَّارةِ المسروقةِ من هاتفٍ عموميّ، وقالَ له:

''سيَّارتك في المكان الفلانِيّ تعال وخذها''.

فجَاءَ هذا ومعَهُ رجالُ الشُّرطةِ، فأخذَها وأوقِفَ الشَّاري المِسكينُ رجُلُ البلديَّة ثمَّ أطلِقَ سراحُه في اليَومِ التّالي. وأخذَ أبو غَبْرَه العشرةَ آلافِ دولار وتوارى عن الأنظار.

أربعَة

في عـامِ ٢٠٠٩ كان عـادل مِلحِـم كلاَّوي أبـو غَبْـرَه مُنطلقـاً إلى الكـورةِ في الشِّـمال، يقـودُ سيَّارتَه مـن نـوعِ مرسيدس GLK، فتوقَّـفَ في البـترون، ودخلَ إلى أحدِ المقاهي الفاخرة، وجلسَ إلى طاولةٍ قربَ الواجهة الزُّجاجيَّة الـمُشرفة على الشّـارع. ثمَّ طلبَ فنجانَ قهوة ونصيَّةَ[١٤] ماء، ثُمَّ راحَ يفتِّشُ عن رقم هاتفٍ لصديقٍ على موبايلِهِ الآي فون الجَديد. وصدَفَ أنَّ فتاتَين كانتا جالسَتَين إلى طاولـةٍ قريبةٍ منه.. ثمَّ انتبَهَ فجأةً! لفتـاةٍ ثالثةٍ دَنَـتْ وقالـتْ للفتاتَين وهي تنضَمُّ إليهما على الطَّاولة:

"هـاي كيـف الصَّبـايا سـافا؟"، واستخدَمَتْ في تحيَّتِها اللُّغاتِ الثلاث: الانكليزيَّة والعربيَّة والفرنسيَّة في آنٍ معاً. وضحكَ عادل ضحكةً.. خرَجَتْ رُغماً عنه إلى العلَن، وسَمِعَتْها الفتياتُ الثلاث! فالتفتَتْ إليه إحداهُنَّ وظنَّتْهُ ساخراً، وسألته مُظهرةً انزعَاجَها:

"أهناكَ ما يُضحِكُ يا هذا؟" فأجابَها بلغةٍ إنكليزيَّة مكسَّرَة! لا هي إنكليزيَّة ولا أميركيَّة، أستراليَّة أو كنديَّة، تعلَّمَها من سَفرتَيهِ عبرَ مشوارِهِ المِهنيِّ الطَّويل:

"لماذا تتكلَّمْنَ هكذا ثلاثَ كلماتٍ في ثلاثِ لغاتٍ في مقابل كلمة واحدة: مرحبا؟!".

فسألته الفتاةُ التي ألقت هذه التَحيَّة المثلَّثةَ الأبعاد:

١٤- نصف قنينة.

''من أين حضرتُك؟''، فأجابَها مُرتجلاً التّفنيصات[15] كجَاري عادتِهِ:

''أنا أستراليٌّ مِن أصْلٍ لبنانِيّ.. واسمِي ماتاسِّيم''، فسألته:

''أنتَ لا تتحدَّثُ بالعربيَّة جيّداً يا ماتاسِّيم؟'' فأجابَها:

''شوي.. شوي.. عظيم والله!'' وبنَبرَةٍ أستراليَّة. فقالت له وهي تضحَك:

''ليسَ عظيم والله.. بل والله العَظيم''. وسألها بخُبث:

''وما الفرقُ بَينَ الاثنين؟'' فأجابت:

''هنا في لبنان يقولون هكذا.. والله العَظيم''، ثمَّ دَعَتْهُ إلى طاولتِهِنّ:

''لماذا لا تنضَمُّ إلينا وتشرَب معنا القهوَة؟'' فأجابَ ملبّياً الدَّعوَة بطيبةِ خاطر:

''لا بأس.. حسناً''.

وعندما قامَ وجلَسَ مع الحَسناواتِ الثلاث، سألتْه إحداهُنّ:

''كم بقيتَ في أستراليا؟'' فأجابَها وهو يُبدعُ في ابتِكار السّيناريوهات:

''١٣ سنة وسبعَة أشهر تقريباً''، فقالت له:

''إنَّه وَقتٌ طويل!''. وسألته الفتاة الأخرى:

''هل جئتَ إلى لبنان للسِّياحَة؟ أم تريد الاستقرارَ هنا؟''، فأجاب:

''لا.. لقد جئتُ لكي أتزوَّجَ لبنانيَّة''. واستبشرَتِ الفتياتُ الثلاث خيراً بالرَّجُل. فسألت إحداهنَّ:

١٥- الأكاذيب بالعاميَّة.

"وهلِ التقيتَ إن شاءَ الله بسعيدةِ الحَظِّ العروس هنا؟" فأجابَها بخليطٍ من الانكليزيَّة واللبنانيَّةِ المكسَّرَة:

"آسف.. فأنا في لبنان منذ ستَّةِ أيّام فقط". ثمَّ عادَت وسألته المتحدِّثةُ الأولى معه، وهي التي تجلس لناحيَتِه:

"هل أحببْتَ بلدَك لبنان أثناءَ هذه المُدَّة التي قضَيتَها في أستراليا؟"، فأجاب:

"لبنان بلدٌ جميل جدّاً.. ولكن هناكَ مُشكلة كبيرة!"، فسألته:

"هل الطائفيَّة؟" أجاب:

"لا" فسألت:

"السّياسَة؟" فأجاب أيضاً:

"لا" فقالت:

"حَذِرت.. النِّفايَة!" فقال:

"لا.. لا.. ليس هذا قصدي"، فقالت عندئذٍ:

"أصبحَ لديَّ الفضووووول لأعرفَ ما هو هذا الشَّيء الذي ليس جميلاً في لبنان غير هذه؟!"

فقال لها عادل كلاَّوي:

"إسمعي يا صديقتي.. معظم النِّساء في الشّرق الأوسط، وليسَ الكلّ، وخصوصاً في لبنان، يعطينَ رجالهنَّ حقوقَهم مئَة بالمئَة وأكثر بقليل". فأيَّدَتهُ بسُرور ودهشة:

"صَحيح!!" فتابعَ هو:

"ولكن للأسف.. في لبنان لم يُعطِ الرِّجالُ نساءَهم عشرة أو عشرين أو حتى ثلاثين بالمئَة. هذا فضلاً عن الإهانات والذلِّ وقلَّة الثِّقة.. والضَّرب أحياناً وما شابه"، فقالت:

"صَحيح.. صَحيح!!" فتابعَ يغرُفُ من خزَّانِ مُخيِّلتِهِ المُبدِعَة في شِبهِ خِطاب:

"سَمعاً يا صديقاتي.. لقد أعطانا الرَّبُّ التِّكنولوجيا في هذه الحَياة.. وأربعَةَ أبوابٍ هي: الحوار التفاوض النِقاش والتشاور.. وبمقدورِنا والحالة هذه أنْ نَعالِجَ أكبر مشكلة تواجهُنا ونحن نحسو فنجانَ قَهوتِنا.. ومع ابتسامةٍ منوَّرَة. لأنَّ صِياحَ الزَّوجَة قلَّة احترام للرَّجل.. والضَّرب يزيدُ من عنادِ الزَّوجةِ وخيانتِها حتى الانفصال. لماذا تتزوَّجون في هذا البلد؟! سافروا إلى الغَرْب وهناكَ ترَوا حقوقَ المرأةِ حاصلةً عليها صحيحةً كاملة". فقالت له إحداهنّ:

"هذه هي المرَّة الأولى التي أسمعُ فيها رجُلاً يؤيِّدُنا في الرَّأي!"، فقال برياء:

"أنا دائِماً أصلِّي إلى الله أن يكونَ إلى جانبِكم".

وهكذا تمدَّدَ التناوشُ في الكلام بين الأربَعَة، وتعمَّقَ التعارف. قال لهُنّ:

"أنا اسمي ماتاسّيم" وقلنَ له على التَّوالي:

"أنا تانيا.. وأنا سارَه.. وأنا ستيفاني".

وسألت سارَه:

"لو تعرَّفتَ على فتاةٍ في يومٍ من الأيّام وأعجَبَتْكَ.." فقاطعَها:

''جيِّد'' فتابَعَت:

''وخطبتَها..'' قال:

''جيِّد جدّاً'' فتابَعَت:

''ثمَّ اكتشفتَ أنَّها امرأة وليسَت فتاة! فما هو شعورك؟''، وضَحِكَ الذِّئبُ أبو غَبْرُه مِلءَ شَدْقَيْه. سألته بدهشَة:

''لماذا تضحَك؟'' فأجاب:

''عندما تزوَّجَتْ أمّي من أبي رحِمَهُ الله كانتِ امرأةً! وكان لديها ثلاثةُ عشّاق سابقين. أختي الصَّغيرة في أستراليا.. في كلِّ موسم صيف لديها خليلٌ جديد. من يسأل هذا السُّؤال يا صديقتي؟! ألا تُشاهدونَ هنا الأفلام الأميركيَّة؟ المرأة تختبرُ علاقاتٍ عديدةً في الحياة ثمَّ بعدَ ذلكَ تستقرّ وتتزوَّج''. فسألت إحداهنّ:

''أنتَ ذو عَقليَّةٍ منفتِحَة''، فأجاب:

''طبعاً'' فقالت إحداهنّ، سارَة:

''أنا في حياتي كلِّها لم اطلبْ رقم شابٍّ لا أعرفُه.. هل أستطيعُ أن آخذَ رقمَ هاتفِكَ بهدَفِ الصَّدَاقة؟'' فأجابَ بابتسامَةٍ عريضة:

''بكلِّ تأكيد''، وتبادلَ معها أرقامَ الهواتف. ثمَّ استأذنَ في نهايةِ المطاف، وطلبَ المغادرة وخرَجَ من المَقهى. وبعد ساعَتين بالضَّبط! اتَّصَلت بهِ سارَة وسألته أن يأتيَ ويتعشّى معَها في الشّاليه عندَها. فقالَ لها بخبث:

''أرجو ألاَّ أسبِّبَ لكِ إحراجاً''، فقالت:

''لا تخف أنا هنا لوحدي''، فأجاب:

''حسناً''.

ثمَّ أرسلت له رسالةً تشرحُ فيها عن موقعِ وعنوانِ الشَّاليه. فجاءَ إليها توّاً.

ثمَّ تناولا العشاءَ الشَهِيّ.. معكرونة لازانيا وبطاطا مقليَّة وصالصا.. ورومنسيّات على أكمَل وجه. وحادثها أنَّ اللُّبنانيّين كذَّابون كثيراً، وأنَّهم مَهَرَة في فنِّ الرِّياءِ والخِداع. وشعرَ عندئذٍ عادل كلاَّوي أنّه الآن.. يُمكِنُ أن ينتقلَ إلى ما هو أكثر منَ الكلام، إلى الفِعل. فسألها:

''هل أستطيعُ أن آخذَ دوشاً هنا؟'' فأجابته:

''بالتّأكيد.. حَمَّامي أنا ٢٤/٢٤ مياه ساخنة''.

فدخلَ عادل إلى الحمَّام وأخذَ دوشاً.. ثمَّ خرجَ وراحَ يُجفِّفُ جسدَه، وقالَ لها:

''حتماً أنت أيضاً ستأخذين دوشاً!''. وحدَّثَ عادل نفسَهُ.. أنَّه إن لم تكن نظيفةً فسَوفَ تأخذُ هي الآخرى دوشاً أيضاً. فقالت له:

''وأنا أيضاً سَوفَ أستَحِمُّ''.

وعندما دَخلتِ الفتاةُ الحمَّام جَهَّزَ الشَّيطانُ هاتِفَيْهِ الذَّكيَّين للتَّصوير في غرفةِ النَّوم، في مكانَين متباعدَين لا يُمكنُ أن تنتبهَ لهما. كاميرتان خفيَّتان في الغرفة! وتمدَّدَ على ظهرِهِ فوقَ الفراش. وعندما انتهَتِ المسكينة من دوشِها، وخرَجَت ونظرَت إليه، سألته:

''لماذا تنظرُ إليَّ هكذا؟'' فأجاب مُظهراً افتِتانَه بها:

''أنتِ حقّاً جميلة يا سَارَه'' فأجابَته:

''لا، أنتَ الجَميل يا فارسي!''.

وجاءَت وتمدَّدَت إلى جانبِهِ وراحَ يداعبُها ويقبِّلُها.. لينتهيَ بهما المطاف إلى اتِّصالٍ جنسيٍّ كامل ولاهبٍ بينهما. وعندَما انتهَيَا قال لها وهو يُشعِلُ لفافة:

''أخبري الكاميرا الخاصَّة بي هناكَ أنَّكِ سَعِيدَة''. فسألت مذعورة:

''أيّ كاميرا؟''، أجابها:

''هذه التي أمامَك هنا'' فسألت:

''هل كنتَ تقومُ بتصويرنا؟''، فأجابَها.. في هذه اللَّحظة.. وباللُّبنانيَّةِ الصَّحيحةِ كما يقولُها أيُّ لبنانيٍّ مُقيمٌ في البلَد:

''بَدِّك ما تواخذيني''، فقالت وهي ترتجفُ ارتجافَ ورَقةِ الخريف:

''وأنتَ تتحدَّثُ اللُّبناني جيِّداً أيضاً؟!''، فقال لها:

''أنا عربي إبن عربي.. شو بَدِّك ياني أحكيكي سترليني؟''، فسألت:

''لماذا عمِلتَ معي هذا الأمرَ الفظيع؟!''، فأجاب وهو مسترسل في أفلامِه على قدِّ جَمَحات خيالِه الرَّحب:

''أنا متزوّج منذ أربع سنوات. ومن يوم زواجي حتى الآن آكلُ بطاطا عا كزبرة، بطاطا عا بندورة، بطاطا عا بيض أو بطاطا عا بطاطا... وبطاطا عا لحمِة لا آكل لأنَّه من يأكل بطاطا بلحمِه يجب أن يشتغلَ شغلتين.. السَّرقة والمُخدِّرات.. والذي يشتغل هاتين الشّغلتين سوف

يزورُ المنتجعاتِ السِّيَاحيَّة الهامَّة في هذا البَلد: رومية بلازا مثلاً[١٦]، أو تريبولي بالاس، أو أميون فيلاّج، أو صيدا كامباني، أو بعبدا مول... إلخ. لا أريد أن أعدِّدَ لكِ سُجُونَ لبنانٍ، منَ الآخر (أطعمي الفَمَ فتخجلِ العين)، أوكاي". فقالت له:

"أنتَ حقّاً إبن حَرَام"، فقال لها:

"بليييز! لا تستعملي الكلامَ البَذِيء معي حتى لا أزيد عليكِ المال!!" فقالت وهي تكاد تخرجُ عن طورها:

"آه.. وهل تُريدُ أجرتَكَ أيضاً؟!" فقال لها:

"أنتِ كريمة وأنا أستأهل".

وهكذا بدأ الحوارُ بينهما. قال لها:

"كما قلتُ لكِ في المقهى أتذكرين؟ حوار تفاوض نقاش تشاور!".

وهكذا انتهى الشِّجارُ بينهما على مبلغ سبعةِ آلافِ دولارٍ أميركيّ.. قبلَت بها سارَه كبَديلٍ واقعيّ عن الفضيحةِ الحَتميَّة. وقد سَحَبَتْها المسكينةُ في اليَومِ التالي من مدَّخَراتِها في البنك. وقالَ لها عادل وهو يَضحَكُ لدى رؤيتِهِ المال:

"ويقولون أنَّ لبنان بلدٌ ليسَ فيهِ مال!! أليسَ كذلِكَ يا حُلوَه؟".

١٦- الكلام هنا سخرية مبطنة، في معرض الإشارة إلى سجون لبنان.

خمسَة

عام ٢٠٠٤ كان لدى مالئِ الدُّنيا وشاغل النَّاس امرأةٌ عشيقة جميلة.

وعادةً أبو غَبْرَه لا يُدخِلُ شُركاءَ معه في العمليَّةِ الواحدة غيرَ اثنين، فحِصَّةُ الشَّخص الواحد تتضاءَلُ معَ ازديادِ عددِ أفرادِ المجموعة.

كانَ شريكُه هذه المرَّة شاباً في القوّات، وكان متزوِّجاً وتوفِّيَتْ زوجتُه بداءِ السَّرطان وله منها صَبيٌّ وبنت. وكان هذا الرَّجُل يُنفِقُ مالاً على ولَدَيه أكثر ممَّا يُنفِقُ أبو غَبْرَه على نفسِه. وكان يحسبُ الحساباتِ كلَّها قبلَ الشُّروعِ في أيِّ عمليَّة، فهو رَبُّ أسرَةٍ وليسَ عازباً مثلَ أبو غَبْرَه.

واختيارُ المصرف لعمليَّةِ سَطو أمرٌ له أهميَّته الخطيرَة! فلا بدَّ أوَّلاً أن يكون بعيداً عن الواجهةِ.. الشَّارع أو السَّاحة، ويجبُ أن يكونَ له أبوابٌ كثيرة لتسهيل الدّخول والهروب بسرعة. وعنصرُ المُفاجأة هامٌّ أيضاً! وإذا كانَ الطّقسُ ماطراً قليلاً يكون أفضل. ثمَّ تأتي المرحلة التّاليَة وهي التجسُّسُ على البنك/الضَحيَّةِ من خلال الدّخول إليه وحِفظِ غرَفِه. وحُجَّة الدّخول للتَّجسُّس بسيطة للغايَة.. صرفُ مئةِ دولار مثلاً، أو دفعُ فاتورةٍ معيَّنة، أو سؤالٌ عن التأمين. وخُبراءُ هذه المِهنة يعرفونَ جيّداً أنَّ الكاميرات تمحو داتا ما تصوِّرُهُ كلَّ ثلاثةِ أشهر تلقائيّاً، فلذلِكَ تُنجزُ عمليَّةُ التجسُّس بكامِلِها في بَحرِ الأشهرِ الثلاثة، وبعدَ مضِيّ الأشهُرِ الثَّلاثة يأتي التَّنفيذ.

قبلَ أسبوعين منَ اقتِحَام المصرف سَرَقَ أبو غَبْرَه سيَّارةً من موقفٍ للسيَّارات عالكاليبرا[١٧].

١٧- الطريقة التي تمّت بها سرقة السيّارة.

وقبلَ ليلةٍ واحدَة ركَنا، أبو غَبْرَه وصديقُه سيَّارَتين اثنتَين، كلَّ واحدةٍ على طريقٍ بصورةٍ مدروسةٍ.. فتوزيعُ هاتين السيَّارَتين جزءٌ هامٌّ من الخطّة! وإذا ألمَّ الشَّرُّ المُستطير تكون السيَّارةُ الأولى هي الخُطَّة ب، والثانيَة الخُطَّة ج. ثمَّ هناكَ سيَّارَة أيضاً في أدونيس لمتابَعَة عمليَّة تضليل المُلاحقين ثمَّ الفرار. وضعَ أبو غَبرَة في السيَّارَة رقم أ، أي سيَّارة تنفيذِ الاقتِحام علبة كرتون فيها أوعيَة مَعدنيَّة لزيتِ سيَّارات محروق، لرَميها في الطّريق وإعاقةِ المُطاردين. وفي اللَّيلة التي سبَقت عمليَّة اقتحامِ المصرف.. ولسوءِ الطّالع! ما إن وصَلَ أبو غَبْرَه إلى البيت، وقد أوصلهُ شريكُه في هذه العمليّة إلى بيتِهِ في البوار ورحَل، حتى اتَّصلتْ بهِ عشيقتُهُ الفاتنَة، وقالت له:

"أنقِذنِي يا أبو غَبرُه لقد قُتِلَ أخي!!".

وذُعِرَ أبو غَبرُه لهذا الخبَر أيَّما ذُعر!!

فهرَعَ من فورِهِ إلى سيَّارتِه الرّاكنة قربَ البيت، ولم يستطع فتحَ الكونتاك بسببِ شدَّةِ اضطرابِهِ وتوتُّرِه! لدرجَة أنِ اتَّصلَ بصديقِه وطلبَ منه أن يُحضِرَ سيَّارتَه فأتى، وتركَ أبو غَبْرَه سيَّارتَه راكنةً وقادَ سيَّارةَ الصَّديق. ثمَّ أخذوا القتيلَ إلى المُستشفى جثَّةً هامدَة. فقد تلقَّى في جسدِه عشرَ رصاصاتٍ.. من الرَّجُلِ العجوز جارِهم في البناية وعمره ٧٠ سنة.. لسبَبِ خلافٍ بسيطٍ على مواقفِ السيَّارات، ثمَّ أطلقَ العجوزُ النَّارَ على نفسِهِ وانتحَرَ هو الآخر.

وعادوا من المستشفى. وبقيَ أبو غَبْرَه حتى السّاعةِ الرّابعة صباحاً عندَ عشيقتِهِ المفجوعة بموتِ أخيها. وعملَ كلَّ الواجبات. فقد فتحوا السُّوبرماركت بعدَ منتصفِ اللّيل، وجاؤوا بالبُنّ والسكّر والكلينكس والدُّخان والضّيافات والكراسي، وأنجزوا طباعةَ أوراقِ النَّعوة وكلِّ ما يلزم. ثمَّ ودَّعَ أبو غَبْرَه صديقتَهُ وغادرَ على أن يَعودَ إليها في اليَوم التّالي باكراً.

وأوى إلى فراشِه.. وكيفَ السَّبيلُ إلى النَّوم؟! في السَّاعةِ السّادسة صباحاً قامَ من فراشِه، وشربَ القهوة وأكلَ القليل من الكعك. ثمَّ اتَّصَلَ بشريكِهِ فجَاءَ إليه. وحدَثَ التَّناقضُ بينَهما.. الشَّريكُ يريدُ التأجيلَ وأبو غَبْرَه يريدُ التَّنفيذ. واحتدمَ الجدال.. فهدَّدَ أبو غَبْرَه شَريكَه:

"إذا ذهبتُ أنا لوحدي.. فكلانا سيدخلُ إلى السِّجن"، ويقصد أنّه سيُفشِي عنه أيضاً في حال ألقِيَ عليه القبض. وجَبُنَ الشَّريكُ كثيراً لسببِ حساباتِ عائلتِه ووَلَدَيه.

وفي السّاعة التّاسعَة والنِّصف ركنا السيّارةَ بعيداً قليلاً عن البنك، لاستبعاد احتمال وجودِ ما يُعيقُ لحظَةَ الفِرار، وتركا المُحرِّكَ دائِراً. فالتَّنفيذُ، حتماً، يجبُ ألاَّ يتعدَّى الدَّقائِقَ القليلة! وقرَّرا ألاَّ يُطلقا النّارَ وراءَهما في الشَّوارِع عندَ الفِرار إلاَّ عندَ الحاجَة المُلحَّة. ولكنَّ الشَّريكَ ألمتْ بهِ نوبةُ خَوفٍ غريبَة! وحتى اللَّحظةِ الأخيرةِ كان متردِّداً في المُشاركةِ في التَّنفيذ. فقالَ أبو غَبْرَه لشريكِه:

"أنا داخِلٌ معكَ وبِلاك لا فرقَ عندي، فأنا داخلٌ لأصنعَ التّاريخ، وأدخلَ السِّجن".

وتركَه ودخَلَ من فورِه إلى البنك.. وطلعَ في وجهِهِ رجُلُ الأمن، فركَلَهُ برجلِهِ ركلةً طارَ بها وسقطَ أرضاً. شهرَ المسدَّس الرشَّاشَ وأطلقَ عيارَين ناريَّين إلى السَّقف، وصرخَ بالجميع صرخةً إرهابيَّةً مُريعَة، فاحتمى الجميعُ بالأرض. وخلال دقيقة وصلَ أبو غَبْرَه إلى الصَّناديقِ والجوارير وعبّأ الكيسَ الذي معه بالمال، وقد حشاهُ حشواً. وكانَ الشَّريكُ قد غيَّر رأيَه وجاءَ من ورائِهِ ودخلَ المصرف وآزرَه، فراقبَ بسلاحِهِ الجميعَ منبطحين أرضاً. ثمَّ خرجا بسُرعةِ البرق.. وطلعا بالسيَّارةِ، أبو غَبْرَه من وراء والشَّريك من قدّام يقودُ السيَّارَة. وانطلقا. ثمَّ ألقى أبو غَبْرَه الزَّيتَ المحروقَ على الطَّريق وراءَهما.

ودخلا في شارعٍ وطلعا من شارع حتى وصلا إلى أدونيس. فخلعا عنهما اللّباسَ الذي يرتديانِه فوقَ اللّباسِ الرّياضيّ، ووَضَعا السّلاحَين ولباسَ العَمَليَّة في حَقيبةٍ، وركنا السيَّارةَ في مأمنٍ، وطلعا بسيَّارةِ أبو غَبْرَه الرّاكنة هناك، وانطلقا إلى نهر إبراهيم.

ولاح لأبو غَبْرَه أنَّ الشَّيطانَ قد يوسوسُ في عقلِ شريكِهِ.. فيقتلَهُ ويأخذَ المال! فأرسلَ أبو غَبْرَه إليه نظراتِ عدَم ثِقة، وأنَّه هنا.. والآن.. يجبُ أنْ تتِمَّ قسمَةُ الأرباح. وهكذا صار. فكانت حصَّةُ كلٍّ منهما ١٨٠ ألف دولار.

وكانَ أبو غَبْرَه قد حَجَزَ غرفةً قبل أسبوع في الفندقِ لعَشرَةِ أيَّام.. يختبئُ فيه مع عشيقتِهِ بعيداً عن الأنظار. وبعدَ مرور يَومَي التَّعزيَةِ بأخيها.. ذَهبَتِ العشيقةُ مع أبو غَبْرَه إلى الفندق تشاركُهُ احتفالَه بنجاحِ العمليَّة.

ستّة

كان عادل ذاتَ يوم في الأشرفيَّة قريباً من ساحةِ ساسين، وكانتِ السّاعة الثّالثة بعدَ الظُّهر. وجاءَهُ اتِّصالٌ على الموبايل من صديقٍ شابّ يُدعى رامي معتوق في البترون. قال رامي لعادل، وعادل طبعاً هو أحدُ تجلّياتِ حارث مِلحِم النَجّار أبو غَبْرَه:

''أنا أريدُكَ الآن.. لضَرورةٍ مُلحَّة جدّاً!''.

واضطرَبَتْ أحشاءُ عادل للنَّبأ! ثمَّ سألَ صديقه رامي والخوفُ بادٍ في رَجفةِ كلماتِه، فمالئُ الدُّنيا وشاغلُ النّاس مَطلوبٌ حيّاً منَ الدُّنيا وفي الآخرَةِ أيضاً:

''ماذا هناكَ يا رامي ماذا تُريد؟!'' فأجاب رامي من فورِه:

''إذا كنتَ تُريدُ أن تجنيَ مالاً.. فتعالَ الآنَ ولا تتأخَّرْ دَقيقة''.

فاطمأنَّ عادل وانطلقَ إليه بسرعةِ البَرق، بعدَ أن حدَّدَ له رامي المكانَ في البترون. وعندما وصلَ إلى المكان المُعيَّن، عادَ واتَّصلَ به ثانيةً وحَدَّدَ له بأكثر دقَّة، وقال:

''أنا عندَ محلاّت رفعَت الحلاّب'' فأجابه عادل:

''دقيقة وأكون عندك''. ثمَّ التقى الرَّجُلان عندَ المحلاَّتِ المذكورَة. وقالَ رامي:

''هناكَ امرأةٌ مُثيرَةٌ ثريَّةٌ جدّاً يا عادِل.. وتُدعى نرمين من عائِلةٍ معروفةٍ جدّاً''. سألَ عادل:

"ما بها؟" فأجابَ الصَّديق:

"إنّها امرأةٌ نادرةٌ في هذِه المنطقة يا عادل!! وفهمُك كفاية"، فقالَ عادل عندئذٍ:

"أعطِني رَقمَ هاتفِها".

وهكذا حصلَ عادل على رقم هاتفِها الخليويّ من صديقِهِ رامي. ثمَّ راحَ يتأمَّلُ في صورها على الواتسآب.. فوجدَها ما بين الـ ٣٥ والـ ٤٠. ورأى عادل أنّه لا يستطيعُ الاتّصالَ بها هاتفيّاً لأنّه لا يعرفُها، ولكنَّه وجدَ فيها صَيداً مُغرياً فسجَّلَها في أجندتِه. ثمَّ فكَّرَ أيضاً وحدَّثَ نفسَه:

"هيّا يا عادل .. ما بكَ؟".

وحَصلَ عادل على عنوان موقِعِ منزلِها من صديقِهِ رامي. ولكنَّه لم يَستطعْ إلى النَّومِ سبيلاً في تلكَ اللّيلة اللّيلاء، من نارِ شوقِهِ إلى طلوعِ الصَّباح. وَجاءَ في اليومِ التَّالي إلى العنوان الذي كان مَعَهُ، مكانِ منزل هذه المرأة نَرمين في البترون. وكان عادل يَحسو النِّسكافِه في سَيَّارتِه، التي رَكَنَها قربَ حَديقةِ منزلِها الفَخم كذئبٍ رابضٍ عندَ حَظيرَةِ النِّعَاج. وكانَ هناكَ داخلَ أسوار الحديقةِ مقاعد خشبيّة، فنزل عادل من السيّارة ودخلَ الحديقةَ وجلسَ على أحد المقاعد بوقاحةٍ وتابعَ شُربَه النِّسكافِه. وانتظرَ هكذا حتى السّاعة الحادية عشرَة حينَ ظهرَتْ، وعندما رآها لم يصدِّقْ عينيه!! آيةٌ من الجاذبيَّةِ والإثارَة. لقد خرَجَت ودخلَتْ في سيَّارتِها الرِّياضيَّة الحَمراء السَّاحِرَة وانطلقَتْ بها، فلحِقَها بلا تردُّد فهداً يُطاردُ غزالة. والمُشابَهَة هنا بينَ الإنسانِ والحَيوانِ جائِزَة، فسُلوكيَّاتُ وأمزجَةُ البشَر لها دائِماً ما يُرادفُها في حَيَاةِ الحيوانِ، والرَّديفُ الحيَوانيُّ خيرُ تفسيرٍ للبشَريّ. كانتِ نَرمين ذاهبةً إلى صالون التّجميل والتّزيين في البترون. فرَكَنَ عادل سيَّارته

إلى جانبِ الطّريق عندما كانت هي تدخل إلى الصّالون. وبعدَ مرور ربع ساعة دَنا عادل من بابِ مدخل الصّالون وفتحَه بجُرأةٍ غريبَة.. ودَخل! فنظرَ إليه الجميعُ في الدّاخل ولم يصدِّقوا عُيونَهم!! ربّما خطَرَ لبالِ بعضِهِنَّ أنَّ هذا الصّالون مُلكٌ لهذا الوافد الجريء أو لأبيه أو لأحدِ أقربائِه! وكان الجميعُ في الدّاخل نساءً ما خلا رجُلاً واحداً. فصاحَ هذا الرَّجُلُ بعادل:

"هاي أنتَ.. إلى أين؟!"

فنظرَ إليه عادل وابتسَم. فتابَع الرَّجُل:

"ألم تسمَعْني يا هذا.. ماذا تفعل هنا؟!" فأجابَ عادل بالإنكليزيَّةِ مرتجلاً كالعادَةِ، فانتازيّاتِه المُدهِشَة:

"أنا آسف جدّاً.. وليسَ لدَيَّ الوقت.. أريدُ أن أقومَ بتجميل وجهي.. لدَيَّ موعدٌ هامّ لو سَمَحت". فأجابَهُ الرَّجُل، وبالإنكليزيَّةِ أيضاً:

"ألا ترَى يا رَجُل؟ هذا المكانُ للنِّساءِ فقط؟" فأجابَ عادل:

"وما الفرق؟ أحتاجُ لخمسِ دقائِقَ فقط". فتنَحنَحَتْ عندئذٍ نَرمين، وهي الأفضل بينهُنّ، وقالت:

"لا مشكلة روبير.. يبدو أنَّه أجنبيّ.. لا بأس"، فسألَها عادل بالإنكليزيَّة:

"عفواً هل هناكَ أمرٌ ما؟" فأجابَته هيَ بالإنكليزيَّةِ هذه المرَّة:

" لا.. كنت أقولُ لروبير أن يُسهِّلَ لكَ أمرَك"، فقال لها عادل بالإنكليزيّة:

"شُكراً" فقالت:

"ولا يَهُمّك". ثمّ سألته:

"من أينَ أنت؟"، فأجابها:

"أنا أستراليٌّ من أصلٍ لبنانيّ"، فتعجَّبَت وقالت:

"أنتَ لبنانيٌّ الأصل..! ولماذا لا تتكلَّمُ العربيَّة؟!"، فأجابَها:

"أنا في أستراليا لأكثر من ١٥ سنة... آسف لَدَيَّ صعوبة في التَّحدُّثِ باللُّبناني"، فقالت له:

"جيِّد.. ولا أنصحُكَ أن تتكلَّمَ باللّبناني"، فسألها مُظهراً الدَّهشَة:

"لماذا؟!"، فأجابته:

"لأنَّ الأمرَ الأوَّلَ الذي ستتعلَّمُهُ هو الكذِب.. لذلك إبقَ هكذا أفضَل"، فقال لها:

"أوكاي".

وعندما جلسَ عادل على كنبَةِ الانتظار.. نظرَ إلى أصابع رجليها، وقالَ لها ثانيةً:

" واو.. ما أجمَلَ أصابع رجليك!!"، فقالت له وقد امتُقِعَ وجهُها خجَلاً:

"حقّاً! شكراً لك"، فقال لها:

"عفواً.. هذا في أستراليا ليسَ عيباً.. هذا فقط مجرَّد إحراج بسيط". فقالت:

"شكراً.. أنا أعرف هذا الأمر"، وأضافت بسؤال:

"منذ متى وأنتَ في لبنان؟"، فأجابها:

''منذ أسبوعين تقريباً''، فقالت:

''جيّد.. أريد أن أنصحَك نصيحَةً هامّة''، قال:

''تفضَّلي''، قالت:

''هنا في لبنان يوجد الكثير من الأمراض.. فلذلكَ انتبِه لنفسِك''، فقال لها:

''شكراً على هذه النَّصيحَة القيِّمَة. أنا اسمي عادل وأنتِ''، فقالت:

''أنا نَرمين''، ثمَّ أمسكَ يدَها، وقبَّلَها أيضاً وبلهفةٍ مزعومَةٍ ورومنسيَّة.. فقد شَعرَ بتأثيرِ قبلتِهِ حين نظرَ في عَينَيها. فقال عندئِذٍ الرَّجُل لِعادل:

''أنا جاهز لكي أضعَ بعضَ الكريمات على وَجهِكَ'' فقامَ عادل وجاءَ إليه، وقامت هي من مكانِها وجلسَت على كرسِيٍّ آخر، وجلسَ عادل مكانَها. وجاءَت الموظّفة إلى نَرمين وسألتها:

''ماذا تحبِّينَ أن نقومَ به اليَوم يا أجمل نونو؟''، فأجابتها:

''تزبيطات فقط''.

وعندما انتهى عادل من تجميلاتِه دَفعَ التَّسعيرة للرَّجُل ٥٠٠٠٠ ل.ل. وكانَ الرَّجُل يريد أن يرفضَ المال احتراماً لنَرمين ولم يقبَلْ عادل بهذا، فقالت نرمين:

''بليييز كرمالي'' فقال عادل:

''أوكي.. كرمالك بَسّ.. ولكن في المرَّةِ الآتية لن أقبَل بهذا أبداً''. وابتسَمَت نَرمين. وعندما اقتربَ عادل من نَرمين قال لها:

"سوفَ أحتفظُ برقم هاتفِك"، فقالت:

"أكيد.. وأنا سوفَ آخذُ رقمَك أيضاً".

وهكذا تبادَلا أرقامَ الموبايلات. ثمَّ خرجَ عادل وانتظرَ حوالي ثلاث ساعات، ولم تتَّصلْ نَرمين به، ولم يستطعِ الانتظارَ أكثر. فبادرَ هو واتَّصلَ بها، وعندما فتَحَتِ الخَطّ قالَ لها:

"هل انتهَيتِ من الصَّالون؟"، فصارَت تضحَكُ ملءَ فمِها، وقالت:

"لقد انتهَيتُ منذ ساعتين ونصف"، قال:

"جيِّد". وهنا توقَّفَ عن الكلام لأكثر من دقيقة على الهاتف، ثمَّ قطعَتْ هيَ حَبْلَ الصَّمت وقالت له:

"لقد علِمتُ لماذا قمْتَ باتِّصالك بي"، قال لها:

"عفواً"، فقالت:

"ماذا تقصُد؟ لقد عرَفتُ منذُ اللَّحظةِ الأولى أنّكَ مُعجَبٌ بي"، وأضافت:

"لماذا أنتَ صامت.. ألا تقولُ شيئاً؟". وفعلاً كانَ عادل عاجزاً عن القيام بأيِّ خطوةٍ إلى الأمام. فقالت هي:

"لا تخف.. لقد أثرْتَ أنتَ اهتمامي أيضاً"، فقال عادل:

"لا أدري ماذا أقولُ لك!"، فقالت:

"لا تُحرَج.. أخبرني"، فقال وهو يمثِّلُ عليها الارتباكَ والخجَل:

"لا أعرفُ ماذا أقول.. أتُحِبّين أن نلتقيَ في مكانٍ ما ونتحدَّث؟"،

أجابت:

''ليس اليوم بالتأكيد''، فسألها:

''لماذا؟''، قالت:

''هذا ليسَ سَهلاً البَتَّة''، وضَحِكَ وهو يقول:

''أنا أحبُّ هذا الأمرَ كثيراً!''، سألت:

''أيَّ أمر؟'' فأجاب:

''هذا الغنج والدَّلال.. ولكن لا مشكلة.. كلُّ إنسانٍ يتبَعُ نداءَ قلبِه''، فصارت تضحكُ. فقال لها:

''ما رأيُكِ بكأس ويسكي مع بعض؟''، قالت:

''لم يَحِنِ الوَقتُ بَعد!''. ثمَّ تحادثا في أمورٍ شتّى لساعةٍ من الزَّمان. قال لها:

''أنا ذاهبٌ إلى برلين.. ما رأيكِ أن نسافرَ معاً؟''، قالت:

''برلين.. ألمانيا!! أكيد لأ.. لا أستطيع''، سألها:

''لماذا؟'' فأجابت:

''أنا أخاف من الطّائِرَة كثيراً.. ماذا تريد من هذه السَّفرَة؟''

''لا شيء سوى التَّرفيه.. وتغيير الجَوّ''، فقالت عندئذٍ:

''أنا أعرفُ إلى أينَ تريدُ أن تأخذَني''، فقال لها بخُبث:

''آسف.. لا أفهَمُكِ''، فقالت:

''أنت تُريدُ أن تراني.. ولكن أنا صَعبة''، فسألها:

''هل شَربتِ شيئاً يا نَرمين؟''، فأجابت:

''لا.. هل انتَ تشرَب؟''، أجاب: ''بالتّأكيد''

''أين أنت الآن؟''، سألت فأجاب:

''أنا في البَترون''

''كنتُ أشعرُ أنّكَ هنا.. دعنا نلتقي في أنفِه''، فقالَ: ''حسناً''.

وانتظرَ أبو غبْرَه حوالي نصفِ ساعةٍ عند محلات الـ SAWARY حتى وَصلتْ وَرَكنتْ سيَّارتَها في المرآب، وصعَدَتْ في سيَّارَتِه الـ X5. وسألته:

''حسناً أين تريدُ الذَّهاب؟'' فأجاب:

''ما رأيُكِ أن نذهبَ إلى البلاج.. تحتَ السَّماءِ بقليل.. وفوقَ الأرضِ بقليل.. خلفكِ الجَبَل.. وأمامَك البَحر.. سونا جاكوزي مَسَّاج.. شو رأيك؟''، فقالت:

''دَعْها للمَرَّةِ القادِمَة''، فتَغنَّجَ عليها بخُبث:

''بليييييز!!!''، فأذعنتِ المسكينةُ له وقالت: ''أوكي''.

وانتهَتْ بهما الرِّحلةُ إلى فندق VERMER في طبَرجا، ودَخَلا الغرفة، قالت:

''أريدُ أن أستعملَ الحَمَّام خمسَ دقائِق''.

وهنا لعِبَ عادل أبو غَبْرَه لعبتَه القذِرة، وجَهَّزَ هاتِفَيه للتَّصوير كلَّ هاتِفٍ

في زاوية. وخَرجَت نَرمين منَ الحمَّام ومارسَ الجنس مَعَها طويلاً. وكانت ليلةً منَ العُمر! لقد كانت فنَّانة في أيِّ حرَكةٍ كانت تؤدِّيها معهُ في الفِراش. وكانت خبيرةً. ولكلِّ فيلمٍ نهاية. وفي النِّهايةِ قال لها:

"إبتسمي وقولي للكاميرا هناك.. باي"،

فصَارتِ المِسكينةُ تبكي وترتجف. وقالت له:

"ماذا فعلتُ لكَ.. حرام عليك؟"، فقالَ لها:

"أريدُ مالاً فقط.. أو الفَضِيحَة أمامَ جميع النّاس في منطقةِ البَترون والشِّمال". وهذه الجُملة الأخيرَة قالها باللّبنانيَّة القحّ. فقالت له:

"يا أخو الهيك وهيك.. أنت تُجيدُ الكلام باللبناني!!" فضَحِكَ وقال:

"وهل تريدينَ أن أتحدَّثَ بالسترليني معَ عاهرةٍ لبنانيَّة؟!".

وبَدأتْ عَمليَّةُ التفاوضِ والحوار والنِّقاش والتَّشاور.. وتوصَّلَ أن يأخذَ منَ المسكينةِ نرمين عشرَةَ آلاف دولارٍ أميريكيٍّ.

سَبعَة

دَخلَ عادل مِلحِم كلاّوي ذاتَ مساءٍ إلى أحدِ مطاعمِ مدينةِ جُبيل الفخمة Babel sur mer ، والمُشرفِ على الشَّاطئ الأثريّ السَّاحر وكانَ جائعاً يُريدُ أن يُسكِتَ عِواءَ بطنِهِ بسرعة! وجلسَ إلى طاولةٍ قربَ الواجهةِ الزُّجاجيَّة، لكي يَقدرَ أنْ يُشاهدَ رَقصاتِ الأمواج في ذلكَ اليَومِ الخَريفيّ الماطر، وأمسكَ بقائِمَةِ الطَّعامِ أمامَه، وراحَت عيناه تجولانِ فيها. ثمَّ انتبَهَ بعدَ دقيقَة للنَّادِل واقفاً بجَانبِهِ.. فطرَحَ القائِمَة من يدِه.. وَطلبَ صَحناً من المَشَاوي المُتنوّعَة والبيرَة والبُزورات، بَعدَ هذا الجَوَلانِ المُضني الذي جالَهُ في فضَاءِ لائِحَةِ الطّعام. ثمَّ راحَ يتناولُ عشاءَه بهُدوء. وبعدَ رُبعِ ساعَةٍ رأى عادِل أبو غبْرَه رَجُلاً وسيِّدَةً وقفا ومَشَيا لجِهَتِهِ وخرَجا من المَدخلِ القريبِ منه عن يمينِه. وهنا كانتِ المُفاجأةُ الكبرى.. إنَّهُ السيِّد حَسيب خلَف أحَدِ أثرياءِ منطقةِ جُبيل! وهذا الرَّجُل حَسيب منَ المُثرينَ الجُدُد، وهو طريدَةُ أبو غبْرَه منذ ثمانيَةِ أشهُر ينتظرُ فرصةً سانِحَة للهُجومِ عليه، وها هو الآنَ تُلقِي بِهِ طيورُ القدَر على مَرمى قوسِهِ ونُشَّابتِه. ولدَى عادِل أبو غَبْرَة تساؤُل فلسفيٌّ إقتصاديٌّ مفادُهُ، أنَّ الثريَّ إذا لم يكن وزيراً أو دبلوماسيّاً أو صِناعيّاً أو تاجراً كبيراً.. فمِن أيِّ جُحْرٍ تخرُجُ ثعابينُ الثَّروَةِ هذه؟! حتماً ليسَ بالحَلال! وبالتّالي بحسَبِ مقاييسِ أبو غَبْرَه، فحَلالٌ أيضاً افتِراسُ هذه الثروَة المُزَوَّرَة. خصوصاً إذا لم يكنِ الضَحيَّةُ قادِراً على الاحتفاظِ بما يَملكُ.

خرَجَ السيّد حسيب خلَف من هنا، وراحَ دِماغُ عادِل من هنا يَمورُ كما يَمورُ الحاسوبُ أثناءَ عمليَّةٍ من عمليَّاتِه المُعقَّدَة. وعندما جاءَ النّادلُ إلى أبو غبْرَه ليَرفعَ صَحناً صغيراً ويَضعَ غيرَه، سألهُ من فورِه:

''هل يأتي السيِّد حَسيب خلَف إلى هنا دائِماً؟''، فأجابَ النّادل بعفويَّة:

''أجل..''، وسألَ أبو غبرُه ثانيةً:

''وهذه السيِّدَة التي معه.. حتماً صديقة!''

''أجل إنَّها صَديقتُه.. فالسيِّد حَسيب ليسَ مُتزوِّجاً''.

ثمَّ دَسَّ أبو غَبْرَه يدَه في يَدِ النَّادل، وناوله خمسينَ دولاراً وهو يسألُ سؤالَه الثالث:

''هل يأتي إلى هنا بشَكل دَوريّ؟''

''مرّةً أو مرّتَين في الشَّهر.. ودائِماً معهُ صديقة'' قالها النّادلُ وهو يبتسِم. وسألَه أبو غَبْرَه سؤالاً آخر:

''هل يأتي في نِصفِ الأسبوع أو في عُطلةِ نِهايةِ الأسبوع؟''، فأجابَ النّادل:

''لا يأتي إلاّ في مَسَاءِ يَومِ الجُمُعَة''.

ثمَّ أكملَ عادِل عشاءَه، ودفعَ الفاتورة وَخرَج.

واتَّصَلَ في اليَومِ التَّالي بفتاةٍ صديقةٍ له منذ شُهورٍ قليلة، ليَستعينَ بها للانقِضاضِ على ثروَةِ حَسيب خلَف، هذا الثَريّ الحديث، وبغير وَجهِ حَقٍّ بالنِّسبةِ لقانونِ أحكامِ عادِل ''العادلة''. فلقَّنَ أبو غَبْرَه صديقتَهُ دَرْسَ اللَّعِبِ جيِّداً. ولم تُفاجَأْ هيَ بما يطلبُهُ منها من مَكرٍ ونِفاق، فالذي يُماشي أبو غَبْرَه لا بُدَّ أن يكونَ ذا مزاجٍ مشابهٍ لمزاجِهِ بنسبة ٤٠ ٪ على الأقلّ. فهمَتِ الصَّديقةُ دَورَها جيِّداً وأدَّتهُ باحتراف. وبعدَ مُراقبَةٍ لشَهرَين منَ الزّمانِ لحِراكاتِ السيِّد حَسيب خلَف في مدينةِ جُبيل وتَنقُّلِهِ في

مطاعمِها الفخمَة، وجدَ أبو غَبْرَه طريدتَه تعشَقُ المأكولاتِ المكسيكيَّة في مطعم La Palma الرُّومنسيّ اللّطيف، ويأتِي إلى هذا المَطعَم سَبتَين في الشَّهر. فشرَعَ في عَمليَّةِ التَّمهيد من خلال ''تكنولوجيَّةِ الثِّقَة'' كخُطوةٍ أولى قبلَ التَّنفيذ.

وجاءَ هو وصَديقتُه في مسَاءِ السَّبت إلى مطعمِ La Palma. دخلَتْ صديقتُه أوَّلاً وجلسَتْ إلى طاولةٍ في زاويةٍ وطلبَتْ طعاماً لها. وبَعدَ رُبع ساعةٍ جاءَ هو وطلبَ طعاماً لنفسِهِ وجلسَ يأكلُ على طاولةٍ أخرى بعيداً عنها، كأنَّهما شخصان غريبَان لا يعرفُ واحدُهما الآخرَ بحسَبِ الخُطَّةِ المرسومة بيْنَهما. وكانَ السيِّد حَسيب خلَف جالساً مع حسناءَ شَقراءَ إلى إحدَى الطّاولاتِ في انسِجامٍ تامّ. وكانَ قد درَسَ عادِل جيّداً ذوقَ السيِّد حَسيب وشَغفَهُ بسيَّاراتِ المرسيدِس والجيبّات الحَديثة، وهو في كلِّ مَوسِمٍ يُغيّرُ سيَّارَة، فخطَّطَ منذُ شُهور أن يَضعَ سيَّارةً رائِعَةً طعماً للايقاعِ به، ولم تنجَحِ الـمُحاولة. فكانَ موضوعُ السيّاراتِ هنا هو الكلام الذي حَضَّرَهُ الشَّيطان أبو غبْرَه في عقلِهِ ليَخترِقَ بهِ هذه القلعَة الحَصينَة أمامَه. فقامَ بشجاعةٍ وقِحَة، وكما دائِماً، واقتربَ من طاولةِ السيِّد حسيب وقالَ:

''سيِّد حَسيب.. عفواً للمُقاطَعَة.. أنا أعرفُ أنَّ لديكَ ذائِقَة شفّافة في سيَّاراتِ المرسيدس.. ولن آخذَ من وقتِكَ الرُّومنسِيّ الرّائِع هذا أكثرَ من خمسِ دقائِق''، فنظرَ السيّد حسيب إلى عَينَي مُحدِّثِهِ بدَهشَةٍ أثارَتْ فضولَه، وقالَ غيرَ مُمانِع:

''لا بأس.. تفضَّل''، فسألَ أبو غَبرُه:

''هل أستطيعُ أن أجلسَ؟''، فنظرَ كلٌّ من السيِّد حَسيب وجليستِهِ الحسناء الشَّقراء في الآخر، يَقرَآنِ الدَّهشَة في وَجهَيْهما. وأجابَ السيّد حَسيب:

"تفضَّل.. إجلس".

فانضمَّ أبو غَبرُه إليهما، وجلسَ كأنَّه مَلِكٌ يجلسُ على عرشِه! لقدِ ارتاحَت أحشاؤُه بعدَ أن سمحَ لهُ السيّد حَسيب بالجُلوس، وتحفَّزَت مواهبُهُ لكي تُعبّرَ عن نفسِها ببلاغةِ مُنافقٍ مُحنَّك.

ثمَّ شرَعَ يتحدَّثُ في السَيَّارات، وكأنَّه مُهندِسُ مَصانِعِ المرسيدِس بنز في ألمانيا، ولعَشر دقائِق بحسَب الخُطَّة. وصديقةُ عادِل على طاولتِها تُراقِبُ ما يفعلُه وتنتظِرُ إشارَةَ الانطلاق بالمَهمَّة. وكانَ قد أعطاها مبلغَ ألفَي دولارٍ وثلاثِ مئةِ ألفٍ بالعملةِ اللُّبنانيَّة لتضعَها في محفظتِها. ثمَّ أعطاها أبو غَبْرَه الإشارَة بيدِه وهو يُلقي مُحاضرَتَه عنِ المرسيدِس. فقامَتْ من مكانِها ودَخلتْ إلى دَورَةِ المياه. ثمَّ بعدَ دقائِق قليلة، استأذنَ أبو غَبْرَه السيِّدَ حَسيب بدبلوماسيَّة وقامَ ودخلَ أيضاً إلى دَورةِ المياه. وهناك، وبحسَبِ الاتّفاق، أخذَ منها مِحفظَتَها وعادَتْ إلى مكانِها بهُدوء، ثمَّ خرجَ وراءَها أبو غَبْرَه ليعودَ إلى موضوعِهِ مع السيّد حَسيب، الذي لم يَشعرِ البتّة بانزعاجٍ من مُحدِّثِه طالما المزاجُ واحِدٌ والذَّوقُ هو نفسُه. قالَ أبو غَبْرَه للسيّد حَسيب:

"أنظر.. لقد سَقطتْ هذِه المِحفظَة من سيِّدَة ما. سأنادي النَّادل". وناداه.

ثمَّ حضَرَ النّادِل وصاحِبُ المَطعم الذي قالَ لِعادِل:

"الدُّنيا لا تخلو منَ الصَّالِحين.. أنتَ إنسان آدَمي، وهذا يَزيدُ من رَصيدِ سُمعَةِ المَطعم الطيِّبَة. شكراً لك يا سيِّدي الكريم".

وربَّتَ على كتِفِه، وأخذَ المِحفظة منهُ متوقِّعاً أن تأتيَ السيِّدَة صاحبتُها وتَسألَ عنها. وبهذِه الرَّميَةِ الأُولى كسَبَ عادِل أوّلاً ثِقةَ صاحِبِ المَطعم.

ثمَّ عادَ وتابعَ كلامَهُ مع السيِّد حَسيب. وبعدَ عشر دقائِق تأتي صديقةُ أبو غَبْرَه تسألُ النّادلَ عنِ المِحفظَة وتطلبُ رؤيةَ صاحِبِ المَطعم. فدَخلتْ إليه وسألَها وهو يبتسِمُ:

''ما اسمُكِ سيِّدَتي؟''، فقالتْ له اسمَها، وسألَها ثانيةً:

''ماذا يوجد في مِحفظَتِكِ؟''، فأخبرَتْهُ عنِ الأوراق والألفي دولار والنُّقود بالعَملةِ اللُّبنانيَّةِ. فقالَ لها صاحِبُ المَطعم:

''تفضَّلي سيِّدَتي هذه هي مِحفظَتُكِ، واشكري أيضاً الرَّجُلَ الذي وجَدَها في دَورةِ المِياه''. وقادَها إلى عادِل الذي كانَ يُبدِعُ في بلاغةٍ مُدهشةٍ عن تصنيعاتِ المرسيدس الحَديثة. فشَكرتْ عادِل بحَرارة وأمسَكتْ من مِحفظَتِها ٣٠٠ دولار وقدَّمَتها لهُ كشُكر لحُسْنِ تَصرُّفِهِ وأخلاقِهِ، وهذا بحسَبِ الخُطَّة، فرفضَ أبو غَبْرَه أن يأخذَ المال. فقالَ لها صاحبُ المَطعم:

''سيِّدتي.. لو كانَ هذا الإنسانُ يريدُ مالاً.. لفعلَ كما يفعلُ اللُّبنانيُّون فأخذَ المالَ وألقى بالمِحفظَةِ في سلَّةِ المُهملات''.

وبهذِه الرَّميَةِ الثانية ربِحَ أيضاً أبو غَبْرَه ثِقَةَ مُحدِّثِهِ السيِّد حَسيب خلَف الثَريّ الجديد.

وهاتان الرّميتان إن هما إلاَّ تحضيرٌ ماكر لمشروعِ غزوَةٍ عالية المُستوى، ستكونُ سهلةً جدّاً.. لو نَجَحَتْ ربَّما.. بعدَ أن مهَّدَتْ لها ''تِقنيَّةُ الثِّقة'' بفنٍّ وإبداع. والأسابيعُ التّاليَة ستكونُ حافلةً بالمُراقبَةِ والدَّرسِ والتَّخطيط وصولاً لتحديدِ ساعةِ التَّنفيذ. وجعلَ عادِل هدفَه ضَرْبَ العُصفورَين بحَجَرٍ واحِدٍ وفي ساعَةٍ واحِدَة، ثمَّ الاختِفاء عن وَجهِ الأرض لفُسحَةٍ منَ الزَّمَن.. ريثما يَخيِّطُ العباءَة الجَديدَة التي سيَنبَعِثُ منَ العَدَم للظُّهورِ بها ثانيةً.

ومَرَّتِ الأيّامُ سُراعاً.. ونضَجَتِ الطَّبختانِ في جُمجُمَةِ عادِل أبو غَبْرَه، فقصدَ ذاتَ مساءٍ إلى منزِلِ صاحِبِ مطعم La Palma بيار الخوري في حارَةِ صَخر. ورَحَّبَ بهِ بيار في بيتِهِ.. وهوَ يظنُّ أنَّه يستقبِلُ رجُلاً خيِّراً مُسالِماً، والفضلُ يعودُ لتِقنيَّةِ كسبِ الثِّقَة. ودخلا إلى الصّالون وجلسا يتحادثانِ في العموميَّات، وجاءَت زَوجةُ بيار وهي امرأةٌ أربَعينيَّة جذّابَة وجلسَت معهما. وكانَ سيناريو أبو غَبرَة في هذه الزّيارَة الهُجوميَّة أنَّه يُريدُ أن يَحجُزَ المَطعمَ لليلةٍ لإقامةِ احتفالٍ بعيدِ ميلادِ صديقةٍ عزيزة، وهناكَ جُمهورٌ منَ المدعوّين وفرقة موسيقيَّة وفنّانٌ شابٌّ سيُحيي المُناسَبَة. وشرَعَ يدرُسُ معَ صاحِبِ المَطعَم تفاصيلَ هذِه الحفلةِ المَزعومَة. وكانَ بيار الخوري مسروراً جدّاً بأبو غبْرَه، خصوصاً أنَّ هذا الأخير أوحَى لبيار في كلِّ شَيءٍ أنَّ المالَ ليسَ عائِقاً البتّة. وكانَ أبو غَبْرَه يرسلُ من وقتٍ لآخَر رسالةً من عَينَيهِ النّاريتَّين إلى السيِّدَةِ الجذّابَة زَوجة بيار، وهو شَيخٌ خبيرٌ في بلاغةِ الخِطابِ بالنَّظرات، وقرَأَ هو في عينَيها جيِّداً ما أرادَتْ هي أنْ تقولَهُ له. ثمَّ انتهى اللّقاء، وأخذَ عادِل رقمَ الهاتفِ الثّابت من مُضيِّفِهِ وخرَج. وبعدَ يومَين يتَّصِلُ على هذا الرَّقمِ الثّابت لِتَرُدَّ عليه زَوجة بيار، وهذا ما أرادَه. وراحَ بمَعسولِ الكلامِ الرُّومنسيِّ يوقِعُ بهذِه المرأةِ الأربَعينيَّة الجذّابَة. ومعَ كونِهِ ليسَ جَميلاً من حيثُ المَلامِح، إلاَّ أنَّ عادِل أبو غَبْرَه جذّابٌ ومُقنِعٌ جدّاً في مُفرداتِهِ الخَلاَّقة وبلاغتِهِ الطَّريفةِ معَ المرأة، وتلكَ الثِّقَة المَرضيَّة بالنَّفس لدرَجَةِ التَّدمير الذّاتِيّ والغَيْريّ على حَدٍّ سواء. لم تمضِ الأيّامُ العشَرَة حتّى كانَ قد ضاجَعَها مَرَّتين وفي بَيتِها بغيابِ زَوجِها بيار، وَوثَّقَ مأثرَتَيْهِ هاتَين في موبايلِهِ الذَّكيِّ الذي برمَجَه لكَي ينسُخَ الفيلمَ مباشَرةً على بَريدِهِ الإلكترونيّ.. فيبقى هناكَ بأمانٍ في الخزنةِ السِّرِيَّة. ولكنَّه لم يَقلْ لها هذِه المرَّة ماذا فعَل، وخبَّأَ الفيلمَ الأسوَد لليَومِ الأبيَض!

وخِلالَ أسبوعَيْن كانَ عادِل قد قامَ بغزوَةٍ أخرى شبهِ موفّقَة في ساحةِ السيِّد حَسيب خلَف. فكانَ هناكَ لقاءٌ ثانٍ بَين الرَّجُلين في أحَدِ مقاهي

جُبيل، وكانتِ الحَسناءُ الشّقراء حاضرةً معَ السيّد حسيب، وأرسَلتْ بلَحْظِها "رسَائِلَ ملغومَةً" إلى أبو غبْرَه. وأبو غَبْرَه لا يتحدَّثُ عن نفسِهِ إلاَّ كمليونير ومالِكِ عقاراتٍ وأبنيَة، وهذه نقطةُ ضعفِ موديل أنوثةِ زمَنِ الحَدَاثةِ والحداثَةِ الفائِقة، حيثُ خرَجَتِ القيَمُ مِنَ القلبِ إلى القالب. وتتصِّلُ هذِه الفاتِنَةُ الشّقراء بأبو غبْرَه ويمتدُّ الحديثُ الرُّومنسيُّ لساعتين على الموبايل. ثمّ تلا هذا الاتّصالَ اتِّصالٌ ثانٍ ثمّ كانَ اللّقاءُ الثالثُ فوقَ فِراشٍ وَثيرٍ في شقَّةِ صَدِيقٍ لعادِل في البَترون. وكانت ليلةً سندِباديَّة! وهذِه أيضاً وَثَّقها في أجهزَةِ الحَداثةِ الرَّقميَّةِ الفائِقة، وضَمَّها إلى مَجموعتِهِ لوقتِ الحاجَة. ولكنَّه لم يَكتفِ بهذِه المازَة لطبخَتِهِ الدَّسِمَة، فالخُطَّة لم تبدأ، ولا زالَ بَعدُ في تمهيداتِهِ.

ثمَّ توطَّدَتِ العلاقة بينَه وبَينَ السيّد حَسيب، والشّقراءُ الحَسناء واقعَة بين نارين: حَسيب وأبو غبْرَه، وهي جاهلة تماماً ما يُدبِّرُ لها الدَّاهيَة من وَيلات. لقد استطاعَ أبو غبْرَه، و"بمُسَاعدَةِ" النّاطور والحَدائِقيّ في منزل حَسيب خلَف أن يصوِّرَ حَسيب معَ الشّقراءِ الفاتنَة في لقاءٍ ناريٍّ حَميم بعدَسةٍ رقميَّةٍ متطوِّرَة جدّاً، ليَضربَ ضَربتَهُ الأخيرَة فيتَّصِل بهِ في اليَومِ التّالي ويزفَّ لهُ النَّبأَ السَّعيد:

"سيّد حَسيب.. صباح الخير.. ليلتُكَ الرّائِعَة مع الفاتِنَة الشّقراء البارحَة أصبحَتْ فيلماً مُمتعاً جدّاً بفَضلِ عدَستي الرَّقميَّةِ الحَديثة. وعندي أكثر من نُسخَة. وأنا أريدُ فقط نصفَ مليونٍ منَ الدّولارات لكي أحميَكَ منَ فضيحَةٍ مُحتمَلَة، وقد تكونُ مُدمِّرَة. خصوصاً أنَّهُ لدَيَّ فيلمٌ أيضاً لصَديقتِكَ الحَسناء مَعَ عَشيقٍ آخرَ سِواك! وإذا لم تصدِّقْني أُرسِلْهُ إلى بَريدِكَ الإلكترونيّ".

وكانت مُصيبةً بالنّسبَةِ لحَسيب خلَف! ولكنَّه "ليسَ غريباً عن أورشليم". فأخبرَ حَسناءَهُ بالقضيَّة ولم يتخلَّ عنها، فقالَ لها:

''نحنُ في خندَقٍ واحِد في وَجْهِ عدوٍّ واحِد. ويَجبُ أن نتعاوَن''.

وَتريَّثَ.. ومَرَّتْ أيّام.. وكانَ يُفكِّرُ بهُدوءٍ عن خِدعةٍ يواجهُ بها هذا الجِنَّ الذي يُدعى أبو غَبْرَه. ثمَّ طلبَ من صَديقتِهِ الشَّقراء أنْ تُبرِمَ تسويةً معهُ ومِن مالِه هو. فقالت لعادِل عندَما اتَّصَلَ بها: ''أعطيكَ ما تُريدُ منَ المال وامْحُ الفيلمَ من عندِكَ''.

فمَسَحَ أبو غَبْرَه فيلمَ غرامِهِ هو مَعَها منَ الموبايل أمامَها، وأعطَتْهُ الخمسةَ آلافِ دولار من مالِ حَسيب خلَف، وظنَّتْهُ اكتفى. فسألَتْهُ:

''وأنا وحَسيب؟!''، أجابَ أبو غَبْرَه بوَقاحَة:

''الخمسَة آلاف دفعَة على الحِساب ريثما أنتهي من حِسابِ حَسيب''.

فرَفعَتْ دَعوىً قَضَائيَّة ضدَّه بأنَّه اغتَصبَها وسَرقها! وهذه تعليماتُ حَسيب خلَف، فكانتْ هذِه الرَّميَة مُحاولة ذكيَّة جرَحَتْ عبقريَّةَ عادِل أبو غَبْرَه المُكابرَة، فأوقِفَ وأدخِلَ السِّجن. وَفي السِّجنِ أبرَزَ فيلمَ غرامِهِ معَها من بَريدِهِ الألكترونيّ وأراهُ للمُحقِّقين، فوَكَّلتِ الشَّقراءُ عندئذٍ مُحامياً لها، نزولاً عندَ تعليماتِ حَسيب خلف.

وبعدَ مرور ثلاثة أسابيع على وجودِه في السِّجن، اتَّصَلَ أبو غَبْرَه من هاتف السِّجن الثابت بالسيِّد حَسيب خلَف، وقالَ له:

''لقد أدخَلَتْني الشَّقراءُ صديقتُك إلى السِّجن.. وأنا مظلوم.. وأنتَ أدرى بهذا. أخرجْني يا صديقي من السِّجنِ بكفالة ٣٠٠٠ دولار، وإلاَّ نشَرْتُكُما على مواقِع التَّواصُل الاجتِماعِيّ''.

كانَ عادِل أبو غَبْرَه يُريدُ الخُرُوجَ منَ السِّجن بأسرع وقتٍ مُمكن، حتى لا تقفِزَ دَعوىً ما ضدَّهُ من مكانٍ ما في هذا العالم، فلا يَخرُجُ عندَها من

السِّجن لمدَّةٍ طويلة. وَظنَّ حَسيب خلَف بأنَّ أبو غَبْرَه وقَعَ بيَدِ الدَّولة، والأمورُ تسيرُ لصالحِه. بَيدَ انَّ أبو غَبْرَه، وخصوصاً في مرحلةِ الابتزاز، كانَ يحتَفِظُ بمَجموعَةٍ كبيرَةٍ منَ الأفلام صوَّرَ فيها بعضاً من الرِّجالِ الـمُتنفِّذين معَ عشيقاتِهم، أو مُتنفِّذاتٍ معَ عُشّاقِهنّ، ودائِماً ما كانَ يحتاجُها كحبالِ نجاةٍ في السَّقطاتِ والـمُلِمّات. وَلم يُعلِنْ أبو غَبْرَه عن فيلم حَسيب خلَف للمُحقِّق! وفي اليَومِ عينِهِ أيضاً، اتَّصلَ منَ السِّجن بزَوجةِ بيار الخوري صاحِبِ مطعم La Palma ليقولَ لها أنَّ ليلتَها معه مُسجَّلة في فيلمٍ مُشوّقٍ على جَوّالِهِ الآي فون، وهو يَحتاجُ إلى ٣٠٠٠ دولار كفالة لخروجِهِ من السِّجن لأنَّه واقعٌ في مأزَقٍ في الوَقتِ الرَّاهِن، وإلاَّ الفَضيحَة! فذُعِرَتِ المرأةُ وانهارَتْ أعصابُها، وأخفَتِ الحقيقَة عن زوجِها. ولكنَّها اتَّصَلتْ بسِمسَارٍ قانونيٍّ في بعبدا وبَعثَتْهُ إلى السِّجنِ المركزيّ للتَّفاهُمِ معَ عادِل أبو غَبْرَه. وهكذا دَفعَتِ الكفالَةَ ٣٠٠٠ دولار وأطلقَتِ الصَّقرَ أبو غَبْرَه من قفَصِه. والمبلَغُ أحضَرَتْه على سبيلِ قرضٍ من صديقةٍ لها، لأنَّها خافتْ من زَوجِها لو علِمَ باختِفاءِ الـ ٣٠٠٠ دولار دُفعَة واحِدَة. وجُنَّ جنونُ حَسيب خلَف عندَما علِمَ بخروجِ عادِل أبو غَبْرَه منَ السِّجن. ولكنَّ هذا الخُروجَ السَّريع كانَ كميناً ذَكيّاً مُحكَماً من فرعِ المعلوماتِ للإيقاعِ بعصابةِ عادِل أبو غَبْرَه بكامِلِها.

وهكذا خرَجَ الشّيطانُ من السِّجن، ونسِيَ الفاتِنَةَ الشَّقراءَ صديقةَ حَسيب خلَف بالكامِل، معَ كونِها بقيَتْ تُلاحقُهُ وتتَّصِلُ بِهِ وهو يؤكِّدُ لها بأنَّه لن يتعرَّضَ لها بأذىً، وأنَّه قدْ مَسَحَ كلَّ ما قد صوَّرَهُ عن أجهزَتِهِ. فتُركَتِ السَّاحةُ عندئذٍ للنَّمِرَين حَسيب خلَف وعادِل أبو غَبْرَه وَحدَهما.. أبو غَبْرَه يُريدُ النِّصفَ مليون دولار، وحَسيب خلَف يُريدُ رأسَ أبو غَبْرَه. ورَجُلٌ غير حَسيب خلَف، لم يكترِثْ ربَّما لتهديداتِ أبو غَبْرَه، وتابعَ حياتَه كأنَّ شيئاً لم يكن، فالنّاس لزَحمَةِ الـمُستجدّاتِ وكثافتِها، سُرعانَ ما يَنسونَ أحداثَ وأخبارَ يومِ البارحَة! ولكنَّ السيِّد حَسيب الثَّريَّ الجَديد يولي مَوضُوعَ

السُّمعَةِ الطيِّبةِ اهتماماً خاصّاً، ويريدُ أن يبقى نظيفاً أمامَ الرّأي العامّ، ويفكِّرُ ربَّما أن يتعاطى السّياسَة في المُستقبَل. فالسِّيَاسَةُ ''عَمَلٌ شَريف'' وتحتاجُ حتماً ''لأكُفٍّ نظيفة''! وبعدَ خُروجِه منَ السِّجن توارَى عادِل عنِ الأنظار، ثمَّ عادَ واتَّصَلَ بحَسيب طالباً نصفَ المليون مقابلَ الفَضيحَة. وسألَهُ حَسيب خلَف:

''ولكن كيفَ أتثبَّتُ من أنّكَ مَسَحْتَ الفيلمَ من جِهازِكَ؟''، فأجابَ أبو غَبْرَه:

''إذاً نلتقي في اللَّقلوق.. وفي يَمينِكَ حَقيبَةٌ جلديَّة صغيرَة تحوي المبلغَ كلَّه كاش.. وإيّاكَ والتَّذاكِي عليَّ! فقنَّاصَتي الصُّقورُ يُحاصِرُونَ المكان''. وحدَّدَ له المكانَ في جُرودِ اللَّقلوق. فخرَجَ السيِّد حَسيب خلَف إلى المكانِ المُعيَّن وفي الزَّمَنِ المُعيَّن.. وَحيداً.. في سيَّارتِهِ الجيب المرسيدِس، وبجانبِهِ الحَقيبة وفيها نصف مليون دولار أميركِيّ. وعندَما أخبَرَ القنَّاصَان أبو غَبْرَه على الجِهاز اللاّسِلكِيّ، أنَّ المرسيدِس الجيب قادِمَة لوَحدِها من بَعيدٍ وفيها سائِقُها فقط، اطمأنَّ وقالَ لهما:

''لا داعي للقلَق.. ابقَيا قريبَين من هنا فقط''.

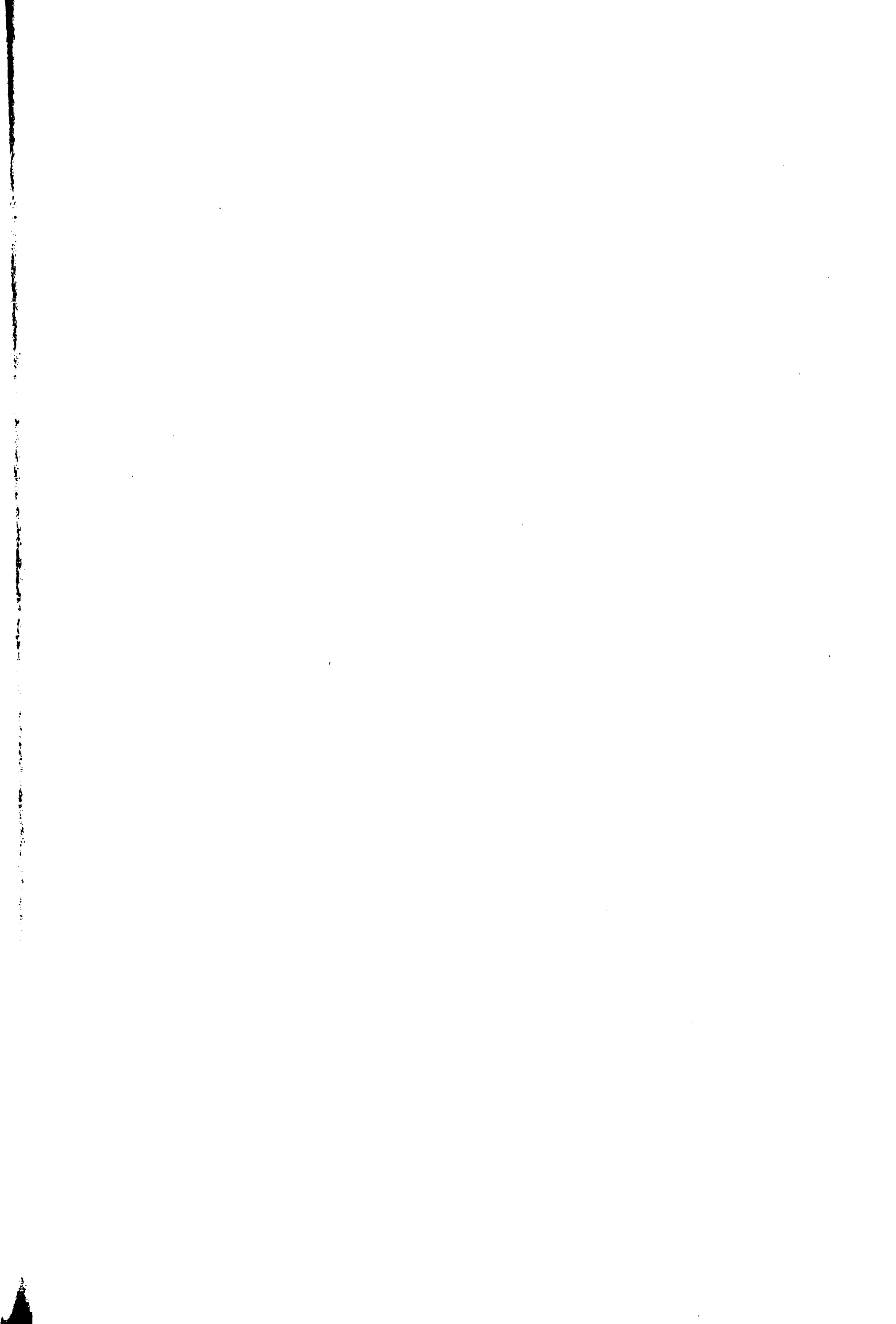
ثمَّ وقفَ أخيراً حَسيب خلَف أمامَ عادِل أبو غَبْرَه على بُعدِ أمتارٍ قليلة داخِلَ كوخٍ خشَبِيّ فسيح لأحَدِ رُعاةِ الماعِز في اللَّقلوق، وكانَ عادِل يحمِلُ سلاحاً بيدِهِ ولمْ يُشهِرْهُ في وَجهِ حَسيب. تمتمَ حَسيب بنبرَةٍ تشوبُها الخَيبَة:

''هذا هو المال كلُّه''، فقالَ أبو غَبْرَه:

''سأعُدُّه''. وأخذَ الحقيبَة من يدِه بهدوء، ونادى لمساعِدٍ مُسلَّح كانَ واقفاً خارجَ الكوخ أن يَدخلَ ويَعُدَّ المال. وبعدَ العَدِّ قال أبو غَبْرَه:

"المبلغ كامل.. حسناً.. سأمسَحُ الفيلمَ أمامَكَ" واقترَبَ عادِل من حَسيب.

وهكذا نجَحَ الكمينُ الذي خطَّطَتْ لهُ المُخابراتُ وَفَرعُ المعلومات، فألقيَ القبضُ على عادِل أبو غَبْرَه ورجالِهِ القنّاصَة وعِصابتِهِ وأجهزَتِهِم وأوكارِهِم. والكمينُ كانَ مُداهمةً من نوع الكومندوس العالي الدِّقَّة، وباستِخدامِ أسلِحَةٍ كاتمَةٍ للصَّوت. فاستسلمَ أبو غَبْرَه ورجالُه بسُهولةٍ بعدَما أصيبَ واحِدُهم إصابةً خطيرَة، وأُنقِذَ السيِّد حَسيب خلَف سالِماً. ووُجِدَ في جَوَّالِ أبو غَبْرَه وأجهِزَتِهِ وبَريدِه الإلكترونيّ ما أرعَبَ المُحقِّقين! ودَخَلَ من جَديد إلى السِّجنِ حيث أمضى هناكَ مُدَّةً طويلةً منَ النَّقاهَة.



إسقاط سادس

كلُّ الذين أحكموا إغلاقَ أبوابِ بيوتِهم،

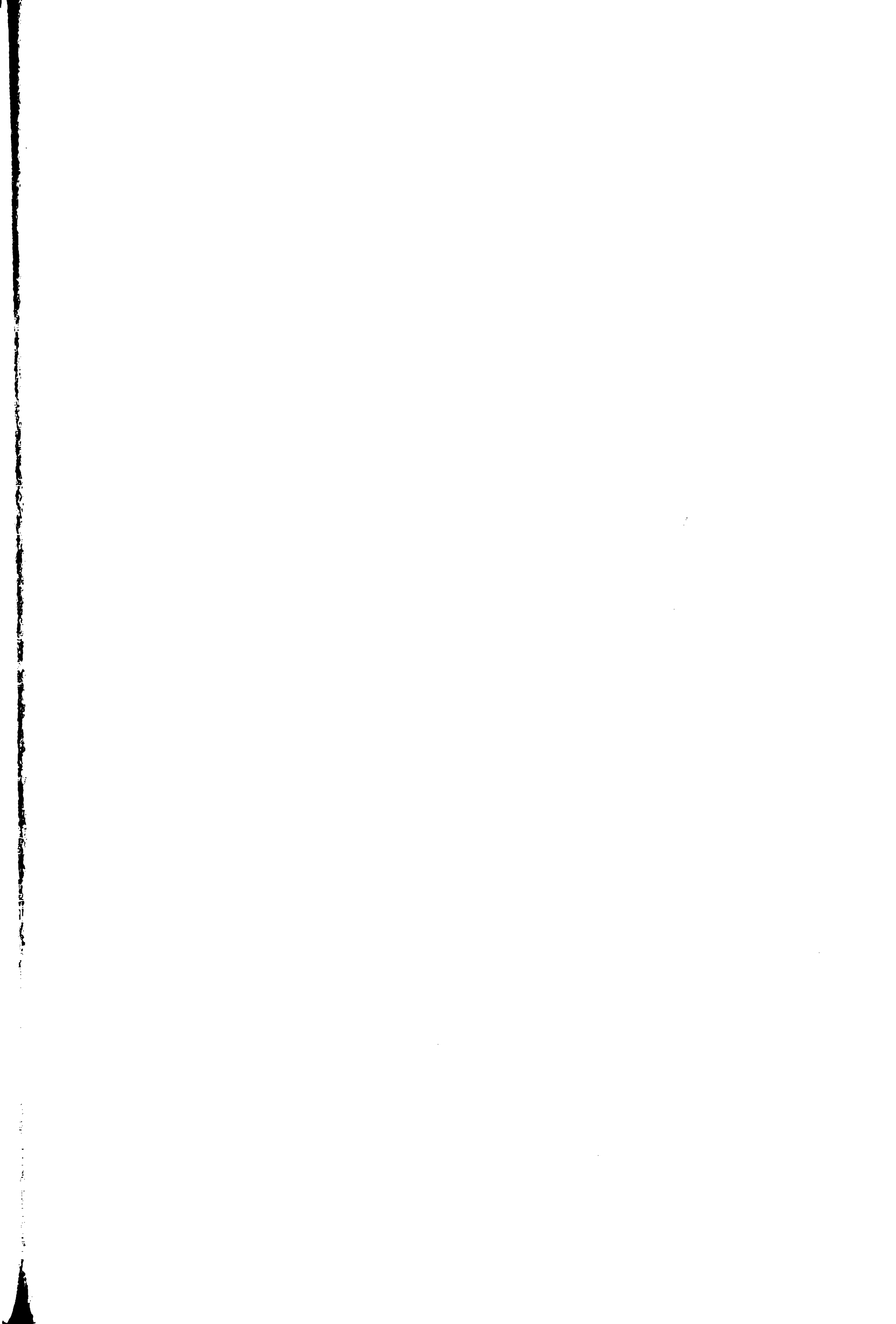
لا يدركون أنَّ السَّارقين الحَقيقيِّين لا يدخلون عبرَ الأبواب.

رونا ين

إسقاط سابع

أعمالٌ وإنجازاتٌ أخَر كثيرةٌ وعَجيبْة عمِلَها السِّندِبادِيُّ الخَطير مالئُ الدُّنيا وشاغلُ النّاس، حارث مِلحِم النَجّار حاملُ اللَّقب الشَّهير (أبو غَبرُه)، ولو كُتِبَتْ واحدَةً واحِدَة.. فرُبَّما احتَجنا إلى مُجلَّدات. والأحداثُ المُدوَّنة في كرَّاسَةِ الجابري إن هي إلاَّ عيِّنَةٌ واحِدَة من صنفٍ واحدٍ منَ المآثر. هذا فضلاً عنِ القسمِ الكبير الذي أتلفَهُ حريقُ الانتفاضةِ الثّانيَة، والذي ينتهي بعبارَةٍ غامضَة جرَحَتْ ذكاءَ الميتر عصفور الشِّيباني المضطرب.. (مذَكَّراتي كما دَوَّنَها لي صَدِيقي وأخِي الإنسان حمداش الجابري). وحمداش الجابري هذا شَخصيَّةٌ مجهولة! وعندَما سألَ المُحامي أبو غَبرُه في سِجنِهِ عن هويَّةِ هذا الكاتب الغامضة، أجابَ حارث مِلحِم النَجّار باقتِضاب:

"لقد ذهبَ حمداش الجابري إلى القتالِ في سوريا، ومن يومِها لا أحدَ يَعرفُ عنه شَيئاً".



خلاصات

عندما تكونُ في روما.. تصرَّفْ كمَا يَتصرَّفُ أهلُها الرُّوْمان.

القدّيس أوغسطينوس

وكان من بين الأوراقِ الكثيرةِ التي يحويها مِلفُّ حارث مِلحِم النجّار أبو غَبْرَه، إلى جانبِ كتاباتِ حمداش الجابري والوثائِق القانونيَّةِ الأخرى.. مُدَوَّنةٌ صَغيرَة.. على قدِّ مقالٍ صِحافيٍّ مُطوَّل، أو كأنَّها رسالةٌ دِفاعيَّة، أو هي بالحَريّ طلبُ إدغامٍ دفاعيٍّ لملفّاتٍ وَدَعاوٍ كثيرة إذا جازَ التَّعبير، مَصوغٌ في قالبٍ أدَبيٍّ مُقنِع. ويبدو من شَكلِ الكتابةِ أنّه ليسَ ثَمَرَة قلمِ المزعوم حمداش الجابري العَفويّ البسيط، وحتماً.. هناكَ عقلٌ مثقَّفٌ أملى عليه أبو غَبْرَه مضمونَ دفاعِهِ هذا.. فهذَّبَهُ له ونقَّحَهُ ليكونَ رسالةً مُوجَّهَةً إلى القاضِي سليم الزّير بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٧. والميتر عصفور الشّيباني عاشقٌ لِلملفّاتِ السَّوداءِ الصَّاخِبَة بامتِيَاز، وهو الـمُوَكَّل بدراسَةِ هذه الدَّعَاوي والقضايا الـمُتشابكة. فأكبَّ في ليلةٍ من ليالي حُزيران الرَّائقة، على هذِه الرِّسالة يوضِّبُ منها زوَّادةً، ويَستلهِمُ أفكاراً ونِقاطاً، ليُهيِّئَ هو الآخرُ خِطابَه.. ودفاعَه الذي سيُلقيهِ في اليَومِ التَّالي قبلَ الظُّهر تَحتَ قوسِ المَحكَمَة. وهنا نَصُّ هذِه الرِّسالة الغريبَة:

حَضرَة القاضي سَليم الزِّير المُحترَم،

تحيَّةً طيِّبَة وبَعد.

في سُطورٍ قليلةٍ.. وفي لمحَةٍ منَ الزَّمَن أكتب.. بل أخُضُّ زبدَةَ آثامي. وفي العِبارَةِ المُختَصرَةِ الوامِضَة أحشُرُ أمامَكَ في قمقمٍ خمسين سنةً من عربَداتِ فتىً شَقيّ، حَرَمَهُ القَدَرُ من وَثيقةِ "سِرِّ ثبُوتيَّتِهِ" التي تقدِّمُ تَعريفاً عنه، ومِن هُويَّةٍ فيها كلمَةُ السِرِّ للدُّخولِ إلى حَقِّ الحَياةِ الكريمَة، وجنسيَّةٍ تُغلِّفُ قلبَهُ بدِفْءِ الشُّعورِ بالإنتِمَاء، ومن وَلاءٍ يرسُمُ أمامَه هدفاً شَريفاً ومَعنىً ما للوجود. أنا يا سيِّدي القاضِي كائنٌ شَبَح! والأشباحُ لا تقتاتُ من غيرِ خَوفِ الآدَميِّين منها. ولأنِّي شَبَحٌ.. وَهمٌ.. كابوسٌ.. جِنٌّ ما! فأنا أعيشُ عالةً على رُعْبِ الآخرين. هويَّتي شَبَحٌ.. وهذا قضَاءٌ وقدَرٌ يا سيِّدي القاضي، وليسَ من صُنعِ يَدِي البتّة، ولا خِياراً من الخيارات. تُرى مَن هو المَسؤُولُ عن صُنعِ الأشباحِ والعفاريت.. تِلكَ الهُويَّاتِ القاتِلَة.. الهُويَّاتِ الجهَنَّميَّة؟! وهذا اعترافٌ صريحٌ منِّي إليك. أليسَ هذا خليقاً بالإدانةِ يا حَضرَةَ القاضِي، والمُحاسَبَة؟ مَن هو المُجرمُ الحَقيقيُّ.. مُستخدِمُ السِّلاحِ أم صانِعُهُ؟! من هو الإرهابيُّ الحَقيقيُّ.. صاحبُ العَقيدةِ المريضَةِ أمِ الذِي يمدُّهُ في مَرَضِهِ والسِّلاحِ في آنٍ معاً؟! منِ الذِي ينشرُ جَراثيمَ الهُويَّاتِ القاتِلة.. المُتمرِّدونَ على القانونِ أمِ الذين يُشجِّعونَ المُتمرِّدين؟! أنا يا سيِّدي القاضي شَبَحٌ، ما زالَ حتى الآن، يناضلُ في سَبيلِ الانعِتاقِ منَ الوَهمِ إلى الحَقيقَة، ومنَ العَدَمِ إلى الوجود، ومن قمَاقِمِ الجِنِّ السَّوداءِ المَنبوذَة إلى الجَسَدِ الآدمِيِّ الحَيّ. وفي قيُودِ السَّبْيِ الرَّمادِيِّ المُزمِن، والمتأرجِح بينَ الأبيَضِ والأسوَد.. بينَ السِرِّ والعَلَن.. بينَ السُّوريِّ واللُّبنانِيّ.. أترَصَّدُ ذاتي المُتناثِرَة بينَ الزَّرْعِ والبَعْل، وذاكرَتِي المُبعثرَة بينَ المَوجِ وحَصَى الشَّاطِئ، وتاريخيَ المرسومَ خُطوطاً مُبهَمَةً بينَ النَصِّ والهوامش. ماذا يمكنُ أن أكون لو لم أكن حارثَ مِلحِم النَجّار؟! لو لم

أكُنْ أبو غَبْرَه؟ أبو طوني مثلاً؟! أبو علي؟! أبو خليل؟! أبو.. أبو... إلخ. أحدِّثُ نفسي دائماً أبداً، ماذا يُمكنُ أن أقدِّمَ للحَياةِ كآدَمِيٍّ حَيٍّ عاقِلٍ مُنتمٍ كبَاقي النَّاس؟ فأنا لا أحِبُّ أصلاً أن أكونَ واقفاً في طابورِ اللاَّمُنتَمِين الذين تحدَّثَ عنهم كولن ولسون في كتابِهِ الشَّهير (اللاَّمُنتمي). ومَعرَكتِي الآنَ مُستمرَّةٌ وبضَراوَة، للخرُوجِ من سِجنِ اللاَّإنتِماءِ هذا إلى عِتقِ الإنتِماء.

ويلوحُ لي الجواب.. ربَّما.. إن هو إلاَّ وَمضَةُ ما بَينَ الحُلمِ واليَقظَة:

"كنتُ دائِماً مُفضِّلاً بناءَ الأسرَة. وكنتُ أحبُّ أن يكونَ لي زَوجةٌ شَريفة تحبُّني لشَخصي وليسَ لمالي. كنتُ أحبُّ أن أعلِّمَ أولادي فنَّ الحَيَاة، وألقِّنَهم جيِّداً أنَّ قانونَها، دائِماً أبداً، هو القوَّة! كنتُ أحِبُّ أن يتفوَّقوا في الدِّرَاسَةِ والتَّحصيل العِلميّ ليصنعوا حياةً لائِقة مُحترمَة. كنتُ أحبُّ أن أشارِكَ الآخرين أفراحَهم وأحزانَهم بلا خوفٍ من تَحَرٍّ أو مُخبرٍ أو شُرطيٍّ أو قانونيٍّ أو قريبٍ لضَحيَّةٍ من ضحاياي الكثيرة. كنتُ أحِبُّ أنْ تترُكَ خطَواتِي صَدىً طيِّباً قويّاً بعدَ مَوتي، وليسَ خبرَ سُوْء، وكنتُ.. ولا زلتُ أجاهدُ لكي يمشِيَ النَّاسُ في جِنازَتي وهم يتحَدَّثونَ عن أعمالي الجيِّدَةِ ومآثِري الصَّالِحَة". ولا يُدرِكُ قيمَةَ الحياةِ الصَّالِحَة غيرُ الإنسانِ الشِرِّير. وحياتِي الآن.. للأسَف.. ليسَت خليقةً بكلِّ هذه الأماني العِذاب.

كان لدَيَّ حلمٌ ذاتَ يوم.. وحُلمي مُحدَّد جدّاً!! كنتُ أوَدُّ أن أؤَسِّسَ مصلحةً وشرِكَة وأُدير أشغالاً وموظَّفين وعُمّالاً. والآنَ أيضاً لدَيَّ حُلمٌ جَديد.. أرغَبُ في أن أؤسِّسَ جَمعيَّةً إنسانيَّةً لمساعدةِ الأجانبِ الغُرَباء الفاقدِي الهُويَّة والجنسيَّة.. تِلكَ الكائِناتِ العاقلة الطُّفيليَّة التي تعرِّشُ على هوامشِ المَدَنيَّة، وعاجلاً أم آجلاً سوفَ تلفظُهُم المدنيَّةُ إلى "بُناها التَّحتيَّة".. لأنَّها باختصار مَدَنيَّة زائِفة!

في سَنواتي العشر الأولى أحببْتُ والدي واشتقتُ إليه كثيراً، ولكنَّه ماتَ وأنا صغير جدّاً. كان يُحبُّني.. وكنت أهابُه لأنَّه كان يضربُني بقسَاوَة، وأحببَتُه رغمَ هذه القساوَة الغريبَة! ربَّما أنبأَهُ حُدسُهُ بأنِّي سأكونُ "أبو غَبْرَه البَطلَ العتيد"، فحاولَ أن يُغيِّرَ من حَتميَّاتِ صيرورَةِ الزَّمَن.. ولقد فشِل. وفي سنواتي العشر التَّالية، وفي مهَبِّ عواصِفِ المراهقة، كنتُ في تِيْهٍ كامل! وعنوانُ هذه المرحَلة هو بوضوحٍ تامّ.. الصِّراعُ لأجلِ البَقاء. لقد أقصَتْني الدُّنيا إلى "بُناها التَّحتيَّةِ الـمُتوحِّشَة"، وهناكَ صارَعتُ كائناتٍ مَمسوخة. وإذا نشَأَ المَرْءُ بينَ القرودِ في الأدغالِ يُصبحُ طرَزاناً رَجُلاً قرداً وليسَ آدَميّاً! وشُعوري الذي رافقني كظلّي في ذلكَ الزَّمَنِ التَّائِه أنِّي نكِرَة، وحَرفٌ صامتٌ في آخرِ الكلِمَة لا محَلَّ له منَ الإعراب، دَمَّرَ في ذاتي ما بَقيَ من إنسَان: العاطفةَ والحُبَّ والضَّميرَ والوجدان والأخلاقَ والرَّحمَة، وكلَّ هذه المَقولاتِ الطيِّبَة. بكلامٍ آخر لقد تقمَّصَني وَحشٌ ضارٍ يَنتَمي إلى عالمِ "البُنى التَّحتيَّة" وشريعتِها. كنتُ قارباً صغيراً تائِهاً في قلبِ اللُّجَجِ العاتيَة، يسافرُ بي شِراعُ الخَوفِ لعنةً تُنذِرُ في كلِّ لحظةٍ بالغرَقِ إلى عُمقِ البَحر. كانَ خوفي عظيماً! كنتُ خائِفاً من ضَعفي، خائِفاً منَ المَجهول، خائِفاً من الغد، خائِفاً منَ الجُّوع ومن غَدر الآخرين الأقوياء. وأمّا دماغي فكانَ فارغاً حتى من الأحلام والطُّموحات! بلِ الخَوفُ هو حُلمُ المنامِ واليَقظةِ في آنٍ معاً. وأنفُ عقلي اكتفى بشَمِّ القريباتِ لضَرورتِها الرَّاهنَة الـمُلِحَّة، وأمّا البَعيداتُ فلا وجودَ لها. وَحدَها بطَّاريَّةُ الصِّراعِ من أجلِ البَقاء، كانت تشحَنُ جَسَدي بالطَّاقةِ الوُجوديَّةِ لكي يَبقى على قيدِ الحَياة.

وفي السَّنواتِ العَشر التَّالية، اكتملَت قوَّةُ الشَّخصيَّة، ومَعها أخواتُها وأكسسواراتُها وحُروبُها. ولكنِّي اكتشَفتُ فيها الحُبَّ أيضاً.. وعُذوبَةَ

تلكَ العاطفة! وأقولُ اكتشفتُ.. لأنَّ الحُبَّ يولدُ معَ الإنسانِ ويَنمو بالفِطرةِ، وأمّا عندي أنا.. فقد خَنقتْهُ تعنُّفاتُ شَراسَةِ طبيعَتِي منذ الطّفولة، وأبى الانحلالَ حتى عادَ وقامَ من بَينِ الأمواتِ في بَحرِ عِشرينيَّاتِي. وفي العِشرينيَّات تَعلَّمتُ أيضاً فنَّ الحَذرِ الشَّديد، وأتقنتُهُ بحَذاقة، فهوَ أسلوبُ الحَياةِ المُتشابِكَة. فمُصطلحُ الثِّقةِ غيرُ موجودٍ في شريعةِ "البُنى التَّحتيَّة"، وملاكُ المَوتِ يَثِبُ ويقفزُ معَ نسَماتِ الهواءِ مرَّاتٍ في اليَومِ الواحِد. وكانَ اللهُ آنذاك حِكايةً لم يَطرَبْ لها وَعيي ولا صَحَّتْ بها حِساباتي، فأدَّيتُ صَلاتي وقدَّمتُ قرابيني، وهكذا دائِماً، مُختصَرَةً بحَركَةِ يدي على وَجهي قبلَ تناولي الطَّعام، على أنَّها رَمزٌ إلى الصَّليب. وتعلَّمتُ كذلكَ الحفاظَ على أشيائي جيِّداً: سِلاحي، بَذَّتي العَسكريَّة، ثيابي وطعامِي.. وهذه جَوهَرُ تركيبَةِ (أبو غَبْرَه) الكيميائيَّة، إنَّها عُدَّةُ مُسافرٍ لا ثُبوتِيِّ تائهٍ غَريب. واللَّقبُ الشَّهير كذلِكَ، انبَثقَ من عَباءَةِ نظافتِي وترتيبي وأناقتِي.. وبشَهادةِ الجَميع! ثمَّ رُحتُ أكتشِفُ أمزجةَ وطبائِعَ النَّاس، أتواصلُ وأتحادثُ معهم.. فأصبحَ الكلامُ والحالة هذه تُخمَ التّواصُل معَ العالم.. وكانَ قبلذاك سِلاحي وشَتائِمي! ولازَمني، في تلكَ الأيَّام.. كابوسُ تكوينِ أسرَةٍ.. وجثَمَ على صَدري أثناءَ مَرحلةِ زواج أخي الصَّغير ميشال، وللمَرَّةِ اليَتيمَةِ أصبحَ لنا كِلينا معاً منزل! والرُّكنُ الجَميلُ الناقصُ في هذا المَنزل هو أوراقُ الثّبوتيَّة.. أوراقُ الهُويَّةِ الرَّماديَّة.. فأصبَحَ البَيتُ هو الآخرُ "لاثبُوتيّاً". وكانتِ الأسئِلةُ الوجوديَّةُ تناطِحُ رأسي آنذاك: لماذا لم يُكمِّلْها اللهُ معي؟ لماذا لا أتزوَّج؟ لماذا لا أعيشُ حياةً هانئَةً مُسالِمَة؟ لماذا هذا الضَّياع والهرُوبُ الذي لا ينتهي؟ لماذا حالةُ الطّوارئِ المُزمِنَة؟ لماذا إدمانُ الخوفِ حتى باتَ بوصلةَ سَفَري وشراعَ قاربي ولقمَةَ عيشي؟ لماذا لا يَحقُّ لي امتلاكُ العقارات ولا يحقُّ لي الاقتراع؟ ولا حَقَّ لي في ما يَحِقُّ لأيِّ مواطنٍ لبنانيّ سواي؟ الجوابُ الجارحُ الصَّريح: أنا لستُ لبنانيّاً. ولكنِّي لستُ سُوريّاً أيضاً..!! أنا الكائِنُ الشَّبَح.. ولا حَقَّ للشَّبَح في ما هو حَقٌّ للآدميِّين. كنتُ في هذه المرحلةِ

مستعدّاً لمواجَهةِ الموتِ بكلِّ بأسٍ وشَجاعة، وما عُدتُ أهابُ شيئاً.. خصوصاً بعد وفاةِ أخي الصَّغير العريس.. فغدَوتُ بوفاةِ ميشال القاتلَ والمقتولَ في آنٍ معاً! فأنا حاضراً أحاربُ من أجل البَقاء، وأنا مُستقبَلاً ضَحيَّةُ الاحتمالاتِ المُخيفةِ كلِّها. لقد أغرمتُ بُعَيدَ مقتلِ أخي بأختِ زَوجَةِ أخي ميشال، وعُرضَ عليَّ في الوَقتِ نفسِهِ أن أتزوَّجَ امرأةَ أخي المُتوفّي للسِّترَة! على شَكلِ أمرٍ وتوصيَةٍ من القيادَة. كان أخي ميشال يَتقدَّمُني بأشواطٍ في الحذاقةِ والسَّطوَةِ على الأرض. والحقيقة أنَّه طالما حاولَ ترميمَ حياتِهِ منذ الفرصَةِ الأولى، وحاولتُ أن أفعلَ مثله.. وكلانا فاشلان كبيران! ظروفُ موتِ ميشال مزَّقَتْ وجداني، وجَعلتْني أدركُ أنَّ طيورَ أحلامي كانت تقتاتُ منَ الأوهام. فنَفضْتُ من أهدابي حُلمَ تكوينِ الأسْرَةِ وانقلبتُ من جديد وَحشاً ضارياً! وحزَمتُ مَتاعي.. وهاجَرتُ نفسيّاً إلى ذكرياتِ التوحُّشِ والرُّعب.. إلى مرحلةِ الصِّراعِ الوُجوديِّ البَحت في مدينةِ طرابلس وجَحيمِها الدَّائِم.

بينَ العامِ الخامسِ والعشرين والثاني والثَّلاثين، كانت النَّقلةُ الهامَّة من العالم الصَّغير الضيِّق إلى الوطنِ الكبير الرَّحب. من مُحافظَةِ الشِّمال إلى لبنان. وبالنِّسبةِ لحارث مِلحِم النَجَّار الذي أصبَحَ سايد مَخلوف المُلقَّب بأبو غَبرَه، وسايد هذا عباءَةٌ مؤقَّتَة تسهِّلُ الأمورَ اللّوجستيَّة التي تُعوِّقُ الكائِنَ الشَّبَح، كانَ الانتقالُ السَّافِر منَ الوَهمِ المسيحِيِّ إلى اكتشافِ الكذِبِ المَسيحِيّ! أنا منَ الذينَ آمنوا بالمسيحيَّةِ اللُّبنانيَّةِ ودَورِها الرّائِد في هذا الشَّرق، وسُرعانَ ما اكتشفنا بأنَّ قادتَنا مُهرطقون دَجّالون خارجون على المسيحيَّةِ وريادَتِها المَشرقيَّة، فباعوا لبنانَ وَمَسيحَهُ بثلاثينَ منَ البازاراتِ الإسخريوطيَّة. وتعمَّقتِ القناعَةُ في ذاتي بأنّي كائنٌ هامشِيٌّ مارق! وعزَمتُ راسِخاً في قلبي أن أحاربَ الضَّعفَ والخَوفَ والتَّواضُعَ والخِذلان والتَّسامحَ والرَّحمَة.. وَبَناتِ الأخلاقِ جَميعَهُنَّ.. وبكلِّ قوَّتي. فأتقنْتُ بمَهارةٍ أساليبَ

الكذِبِ والخَديعَةِ والـمُناورَة، وفنَّ اقتناصَ الفرَص، وطرُقَ اختلاقِ المَخارجِ والحُجَج والسِّيناريوهاتِ الـمُقنِعَة. فأوهمتُ البشَرَ بأنّي سايد مخلوف ولستُ حارث مِلحِم النَجّار، وكانت هذه غايتي الوَحيدَة آنذاك! كنتُ أشاهدُ بألمٍ شديدٍ السُّقوطَ المسيحِيَّ على أرضِ الخِذلانِ والنِّفاق، وقتالَ الإخوَة! لقد أدَّيتُ دَوراً بارزاً في مَسيرَةِ حَملِ الصَّليب حاملاً البُندقيَّةَ المسيحيَّة في أحزانِها، لأرَى جُحُودَها وخياناتِها، وهي تشيرُ بالإصبَع إلى لبنان، وتصرُخُ وتنادي: ''أصلبْهُ أصلبْهُ''. وهنا انتهتِ الحربُ بالنِّسبَةِ لي. واقتنَعتُ بأنّي إنسانٌ حتى إشعارٍ آخر، وأنّي مُسيَّر في هذه الدُّنيا ولستُ مُخيَّراً البتَّة، فأنا فقط.. دَخلتُ في البابِ الذي كانَ مفتوحاً أمامي. ثمَّ عادَ الحُلمُ القديم.. تماماً كأحلامِ الطّفولةِ تعودَ وتحكشُ بقصَبَةٍ ذاكرَتَنا الهادئة بينَ الحينِ والآخر، بيدَ أنَّ ذاكرَتي أنا.. مُستنقعٌ آسِن! تعرَّفتُ بُعَيدَ الحَربِ على فتاةٍ لطيفةٍ. أحببْتُها وصارَتْ زَوجتي، حتى ولو كان الكذِبُ سُخامَ كلِّ مفصلٍ من مفاصِل زواجي هذا. لقد ظننْتُ حينَها في الزَّواج مَرسَاةَ النَّجاة! زَوجتي من عائلةٍ كبيرةٍ مُحترَمَة، وهي أوّل من أخبرْتُها باسمي الحَقيقيّ: حارث مِلحِم النَجّار وليس سايد مَخلوف، وسايد بدورِهِ باتَ عنواناً إلى جانبِ طابورٍ منَ العناوينِ الكثيرَة. وهذه العناوين إن هي إلاَّ حُجُراتُ المنزلِ الذي يتنقَّلُ فيه الشَّبَح. وحافظتْ زَوجَتي على سِرّي ١١ سنة وهي مُدَّة زواجِنا. لقد أحبَّتني وأخلصَت لي. وكنتُ أنا أحبُّ ذويها كثيراً جدّاً، ولكنّي بالـمُقابل كنتُ أخشَى أعدادَهم الكبيرَة! فسَيطرَتْ عليَّ فكرةُ التَّخلّي عن حارث مِلحِم النَجّار نِهائيّاً، لأقتَنِعَ بشَخصيَّتي الجَديدَة.. سايد مَخلوف.. أنَّها الأفضَل لي في الوَضعِ الرَّاهن.

لقد كانَ الخوفُ عرّابَ هذا الزَّواج وإشبينَه! وكانَ خوفي من إنجابِ البنين عظيماً!! فأنا كائِنٌ شَبَح.. لا عنوانَ ثُبوتيّاً لي، وسايد مخلوف كائِنٌ خارجٌ على القانون. وأولادُ الأشباحِ أشباحٌ أيضاً. جاهدتُ أن أكتشِفَ، ومرَّاتٍ

عديدَة، شكلَ حياتي "المَدَنيَّة" لا "العَسكريَّة"، وباءَت جُهودي أيضاً بالفشَل. ورُحتُ للمَرَّةِ الأولى أعملُ كأيِّ إنسانٍ آخرَ في هذا البَلَد، لأحيا حَياةً شَريفةً كريمَة، وعملتُ في أماكنَ شتّى.. في الشّمال وجُبَيل والمَتن وبيروت والبقاع... إلخ. وهكذا صِرتُ أكتشِفُ لبنان! الجبالَ والسُّهول، البقاعَ والسّاحل، الشَرقيَّةَ والغربيَّة. وأكتشفُ أيضاً اللُّبنانيّين على اختلافِ مِلَلِهم ومذاهِبِهم، السُّنَّة والدُّروز والشّيعة والرُّوم والأرمن والكاثوليك وغيرَهم. واكتشَفتُ أنَّ هذا غنىً للبنانَ وَليسَ نقيصَةً البتّة! وحقّاً.. كم هي الحَيَاةُ رائِعَة في هذا البلَد! لولا الحَرب لكانَ لبنانُ جنَّةَ اللهِ على الأرض. كنتُ أحاولُ دائِماً إخفاءَ قوَّتي وشراسةَ طبعي، فأبرزَ شَخصيَّةً لطيفةً مقبولةً منَ الجَميع، وهكذا أخفيْتُ سِرّي عن كلِّ النّاس. وكنتُ مقتنعاً أيضاً وبوضوحٍ تامّ.. بأنَّه في أيِّ لحظةٍ تنقَضُّ عليَّ مُلمَّةٌ من المُلمّاتِ سيَنتفِضُ عندَها جِنُّ طباعي الشَّرسَة، ويفرضُ وُجودَه على السّاحَةِ ضارباً بالنِّفاقاتِ الأخلاقيَّةِ عرضَ الحائِط. وانتابَني ندَمٌ شَديدٌ فيما بَعد على الزَّواج، خصوصاً عندما أصبحَ لدَيَّ مالٌ أكبر بكثيرٍ من مساحةِ احتياجاتِ حَياتي. فأنفقتُ مالاً كثيراً على من هم حولي، وباتت مَلذّاتُ العَيشِ مُرَّةً في نفسي.

ثمَّ وللمَرَّةِ الأولى أيضاً، لعِبَ مالي الوَفرُ دَوراً إيجابيّاً في وجودِ الآخرين. لقد زَوَّجْتُ أختي التي تركَتِ الدَّيرَ وأحبَّت.. بهذا المال! ومع هذا فلم أبُحْ لها بسِرّي. لم يكن هناكَ تَبادُلٌ عاطفيٌّ عائِليّ بَيني وبَينَها كأيِّ أخوَين في أيِّ أسرَة، فعائِلتُنا منذ تكوُّنِها كلٌّ عَصاً في واد. كنّا هي وأنا نحاولُ أن نخبِّئَ الأحزانَ والمآسي في خزانةِ التَّجافي والرَّسميّات. محبَّة مُغلَّفَة بالجَفاءِ والقلَق والحَذَر، وحتى معَ مبادَرتي الماليَّة نحوَها. ربَّما كانت تعرفُ حَياتي السِرّيَّة.. ولكنَّها آثرَتِ الصَّمت.

كنتُ متيقّناً آنذاك، من أنّي أحاولُ أن أغرسَ خيراً ما في تُربَةِ زَوَاجي وعائِلةِ زَوجَتي الذين كنت أحبُّهُم وأحسِنُ إليهم بشَكلٍ جنونيّ. ربّما لأتَّقي شَرَّهم! ومع هذا فقد ألَمَّ بي في مَرحلةٍ ما من زَواجي شُعورٌ وجُوديٌّ مُطلق بالخوفِ مِنهم، لقد أشاروا إليَّ بالبَنانِ بأنّي حارث مِلحِم النَجّار.. الكائِن الشَّبَحِيّ اللاَّثبوتِيّ.. مالئ الدُّنيا وشاغل النّاس.. وهدَّدوني بفَضحِ أمري للدَّولةِ السُّوريَّة! وكانت أسرابُ عُمري بلغَتْ في رحلتِها إلى نقطةِ اللاَّرُجوع.

وفي بَحرِ هذه المرحلةِ الجُنونيَّة قمتُ بمُحاولاتٍ شتَّى للصُّعودِ من الهاوية والهروبِ إلى الأمام، أو ربَّما، أن أتخلّى عن فكرةِ الهروب، لأفتِّشَ عنِ المَلكاتِ الاجتِمَاعيَّةِ لدَيّ. فاكتشَفتُ في هذِه المَرحَلة مُجتمَعَ الأغنِياء، ونشَأَ في عقلي تحالفٌ ذكِيٌّ بينَ الجانبِ الحَربِيِّ عندي والجانبِ الاجتماعيّ. فأحبَبتُ عندئذٍ نفسي كثيراً لأنّي اكتشَفتُ الثريَّ الغبيَّ والفقيرَ الغبيّ، وأصبحَ النَّاسُ في دائِرَةِ وَعيي جَميعاً أغبياء! وأنتَ الوَحيدُ "في الميدان يا حديدان"، صاحبُ الشَّخصيَّةِ القويَّة، والمفتاحُ الواحِد لكلِّ الأقفالِ والأبواب، والجِنُّ الذي يخطفُ الأرواحَ ولا روحَ له. وكانَ هذا ميراثي الرّاهِن منَ المَرحلةِ التي سَبقَت. فكلُّ مرحلةٍ ورَّثَتِ المَرحلةَ التَّاليَة شيئاً ما. كانت مشاعرُ الخَيبَةِ أحياناً تنهشُ قلبي، خصوصاً عندَ نجاحِي وتألُّقي المالي. فأنا المُتقدِّم فكريّاً ولكنّي مُتخلِّفٌ ثبُوتيّاً!! كنت أستخدِمُ خلفيَّتي الحَربيَّة بقوَّةٍ لتفعيلِها في عالمِ الأشباح، وسرقةُ المصارف كانت أولى خَطواتي، وأوَّلَ أخطائِي الكبيرة في رحلةِ تَعَيُّناتي. وكانت هذه، للأسَف، نقطةَ البداية لا النِّهاية. وكنتُ هنا في بَحرِ أربَعينيَّاتِ حياتي.

لن أعودَ إلى الوراء.. لا إمكانيَّةَ للعَودةِ إلى الوراء.. لا أستطيعُ أن أعودَ

إلى الوراء! ومهما كان الثَّمَن. أنا سايد مخلوف وسأبقى سايد مَخلوف.. ولن ألبَسَ حارثَ مِلحِم النجّار ثانيةً.. ولا حتى في الـمُخيِّلَة! كان قد أصبَحَ لديَّ مئات بل آلافُ الأصدقاءِ منَ البَشر، وعِشتُ حَياةَ الأثرياء، وفي تواضعٍ شديد واحترامٍ للآخرين.. خوفاً من اكتشافِ الحَقيقة! فرُحتُ أصنعُ الحَياةَ والتّاريخَ بعقلي ويَدَيَّ الاثنتَين، مُستخدماً الخَيرَ والشرَّ في آنٍ معاً لبناءِ مَلكوتي الخاصّ بي وجَحِيمي في حيِّزٍ واحد. ولم تعُدِ القضيَّةُ هنا قضيَّةَ صراعٍ من أجلِ البَقاء.. بل البَقاء من أجْلِ الصِّراع! وبكلامٍ آخر أصبحَت هويَّتي بحدِّ ذاتِها هي الصِّراع، ويَستحيلُ أن يكونَ لي وجودٌ خارجَ الصِّراع.

ثمَّ زُرتُ فيما بعد، جميعَ المراكزِ المقدَّسَةِ في لبنان. ولأوَّلِ مرَّةٍ في حَياتي سألتُ نفسي سؤالاً، والأسئلةُ الوجوديَّة تعِنُّ لي دائِماً. ربَّما هي ما تبقَّى من نَثراتِ ضَميرٍ في ذاتي: "لماذا أنا موجودٌ في هذا الكون؟ وما معنى حياتي في هذا العالم؟ وهل يا تُرى هناكَ وجودٌ آخرُ بعد الموت كما يَزعمون؟ كنتُ في وادي قنُّوبين يومَها، وتأثَّرتُ بجَمالِ وسِحرِ الطَّبيعةِ في بدايةِ فصلِ الرَّبيع.. فشَعرتُ بسِرِّ الوُجودِ الإلهيّ. وللمرَّةِ الأولى أيضاً ألفظُ عِبارَة:

"إنَّ اللهَ عملاقٌ عَظيمٌ في أعمالِه! فسُبحانَ الله!".

وهذا أنا حارث مِلحِم النَجَّار صاحِبُ اللَّونِ الرَّمادِيّ، لن أصبحَ أبيضَ، ولن أكونَ أسودَ مهما حدَثَ في عقلي وقلبي. والحَيَاةُ وَحدَها أبي وأمّي [illegible]، وهي التي تمخَّضَتْ بصُورةٍ ما هو عليه (أبو غبْرَه)، ولا يستطيعُ [illegible] جلده، ولا النَّمِرُ رُقُطَه. وكانت قمَّةَ الحربِ الوجوديَّةِ [illegible] حارث ملحِم النَجَّار، مَعَ ثلَّةٍ منَ الحَيثيَّاتِ

وتداعياتِ العودةِ بالزَّمَنِ الدِّماغيِّ إلى الوراء!! أو.. ماذا يمكنُ أن يصيرَ سايد مخلوف لو كان مالكاً لعقارٍ وُجوديٍّ تَبُّوتيّ؟! حارث يُريدُ الذَّهابَ إلى الماضي.. وسايد يريدُ المُضيَّ قدُماً إلى المُستقبَل!! وربّما تبدو الفُصاميَّةُ هنا بسيطة.. إلاَّ أنَّها أعقدُ من هذا بكثير! فسايد لم يَشَأْ أن يبقى وَحدَه مُسيطراً على السّاحَةِ المُستقبليَّة.. فقد جَرَّ معَهُ طابوراً مِنَ الوجوداتِ المُتناحِرَة المُتنافسَة، فباتَت كفَّةُ المستقبل راجحَةً على الماضي: حارث من جهَةٍ.. وسايد وجيشُه من جهةٍ أخرى، وبالتّالي لا عودَة إلى الوراء بالمُطلق. وصرتُ أطربُ لكلمةِ ''يا ريت''.. ولكنّي أعرفُ يقيناً بأنَّها لن ''تُعمِّرَ بَيتاً''. ثمَّ حانتْ ساعةُ التفكير الهادئ بالحَقيقةِ الواقعيَّة أثناءَ دُخُولاتي إلى السِّجن، لأتأمَّلَ في عناصِر قوَّتِها وعناصِر ضعفِها أيضاً! في السِّجنِ هَجَرَتْني زَوجَتي وخانَتْني.. وفي السِّجنِ أيضاً اكتشَفتُ قوَّتي السِّحريَّةَ في الاختِفاء، أي الوجودَ الشَبَحِيَّ، فلم تُلاحِظِ الدَّوْلةُ وعيونُها السَّبعَة حارثَ مِلحِم النَجّار، ولا انتبَهَتْ حتى لسايد وطابورِهِ الطَّويل.

هنا.. أي في السِّجن التقيتُ بجوهان حدّاد.. صديقِ الطُّفولةِ الشَقيَّة! فأنكرتُ أنِّي أعرفُ الرَّجُل.. وتَحامَيتُهُ حينَ دنا منِّي ليُحادثَني. أبو غبْرَه وجوهان حدَاد انطلقا معاً في هذه الحِرفةِ المُغامِرَة وهذا الفَنِّ المُدَمِّر في المُراهقة.. وكانا يجهلان حتماً آنذاك.. أنَّ السِّجنَ هو نهايةُ المطاف، والنَّهرُ لا ينتهي إلاَّ في البَحر. لا أدري إذا كانَ الخَجَلُ أمِ الخوفُ هو الذي حالَ بَيني وبَينَه! ففي السِّجنِ أيضاً حَوَّمَتْ من حَولي عَدَساتُ خوفٍ شَديدٍ وَحَذَر، فأنا بغِنىً عن مِلفٍّ جَديدٍ يُهاجمُني مِنْ حيثُ لا أدري! والسَّماءُ وَحدَها هي التي عمِلَتْ على إخراجي مِنَ السِّجن بطريقةٍ مُعجزيَّة. ورُحتُ أتذكَّرُ الماضي.. أثناءَ نقلي مِنَ السِّجنِ المَركزيِّ إلى سِجنِ القبّة في طرابلس، إلى نقطةِ البداية عندما كنتُ مُراهقاً. ففي هذا السِّجنِ تعلَّمتُ حِرفةَ الخَوف. وفي سِجْنِ طرابلس أيضاً تتدَخَّلُ العنايَةُ الإلهيَّةُ مِن

جَديد.. لتُهدِيَني حُريَّتي ثانية. وسجنُ طرابلس ليسَ مُظلِماً وحَسْب.. بل هو الظُّلمَةُ عينُها! لم أصدِّقْ قطّ أنِّي خرجتُ إلى الحَياةِ من جديد. وبقيتُ لمدَّةٍ.. أنظرُ خلفي وعن يميني وشِمالي وفوقي وتَحتي.. خوفاً مِمَّن يأتي ليَقبضَ عليّ. وفجأةً! يَنفجرُ الشُّعورُ بالقيَم والضَّمير ومقولاتِ الأخلاق.. بالكذبِ الدّائم على أختي، بالإقلاعِ نهائيّاً عنِ استخدامِ السِّلاح والتَوقُّفِ عنِ المِمنوع، وبالتَخلِّي أيضاً عنِ الزَّواج والشَّعْبِ اللُّبنانيّ "بضَهرِ البيْعَه"! واتَّقدَ الحَنينُ في ذاتِي إلى حارث مِلحِم النَجّار.. ولكن معَ غصَّةٍ وحَسرَة. وصارَ الآخرون المقرَّبون يستفيدون من اسم حارث النَجّار لمصلحتِهم. واجتاحَني ندَمٌ عظيمٌ لأنِّي أعطيتُ مساحةً منَ التَّلاقي وَالتقرُّبِ الأخويِّ لأختي التي زَوَّجتُها بمالي، وقد أصبحَت بالتّالي سمّاعَةَ إفشاءِ أسراري. لقدْ ظنَّتِ المِسكينةُ أنَّ السِّجنَ يُربِّيني ويُغيِّرُني. ثمَّ رُحتُ أبتعدُ عنِ الماضي بابتعادي عن مُخالطةِ اللُّبنانيِّين، فجزءٌ كبيرٌ منهم يُشكِّلون ذاكِرَتي، لأصبحَ شديدَ التَعاطُفِ والإحساس معَ الأجانبِ الغربَاء، وبإفراط. وكانَ لديَّ استعدادٌ كامل للسُّقوطِ في أيِّ لحظةٍ رغمَ حَذَري الشَّديد، إن هو إلاَّ هبُوطٌ قويٌّ اضطراريٌّ على قدِّ نسبَةِ جَمَحاتِ رذيلتي وجنوني. وشرَعتُ في هذِه المَرحلةِ أولي الثّقافةَ القانونيَّةَ اهتماماً خاصّاً، وأسمَعُ كثيراً، وأعتزِلُ النّاسَ كثيراً، وأحنو على الضُّعفاء وهم جزءٌ من روحي، وخاصَّة صديقتي الفلسطينيَّة ريتّا، والتي هي بدورِها غارقة في دوَّامةِ الأوراقِ اللاثُّبوتيَّة. وحتى ساعتِها، لا أملكُ الشَّجاعةَ لأقولَ لها إنِّي أنا حارث مِلحِم النجّار ولستُ سايد مَخلوف أو غير سايد مَخلوف.

حبَّذا لو تحسَّنَ وضعي الثُّبوتِيّ يا حضرَةَ القاضي! وسأحاولُ أنا حارث مِلحِم النَجّار، أنا الوطنيُّ السُّوريُّ من قريةٍ صغيرةٍ اسمُها النبّك، أن أصوِّبَ شَوقي إلى ساعةِ لقاءِ حارث النَجّار بسايد مخلوف، ساعةِ المُصالحَة! وسأنتظرُ بَعدُ هذه اللحظةَ ما تبقَّى من شَتاتِ عُمري. أنا خيرٌ مُطلق

إختيارياً! وَشرٌّ مُطلق جَبريّاً، أنا حارث مِلحِم النَجّار المُلقَّب بأبو غَبْرَه أقولُ إنّكم أنتم ستدخلون النّارَ وأنا داخلٌ إلى المَجد! وسوفَ أجنِّدُ نفسي، وبكلِّ قوَّتي، معَ من هم مثلي لا ثبُوتيّين، وخصوصاً صديقتي الطّيِّبَة ريتّا التي تنتظرُني خارجَ السِّجن، لهذِه الغاية.. أن أرَى السَّعادةَ في ضِحكةِ الآخرين. لا أريدُ أن أصلّيَ إلى الله في هياكلِ العبادَة! فحَسْبي هذا المَطهَرُ هنا يُعقِّمُني من تاريخِيَ الأثيم بكاملِه. لن أكذِبَ على نفسي.. وسأعملُ جاهداً على تأسيسِ جَمعيَّةٍ إنسانيَّةٍ صغيرة للغُرَباء والأجانبِ اللاّثبُوتيّين، للوصولِ إلى الأمانِ النفسيّ. حارث مِلحِم النَجّار أسَدٌ في وقتِ الشِدَّة.. ولكنّي سأضَعُ الآنَ السَّيفَ على الرَفِّ، وأتمنّى أنْ يكونَ إلى الأبَد.

عندَما خُلِقَ الشَّيطانُ "عملتلّو مِغلي"! صَنَعتُ أشياءَ فاسدةً كثيرةً في نَظَرِ القانونِ والآخرين، ولكنَّها في نظري ليسَتْ فاسدَةً البتَّة.. لأنَّها لا تنتمي إلى روحي، بل إلى ظروفي، لأنَّها ليسَت خِياري بل قدَري. وخِبرةُ كومَةِ السِّنين أقنعَتْني بأنَّ العنايةَ الإلهيَّة إلى جانبي دائِماً، ولا أدري لماذا! فحياتي مثلاً.. خاليةٌ من التَّدخين وتعاطي المُخدِّرات وإدمانِ الكحول، والصِحَّةُ ممتازة! ولم أغتصِبِ امرأةً إلى الفراش، ونجَوتُ من المَوتِ مَرَّاتٍ، وخَرجْتُ منَ السِّجنِ مرّاتٍ عديدة بمُعجِزات! وأقنَعَتْني الخبْرَةُ أيضاً بأمرَينِ خَطيرَين لا يُبالي بهما اللُّبنانيُّون: نجاساتِ الإنسان الثَريّ، وموتِ الفقير! كانَ بمقدوري أن أتقمَّصَ مئةَ شَخصيَّةٍ.. فأنا لا أموتُ إلاّ عندَما تأتي لحظةُ مَوتي، وأحياناً كثيرةً يهربُ المَوتُ منّي مذعوراً. أنا لا أستسلم، ولكنّي أجاهدُ حتى الرَّمَقِ الأخير. وشعوري الدّائِمُ العَميق في داخلي يَهمسُ لي أنَّ المَرضَى مُحبوبون منَ الله.. تماماً كالأصِحّاء[18].

١٨- إنجيل لوقا ٥: ٣١

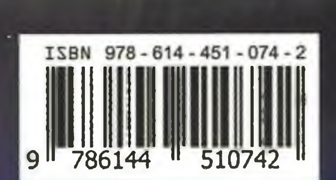
لقد عَرضَ عليَّ يا حضرةَ القاضي، أحدُ المُتنفِّذين في الشِّمال منذ زَمَن، ولدى الوزير أن يَمنحَني الجنسيَّةَ اللُّبنانيَّة، وأن أختارَ اسماً من مُسمَّيَاتي العَديدة. فضَحِكتُ ضِحكةً كبيرةً حتى بَكيتُ كالأطفال! وماذا تفيدُ الجنسيَّة الآن؟! فلو منحتُها اسماً من أسماءِ سايد مَخلوف مثلاً.. سأبقى مُطارداً، وهنا لستُ شبَحاً، فيَسهُلَ عندئذٍ القبضُ عليَّ. وإذا منحتُها اسماً جديداً سيكون.. حتماً.. تَجسُّداً آخرَ لسايد مَخلوف، لتزيدَ المَسبَحَةُ اسماً على أسمائِها. قدَري يا حضرةَ القاضي أن أعيشَ عُمري شبَحاً يَخشاهُ الآدميُّون.. لا نَصيبَ لي في الوُجودِ الحِسِّيِّ الحَيِّ، ولا نصيبَ لي في الحَياةِ الهانئَةِ الكريمَة، ولا نصيبَ لي في الجنسيَّة، ولا نصيبَ لي في بناءِ أسرَةٍ سعيدَة. ولو كانت رسالتي هذه طلبَ إدغامٍ لِتُهَمِي ودَعاويَّ الكثيرَة، في شكلٍ منَ الأشكال، فأنا أقولُ لكَ يا سيِّدي القاضِي بأنَّ العقوباتِ القانونيَّةَ لا تكافحُ الجَريمَة البتَّة، ولا التَّرميمُ النَّفسيّ، ولا العلاجاتُ الاجتماعيَّة، وهذه جميعُها نفخُ الهواءِ في نارِ جَبْلَتِنا الفاسِدَة! فالحَيَاةُ عندَما خبزَتنا، جَعلَتِ الطَّبيعَةَ القاسيَةَ العُنفيَّة خَميرَةً في تِلكَ العَجْنةِ اللَّعينَة.

تمّت

تشكّل الشخصيّة الرئيسيّة في هذه الرّواية رمزاً للشرّ والجريمة. وتظهر هذه الشخصيّة في طابور مُرعبٍ من التجليات والتعيّنات، إنها أثوابُها وأقنعتُها، سفورُها واحتجابُها، جنونُها وذكاؤُها! فيلتبس والحالة هذه على العقل المتأمّل في تركيبتِها.. أهي ضحيّة أم جلاد؟! فالبطل هنا يعشقُ المغامراتِ الخارجة على القانون، هي موهبتُه وابتكاراتُه المبدِعة. إنه يتحدّى القانون، ويُعلنُ العصيانَ المفتوحَ على الجِسمِ القضائيّ، هو قانونٌ لنفسه! ولكلّ مغامرةٍ شريعتُها الخاصّة، حنكتُها الخاصّة، وأيضاً تذييلاتُها الموقعَة لها دونَ سواها.

ولكن.. ما الذي أدّى بهذا الذكاء المُغامر والمُكابر في آنٍ معاً.. فتبنّى هذه الخياراتِ الجامحة؟ لماذا قدّمَ البطلُ حياته قرباناً على مذبحِ جنوناته الوسخة التي عاشها منذ سني طفولته الشقيّة؟! أهو اليُتم؟ أم الحرب؟ البيئة؟ أم الظروفُ التي عمِلت تحالفاً ذكيّاً.. بل كميناً مُحكماً.. على روح سندباديّة كازانوفية بامتياز؟! في قصّة وامضة بأخبارها، ولكنّها غنيّة بدروسِها المتوارية حيناً، والطافية أحياناً فوق دفقاتِ السّطور.

سامي معروف رسّام وشاعر وروائيّ.
صَدرَ له:
في قصص الأطفال: الجيل الذي يبكي، سلسلة رمزي ومرسودا.
في الشّعر: ذبيحة شفاه، قبور الشّهوة.
في القصّة: الأشياء التي تعمل معاً.
في الرّواية: رقصات التيه، أغانيات.


ISBN 978-614-451-074-2